A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UNIVERSITY
LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

U.J. Lib

CA
915.69
V920H
V.1-2
C.1

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الاستاذ حبيب السيوفي

الجزء الاول

الحقوق محفوظة

المطبعة البولسية
[illegible] - حريصا (لبنان)

تقديم

الاستاذ حبيب السيوفي قلم سيال في خوض المواضيع التاريخية القديمة . وقد طالع قرّاء مجلتنا « الرسالة المخلصية » الشيء الكثير من ذلك . وها هو اليوم يتقدم لنا في هذا الجزء الاول موضوعاً شائقاً عن بلادنا واحوالها وسكانها في القرن الثامن عشر ، وبطرفنا في جزء ثانٍ ببحث جليل من تقسيم هذه البلاد الى ايالات وولايات وعن افادات اخرى كما رواها احد مشاهير الغربيين الرحالة النقادة فولني .

فقد اقتضب السيد السيوفي هذه النبذة المختصرة من كتاب المؤلف المذكور بجزئيه ، بلغة عربية متينة سائغة ، تشهد له بطول الباع في الترجمة والتلخيص والايضاح ... وقد تكرم علينا اعزّه الله بهذه النبذة لنقدمها للرأي العام مطبوعة فتكون ذخيرة لخزانة الادب والمتأدبين . وقد جعلنا هذا الجزء منها هدية « الرسالة » لهذه السنة فعسى ان يروق القرّاء الافاضل . ويسبلون ستار العذر على ما وقع فيه من الاغلاط المطبعية فيصلحونها قبل القراءة . والكريم من عذر .

فهرس الكتاب

صفحة	
	تقديم
١	توطئة
١	المؤلف
٩	سكان سوريا
١٣	التركمان
١٥	عرب البادية
٣٢	الأكراد
٣٣	النصيرية
٣٦	الموارنة
٤٤	الدروز
٥٤	حكومة الدروز
٦٣	المتاولة
٦٥	الشيخ ظاهر العمر
٩١	علي بك المصري
١٠٦	وصف ما جرى من الحوادث بعد موت علي بك

نوطئة

تتضمن الصفحات التالية ما كتبه عن سوريا ولبنان وفلسطين ، رحالة بل عالم فرنسي شهير ، جاء هذه البلدان منذ مئة وخمسين سنة ، واقام فيها ثلاث سنين ، فدرس احوالها ، والمّ بشؤونها ، وكاد لا يفوته شيء مما رام الوقوف عليه ، خالط سكانها ، وتعلم لغتهم وألف عاداتهم . فالمعلومات التي توصل الى احرازها ، سجلها في كتاب ننقله معرّبين بعضه بتصرف ، وملخصين البعض الآخر بدقة . بيد انا اهملنا الكثير من فوائد المؤلف ، وهو اهمال متعمد ، لم يكن لنا منه مندوح . وقد ضربنا ايضاً صفحاً عن جانب الكتاب الخاص بجغرافية هذه البلاد ، وشرح طبيعتها . واما الحوادث التي جرت في عصر المؤلف ، والتي شهدها بأم عينه ، ووصفه الرائع لما وقع بصره عليه ، فذلك كله يجده القارئ ، كما قلنا ، اما معرّباً بتصرف ، او ملخصاً بامانة .

المؤلف

هو قسطنطين فرانسوا « فولني »[1] ولد في « كرَوان » احدى مدن فرنسة ، في ٣ شباط سنة ١٧٥٧ واسم اسرته « شاسبوف »[2] . عمد الاب الى ان يدعو ابنه بهذا الاسم ، فسماه « بواجيره »[3] .

(1) François de Volney, comte et pair de France membre de l'Académie Française, membre honoraire de la Société Asiatique séant a Calcutta.

(2) Chasseboeuf

(3) Boisgirats

وكان الاب محامياً لدى المحاكم ، فرغب ان يكون ابنه محامياً مثله ، لكن الابن لم يرَ في مهنة المحاماة ما كانت تصبو اليه نفسه . ولما اتم دروسه ، وكان قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، رحل الى باريز ، وبدلاً من ان ينصرف الى اللعب واللهو ، قضى في دار الكتب اكبر جانب من وقته ، مكباً على الدرس ، عاكفاً على قراءة المؤلفات التاريخية والفلسفية . ثم اختار الطب مهنة له ، فدرسه ثلاث سنين ، مثابراً في آن واحد على التردد الى دور الكتب ومطالعة المؤلفات المفيدة . ووضع في تلك الغضون كتاباً في علم التاريخ وعرضه على الاكاديمية الفرنسية التي خطأت روايته فيه لبعض الحوادث ، فبادر الى اصلاح خطأه ، بكتاب آخر دعاه « ابحاث تاريخية جديدة » .

وكان التفكير الطويل بغيته ، وشوق نفسه الى بلوغ المنى درجة الرقي في العصر ما يستطاع من الوقت . ولقد جاءته فرصة سانحة لادراك امانيه ، وهي انه ورث ستة آلاف فرنك ذهب . فعقد من ساعته النية على انفاقها في سبيل سياحة طويلة في انحاء مصر وسوريا . وكان الاوربيون اذ ذاك لا يعرفون من ذينك القطرين الا النزر اليسير . ولم يفته ما كان سيصادف فيها من الاخطار ، ويتجشمه من المتاعب والمشقات ، فقضى سنة بتمامها في التأهب للسفر ، متمرناً على تحمل التعب والجوع والعطش ، وعلى السير الساعات الطوال ، وتسلق الاكم والجبال ، والانحدار في الاودية والوهاد ، وامتطاء صهوة جواد بلا سرج ولا لجام .

واما الاسم والده فانه لم يقع لديه موقع الاستحسان فعزم على ابداله بغيره ، وفاتح في امره عمه ، فاتفق كلاهما على الاسم « فولني » وهو الاسم الذي اشتهر به بعدئذ .

وفي السنة ١٧٨٢ ركب البحر من مرسيلية ، غير حامل معه سوى بعض

الملابس [illegible]

فما وصل الى مصر [illegible]

[illegible]

قال له [illegible]

والعجب [illegible] بالمنامة الطيبة التي [illegible]

[illegible]

على جانب كبير من الحال [illegible]

[illegible]

[illegible] في اليوم الواحد

[illegible]

[illegible]

الاهرام العظيمة وخرائب تدمر العجيبة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ثم يهشم

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وصدق وطنية .

[illegible]

[illegible] الاحزاب وتناديا قد عرما القائد [illegible] الان بلا عمل ، فلا يطيب لي ان [illegible] عن البحث [illegible] من محال آخر لنشاطي . فانت تعرف [illegible] وسألتك ان تكتب لي [illegible] [illegible] ذات شأن [illegible] لذلك لا اشير عليك بالعمل [illegible] لكن ذلك لا يمنعك [illegible] [illegible] واضطهادهم [illegible]

[illegible]

[illegible] من رضاها عنك ؟ وانت [illegible]

[illegible]

[illegible]

الى منصبي .

[illegible] Lebon [illegible]

هو مواطني وزميلي ؟ واذا وجدته [illegible]
الى تناول الطعام على سفرتي غداً [illegible]

وفي غضون الأزمة اصبح [illegible] في اليوم
[illegible]
والارجح وتبدت من مصر [illegible]
على الادارة (Directoire) [illegible]
[illegible] بعدية لقيمة) ولكنه [illegible]
وزن الدخلية) رفضها ايضاً .

ومع ما كان عليه من طمع مستقل ومعس ايضاً [illegible]
[illegible]
[illegible]
دو بال ، ولم تنفصم علاقته الا [illegible]
لبونابرت في سجبه لقلب الحكومة في [illegible] ١٧٩٩
فان الباعث عليه [illegible]
[illegible]

[illegible] بونابرت
[illegible]
الطاعة والولاء بين يديه [illegible]
[illegible] هنا [illegible]
به ؟ لأجل ذلك [illegible]
والازدراء [illegible]

[illegible]

[illegible] من ايامه صاحبا مالكا لجميع [illegible]

[illegible]

[illegible] لاني اكره أن أقضي [illegible] قبل اراعي من مطالعة بعض [illegible]

[illegible] ٢٥ نيسان لسنة ١٨٢٠ وله من العمر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

دمشق [illegible] ١٩٢١

سكان سوريا

[illegible] مكلدان بابل ، الذين كانوا خاضعين لهم [illegible]

[illegible] عليها ، فجاءها سوريا [illegible] ثم [illegible]
فالمكدونيون ، فالروم .

ولما تقادم [illegible]

[illegible] نشبت فيها بعدئذ حروب اهلية [illegible]

[illegible] ثم فتحها الاتراك .

[illegible] في سوريا شعباً [illegible]
ننظر الى السوريين نظرتنا الى امة واحدة بل الى [illegible] ، وهم ذراري
الذين اخضعهم العرب بفتح بلادهم ، وذراري العرب الفاتحين ، والاتراك
المسيطرين الآن على سوريا .

[illegible] ثلاثة شعوب [illegible]

[illegible]

[illegible] والصحراء [illegible]

هزة الى الاسكندرون

[illegible] في سوريا عشلاً [illegible]

فان طباع سكانها قد تكيفت بطباع [illegible] الذين بعدما اقاموا فيها منذ [illegible]

[illegible]

من اهل الجبال

قد افاض [illegible]

ما يقال لك [illegible]

[illegible]

لا يعرفون هنالك قيمة القواد الضعيف المشهر [illegible] غير مستحبة في الشرق

حيث [illegible] بة ليكسبن بدالة .

[illegible] البلاد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الكلام

[illegible]

والحق الناحية من اكل [illegible]

هو دأب عام لاخراطهم في اشكال الى [illegible]

[illegible]

ان العربية لغة السوريين ؛ وقد روى [illegible] العرب

الحلبية ما زال سكانها يتكلمون بالسر [illegible]

حقيقة الامر الا من احد اكد له ذلك ، وهي [illegible]

وصيدنايا يتكلمون بلغة فاسدة [illegible]

سوريا كما في سائر البلاد [illegible]

[illegible]

[illegible]

وكاثوليك الذين يفهمونها .

[illegible]

انه كان[1] . والبعض من سكان سوريا [illegible]

اليها في قصد [illegible]

---

(١) [illegible]

[illegible]

[illegible]

اهل اليمن والساحل الحوراني اكثر [illegible]
[illegible] بذلك شعورهم .

[illegible]

[illegible] لغته ، فيكرن رأيه طائشا

وشعوب سوريا يقيم بعضهم [illegible] ويسكن الاراك في البلد [illegible] واما العرب والروم [illegible] فيها قرى الروم فهي ولاية دمشق

[illegible]

[illegible] وهي [illegible] الجبال [illegible] شرقي [illegible] البحر الابيض غرباً ،

[illegible] طولاً من [illegible] الى [illegible]

صور ، وعرضاً من البحر الى وادي القاع

[illegible] بلاد [illegible] حتى [illegible] ان هذا الشعب

كاد يمسي من الشعوب البائدة من [illegible]

[illegible] النصيرية في الجبال ما بين نهر عكار وانطاكية ، [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الجبال التي [illegible]

[illegible] حدود [illegible]

[illegible] في الشعوب [illegible] سهول فلسطين والقاع

والجليل

التركمان

[illegible]

[illegible] وآسيا الصغرى

[illegible] التركية ، وهم رحل [illegible]

الشاسعة [illegible] قطعانهم [illegible]

[illegible]

الصحراء

[illegible] العادات المألوفة [illegible]

[illegible] الى [illegible]

[illegible] من اهل

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فليس لهم التعرق الذي يزعلهم [illegible]

[illegible]

[illegible] وهما الولايتان اللتان

[illegible] ودخل اكلام في فصل الصيف

[illegible] ويعودون في الشتاء الى اماكنهم

المعتادة في [illegible]

[illegible] واما اخلاقهم فلا

[illegible] ويقال عنهم انهم كرماء

[illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] العرى

عرب البادية

[illegible] في مصر [illegible]

كتابه عن مصر ، لانه كان منذئذ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] والقدم وطباعهم ونزعاتهم ، وهو [illegible]

[illegible] يسوء حل يقيمون في أماكن

[illegible]

واما البدو الرحل الذين لا [illegible] بأرض [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] واما [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] عرب [illegible] الأكرم اصلا

والاقدم عهداً ، وقد يضيفون الى هذه الامم ، الطائفة « [illegible] » التي من سكان البادية

وليس من شك ان معظم اهل البادية يشكون عرق العرب [illegible] ، [illegible] ما من امة [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] ان [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] ، وفي [illegible] [illegible] [illegible] والفروع التي [illegible] العرب [illegible] [illegible] في [illegible] الى [illegible] اليمن واخرى [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] في عهد [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، وقد [illegible] [illegible] [illegible] حافظوا على [illegible] [illegible] ، حتى ان [illegible] اليوم في [illegible] [illegible] هم اقدم الروايات .

وقد [illegible] [illegible] الى [illegible] العوامل التي تحمل [illegible] من [illegible] [illegible] لا [illegible] [illegible] ، حتى ان [illegible] [illegible] [illegible] في الصحراء [illegible] [illegible] الوقت الذي [illegible] بعض [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] من الفكر في الامر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] الى [illegible] ، [illegible] في المقام الاول [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الى الاعتماد على [illegible] [illegible] [illegible] البرية ؛ فان كانت [illegible] [illegible] [illegible] وان واحد ما [illegible] منها في بقعة كبيرة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

والعامل الآخر فساد الحكم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الاردي التي [illegible] [illegible] الاكراد [illegible] [illegible] على [illegible] سوريا ، وفي جهات ديار بكر

ونواحي الاناضول ، تصلح للفلاحة والزراعة ، بل هي خصبة ايضاً . لكن الدولة التي لا تكترث لمصير رعاياها ، تستكثر عليهم حتى سبل الارتزاق ، بارهاقهم ظلماً ، وتركها اياهم يتخبطون في لجج الفوضى والاضطراب فهي اذاً المسؤولة في الاصل عن عدم استقرار تلك القبائل في صقع واحد . ومما لا ريب فيه ان هؤلاء الرحل يؤثرون الاقامة في مكان واحد ان تسنى لهم ان يعيشوا فيه بامان وطمأنينة ، فيصبحون مع مرور الايام ؛ وبالعكس اذا دفع الاستبداد سكان قرية الى اليأس ، يهجرون حقولهم ودورهم ، وينزحون من ديارهم ، لاجئين الى الجبال ، وطائفين في السهول ، ناقلين مساكنهم من مكان الى آخر ، ومتى اشتد ما يكدر صفو عيشهم كثيراً ، يصبح بعضهم لصوصاً وقطاع طرق .

وطبيعة الصحراء هي التي تحمل البدو على ان يكونوا رحلاً ؛ ولكي نعرف ما هي تلك الصحارى ، علينا ان نتمثل سهولاً فسيحة الاتساع ، لا منازل فيها ولا ماء ولا جبال ، تغطيها دوماً سماء حارة اللون ، صافية الاديم . يضيع البصر في افقها المتساوي كالبحر الذي لا نهاية له ؛ او علينا ان نتمثل اماكن تعلو ارضها وتهبط على التوالي كالامواج ، او تحمل على سطحها الحصى والصخور ، وهي عارية على الدوام ، ليس عليها سوى نباتات متفرقة ، او شجيرات موحشة متشعثة ، لا يطرق عزلتها الا بعض الجراد والجرذان او الارانب والغزلان .

تلك هي على وجه التقريب البلاد الواقعة بين حلب وبحر العرب ، وبين مصر وخليج العجم في بقعة طولها نحو ستمئة فرسخ ، وعرضها نحو ثلاثمئة . ففي هذه الشقة الفسيحة ليست التربة واحدة ، بل هي خصبة على الحدود السورية وشاطئي الفرات ، وحجرية بيضاء في الداخل من الجانب الجنوبي ، وصخرية

في برية التيه وحضرموت ، ورملية في الجانب الشرقي من اليمن .

ففي الاماكن الماحلة القليلة النبت ، تتضاءل القبائل وتتباعد مضاربها ؛ وحيثما تكون الارض جيدة التربة ، تزدد فيها القبائل وتتدانى مضاربها .

ومحل الصحراء ناجم في الاغلب من قلة الينابيع فيها وقطر الشتاء . لا يوجد الينبوع فيها ، ولا يحدث جدول ولا ترعة . ولذلك سكان تلك الانحاء يتفرقون الى الماء في شهر الصيف . فصيف واحد يذهب بعد سنة كاملة ، محتملاً المحل والجوع والعطش . ومتى حمي الامر حدث الامر العسير ، اذ ان الماء ينحبس في عمق بعيد ، غير انه يرتفع عند جفاف الماء ، واشتد الجوع والعطش ، هجر السكان اراضيهم وارغموا بقحطهم وفقرهم عن ديارهم .

فلا تعد هذه وشأنها ، حالتها غير مستقرة ، وحكومتها غير حسنة ، ويفضل اهلها عيشة رعاة الرحل على عيشة الفلاحين الثابتي المسكن .

وفي الارض الصخرية والرملية ينبت الحشيش على اثر سقوط المطر ، ويحيا العوسج والشيح والحرذب ، ويحدث في الاماكن المنخفضة مستنقعات ينمو فيها العشب والقصب ، ويكتسي حينئذ السهل بحلة خضراء ، ويكون الفصل فصل خير وخصب للقطعان واصحاب القطعان ، غير ان ذلك كله يزول ويضمحل بدخول القيظ ، فلا يبقى حينئذ على تلك الارض البائرة لقفار سوى سوق قاسية كالحطب لا تقوى الماشية على رعيها ، فتصبح البادية غير صالحة للسكن ، ويضطر اهلها الى الرحيل عنها .

على ان الطبيعة تداركت الامر ، فاوجدت في البادية حيواناً خشن الطباع ، قنوعاً ، زاهداً في الاكل والشرب ، وذلك الحيوان هو الجمل ، وهو الوحيد الذي يناسب هواء تلك الاصقاع ومراعيه . فالخالق عز وجل قد جعل بحكمته الازلية طباع هذا الحيوان ملائمة صفات البادية واحوالها ، فوضعه في اراضٍ جدبة ،

وكونه شكلاً يساعده على تحمل التعب ، وتحمل عذاب الجوع والعطش . فلم يعطه شكل البقر ، ولا طبيعة الخيل ، ولا هيئة الفيلة ، بل جعل له رأساً صغيراً في آخر عنق طويلة ، وفكاً قوياً يمكنه من سحق أصلب العلف . ولئلا يأكل كثيراً ضيق له معدته ، وصغره بطناً وجرد سيقانه وأقدامه من العضلات التي لا تفيده في حركاته، ولكنما قدمه سكنة من اللحم، فقدمه تأتي على الوحل ولا تقوى على تسلق المرتفعات ، فلا يستطيع السير الا على ارض جافة مستوية . وخلقه سبحانه وتعالى ليكون عبداً صبوراً خدوماً . فلذلك لم يعطه وسيلة ما يمكنه للدفاع بها عن نفسه، ولا جعل له قرن الثور، ولا حافر الفرس ، ولا ناب الفيل، ولا خفة الأيل فاذا يستطيع الجمل معه اذا هجم عليه الاسد او النمر او الذئب. ولئلا تفنى سلالته ولدته في الصحاري الفسيحة الارجاء حيث لا نبات، ولا شجر، ولا خضرة تجلب اليها الفرائس فلا تدنو منها الوحوش الضارية المفترسة .

ولما دجن الجمل صار الواسطة التي جعلت جدب ارض صالحة للسكنى وهو وأنثاه يزودان صاحبهما بكل ما يحتاج اليه ، فحليب انثاه يغذي البدوي وبنيه، وكثيراً ما يأكلون لحمها أيضاً، ويصنعون النعال والسروج من جلدها، والملابس والاخبية من وبرها . واذا بخلت الارض بعلف على الفرس التي يعزها البدوي ، بادرت الناقة الى تغذيتها بحليبها ، ولم يحملا صاحبهما بدل ذلك كله سوى الذي اليسير من العوسج والشيح وبعض نبات محترقة .

فتلك هي أهمية الجمل في البوادي والصحارى ، فلو افتقدوه لما غادرها جميع سكانها ، وهم الذين يعتمدون عليه وحده دون سواه ، ولقد أثر هو في حالة البدو التي خصهم الله بها ليجعل منهم شعباً فريداً في قوته وعاداته فهذه الصفات المميزة جعلت حتى جيرانهم السوريين ينظرون اليهم بعجب وهؤلاء البدو هم على الاخص قبائل عنزة وشمر وطي . ولما جاء بعضهم

عكا في ايام الشيخ ظاهر العمر ، كان لمظهرهم تأثير غريب لما كانوا عليه من نحافة خصر ، ونحول جسم ، واسمرار بشرة : فسيقانهم الدوية الدقيقة لم يكن فيها سوى عضلات ، وسواعدهم كانت تبدو كأنها لاصقة بعظامهم . وأما شعرهم فيجدل كشعر الزنوج . وهم ايضاً قد دهشوا مما رأوا فكانوا يسألون بذهول كيف تستطيع البيوت والقباب البناء منتصبة في الهواء ؟ وكيف يجرؤ الناس على الدنو منها والإقامة تحتها ، وهم يرضون بالسكن في مكان واحد ، ولا ينتقلون الى غيره . والأمر الذي بلغ بهم منتهى الدهشة والعجب هو ان مظهره فاق كل ما امكنهم تصوره . وقد حدثوهم عن الجوامع والمساجد والوضوء والصلاة ، فكانوا يسألون عن ماهية كل ذلك ، ومن هم موسى وعيسى ومحمد ، ولماذا الشعب الذي لا يؤلف عدده قد يجتمع لعدة رعاة .

وأما العرب المقيمون بالوادي او قرية على الحدود فانهم اكثر خبرة من بدو الصحراء ، وبعض قبائلهم الصغيرة تقيم في سهل البقاع ووادي الاردن وبلاد فلسطين ، لا يكاد فرق بينهم وبين الفلاحين ، غير ان بدو الصحراء ينظرون اليهم بازدراء ويعدونهم عرباً غير اقحاح وعبيداً للاتراك .

والبدو في العموم صغار القامة ، نحاف الجسم ، سمر البشرة ، وهذه الصفات اكثر ظهوراً في بدو الصحراء منها في العرب المقيمين بالأودية الواقعة على الحدود ، وأقوى في هؤلاء منها في جيرانهم الفلاحين . وقد نجد مثل هذا الفرق حتى في حي واحد ، فالمشايخ اي الامراء وخدمهم هم في الغالب اكثر بدانة واطول قامة من غيرهم . ويمكن عزو ذلك الى غذائهم ، فغذاء البدوي للرجل الواحد من عامة الشعب لا يتجاوز وزنه على مئة وثلاثة وثلاثين غراماً ، وهو امر يصعب تصديقه . وهذا الزهد في الاكل يبلغ اقصاه في عرب نجد والحجاز : ست أو سبع تمرات مغمسة في السمن ، ومقدار ضئيل من الحليب

او الاثنين يقوم بمؤونة المرء في اليوم الواحد . واذا تيسر لاحد ان يضيف الى ذلك شيئاً من الطحين الخشن والارز ، حسب نفسه سعيداً . واللحم لا يأكلونه الا في المواسم ، ولا ينحرون الجداء إلا في الاعراس والمآتم . وزهد كهذا من شأنه ان يجعل البدوي العادي يقدم على أكل احقر الطعام ، حتى انه لا يستنكف من أكل الجراد و الجرذان والجرادين والأفاعي المشوية
ونفس هذا الزهد هو الذي يسوق البدوي الى التعدي على الزرع وسلب السابلة . وزهدهم في الأكل ، بل فقرهم ، يجعلهم نحاف الجسم صغار القامة ، ضعاف البنية . واما دمهم فلا يخلو من الصلابة ، ويفتقر الى الحر الشديد لكي يظل سائلاً . ولكنه طاهر نقي . لذلك الامراض عندهم اقل وقوعاً منها في البلاد العامرة .

وإن ليس زهد البدو في الاكل والشرب عصبية ، وليس هواء بلادهم هو وحده الذي يضطرهم اليه . ولا ريب ان طريقة تغذيتهم تحول دون تعدد عددهم فتمكنهم من تحمل هذا الزهد و التقتير الذي سببه الاول والأكبر عندهم كما عند غيرهم ، هو الضرورة التي تفرضها عليهم طبيعة أرضهم ، وإما حالتهم الاجتماعية كما سيأتي شرحه .

قد مرّ بنا ان البدو يؤلفون عدة قبائل ، تتخذ كل واحدة منها أرضاً فسيحة تعدها ملكاً لها ، لكي تستطيع ان تجد لمواشيها المراعي التي لا غنى عنها على مدار السنة . وكل قبيلة تؤلف مخيماً او عدة مخيمات متفرقة في تلك الارض ؛ واذا ما رعت انعامهم على بقعة من العشب ، ساقتها الى بقعة اخرى . وقد يكون هنالك بعض البقع التي ترى تارة مأهولة وتارة مهجورة . غير انه لا غنى للقبيلة عن تلك الارض بكاملها كل ايام السنة . واذا قبيلة اخرى او بعض الأفراد دخلوا ارضاً يعدها ارضهم عوملوا

معاملة اللصوص و الاعداء ؛ فتنشب حينئذ الحرب فيما بينهم ؛ وما من قيود
قرابة او عقود محالفة تربط بين قبيلة واخرى ، وبذلك تصبح الحرب شاملة ؛
اما ما يحدث عندئذ : فعندما يعلم رجال القبيلة بوقوع التعدي على ارضهم
يقتفون عدوهم ، ويجدون في اثر المعتدي ، فيلاقي الفريقان ، ويتطاردان ؛
وقد يتصافحان ؛ والاعداء يتهاجمان ، ويتضاربان وهم محاربون ؛ فهي المعركة
ورماحهم مشكوكة ؛ وقد يتراميان بها مع ما هي عليه من طول ؛ فيرمي
عندئذ احدهم [illegible] لا ترمي الا [illegible] ، ويقوم [illegible] ضربة من وحد
القاتل ؛ فيولون عامة [illegible] والقبيلة المغلوبة تبادر الى قلع خيامها
وتبعد [illegible] الى [illegible] والظافر الذي يكون قد بلغ
مرامه ، يستولي على قطعان خصمه ، ومقتنياته الى جانبه ، فيرجع عندئذ الظافرون
الى ارضهم . واذا وقع قتل في المعركة من احد [illegible] الفريقين .

اما قضية الامن في تلك القبائل او حدث [illegible] المصور شريعة
عامة توجب سفك دم القاتل تارة لدم القتيل ويحق الاخذ بالثار يعود الى
الاقرب الادنى من القتيل . فان تهاون في ذلك لحق به العار والشنار . لاجل
ذلك يعمل بتحقيق [illegible] للانتقام واذا فات خصمه من جراء عوامل غريبة
عنه ، فذاك لا يشفي غليله ؛ فيأخذ عندئذ ثاره من اقرب الناس الى الخصم .
وتلك الاحقاد تتوارثها البدو خلفا عن سلف ، ولا تخمد الا بانقراض احد
الفريقين ، و باتفاقهم على قتل المذنب ، او دفع الدية من المال والمواشي .
وفي ما خلا ذلك لا يبرم صلح ولا تعقد هدنة ، ولا تتم مصاهرة بينها او
وبين القبيلتين المنتمين اليهم ، فيقول بعضهم لبعض عن كل [illegible] ومسحة
«بيننا دم» وهذه العبارة هي بمثابة حاجز لا يمكن خرقه . وان الحوادث
التي من هذا القبيل تزداد مع الايام ، لذلك يحصل النزاع دائما بين معظم القبائل

التي تمسي في الحالة حرب دائمة ، وهو امر يجعل البدو رجال حرب متأهبين لخوض المعامع في كل ساعة .

وطريقة نصب خيامهم تجعل مخيمهم شكل حلقة غير منتظمة الاستدارة مؤلفة من جملة خيام بأبعاد متفاوتة ، فينصبونها على ثلاثة او خمسة أعمدة علوها خمس او ست اقدام . والمخيم كهذا يرى من بعيد كأنه بقع سوداء ، غير ان عين البدوي الحادة النظر لا يفوتها شيء .

وكل مرة تقيم خيمة يشطرها حجاب شطرين ، يخصص احدهما بالنساء . والساحة التي في وسط الحلقة المكونة يجعلون فيها مواشيهم ليلاً ، وليس هنالك متاريس حولها تحميها ، وكلابهم هم العسس والحراس . ويبقون خيلهم مسرجة معدة للركوب لدى اول اشارة تشعر بدنو خطر . وعادتهم لا ترتيب عندهم ولا نظام ، فيدهمهم العدو مباغتة بخيامهم التي لا تقوى على وقاية الذين فيها . لاجل ذلك يحدث كل يوم نهب وخطف وشر . فالسلب والنهب هما شغل العرب الشاغل .

والقبائل التي تقيم في جوار المدن والقرى حالتها احسن نسبياً من غيرها ، فالحكام الذين يعدون انفسهم سادة البلاد ، يعتقدون ان العرب رعاة متمردون او اعداء مقلقون ، فيضايقونهم ويضطهدونهم ، او يخاصمونهم بحجة ارض احتكروها بيدهم ، او يكرهونهم على دفع اموال لا يحق لهم مطالبتهم بها . وان نشب نزاع ما بين شيخ وآخر ، ايدوا تارة هذا وتارة ذاك ، وهكذا يتوصلون الى القضاء على الاثنين معاً . وكثيراً ما يسمون او يغتالون الزعماء ذوي الشجاعة والدراية .

والعرب يعدون الاتراك غزاة ومغتصبين ، ويسعون جهداً في إلحاق الاذى بهم . فاذا دارت رحى القتال بينهم ، وقعت التبعة على الابرياء ، واصابت

للفلاحين الاضرار التي يحدثها القتال ، فينتهب الزرع ، وتجتاف المواشي ، وتقطع الطرق ، ويقف دولاب التجارة .

تلك هي حالة العرب خارج البادية ، فهي معرضة لاتقى الصراع .

وقد يحدث ان قبيلة ضعيفة تسمو وتقوى ، بينما قبيلة اخرى قوية تخمد في الانحطاط او التلاشي ، لا لنقص عدد افرادها بل بانضمامهم في قبيلة اخرى .

والقبيلة قد تتألف من اسرة واحدة او من اسر عديدة لبعض افرادها لقب « شيخ » او « امير » ، فهم يشعرون من هذا القبيل اعيان رؤساء القبيلة ، او اشراف او ربما احدثة . وواحد من هؤلاء الشيوخ او الامراء يدعى الاول ، فهو المتولي عليهم . وكلما ازداد عدد افراد اسرته وحلفائه ، قويت شوكته ، وعلا شأنه ، وله طائفة من الخدم يلازمونه ويمشون في معيته .

وقد ينتمي اليه اسر ضعيفة لا قبل لها ان تعيش مستقلة بذاتها ، نظراً الى ضعفها ، فهي تفتقر الى حماة وحلفاء . وذاك هو الداعي الى ان كلهم يعرفون باسم زعماء ، او يكنون باسم الاسرة السائدة المنتمين اليها . فيقال فيهم فلان ابن فلان من القبيلة الفلانية ، وهم انهم ليسوا من دوحة واحدة ؛ الى هذا الفصل ينتمي اولاد علي .

ان الحكم عند اهل البادية هو في يد واحد حربي وشمي ومطير ، من غير ان يكون في الحقيقة لا هذا ولا ذاك ، فهو شيخ كان للشعب الرأي الاول في كل امر من الامور ، ولا يجري شيء الا برضى وموافقة الجماعة . وهو حربي ينتمي الى الاعيان ، كما ان اسر المشايخ تتمتع بامتيازات لا يستطيع احرازها الا من كان صاحب جاه وبأس . ثم هو استبدادي اذ الشيخ المتقدم على الجميع له سلطة واسعة ، بل مطلقة ، ففي وسعه ان يمعن في السلطة ، ويتمادى في الحكم مستبداً في رعيته . بيد ان هناك ما يردعه عن الاسترسال

في العسف والاستبداد . فان ارتكب عملاً جائراً ثقيلاً ، كقتل احد ، صعب عليه التملص من العقاب ؛ فسمعة حرمته لا يحفظها علو مقامه ، بل لا بد ان يثأر منه . واذا توانى في تأدية الدية قتل لا محالة . وقد ليس بالامر اليسير نظراً الى نوع المعيشة التي يعيشها الشيخ في وسط اقوامهم . وان اغاض رعاياه واساء معاملتهم هجروه وانضموا الى قبيلة اخرى . واقاربه انفسهم يتحينون عند ذلك الفرصة لاسقاطه واستبداله بغيره . وليس في وسعه مقاومتهم ، اذ ما من احد من خارج القبيلة يأتيه ليشد ازره . وهو ايضاً يعجز عن التفريق بينهم او من انشائه فيهم حزباً موالياً له ، باغراء فريق منهم بالهدايا والعطايا ، وهو لا يملك من حطام الدنيا الا شيئاً يسيراً مثقلاً بالنفقات .

وعلى شيخ كل قبيلة ان يقوم بواجب الضيافة نحو زوار القبيلة وقاصديها ؛ فهو الذي يستقبلهم جميعاً . والى جانب خيمته فسطاط واسع ينزل فيه كل غريب او كل عابر طريق . وفيه يعقد المشايخ والاعيان جلساتهم واجتماعاتهم لحل الامور والنهوض في مختلف الشؤون ، كفض منازعاتهم ، واعلان صلح ، واعلان حرب ، والفصل بين قضايا الافراد ، ومعالجة ما يحدث بين قبيلة واخرى من المنازعات ، وما الى ذلك من الامور . فعلى شيخ القبيلة ان يقدم لهؤلاء الوفود القهوة والماء والارز ، واحياناً الجدي والحمل المشوي ، اي انه يضطر الى بسط سماطه دوماً . ولاجل المحافظة على سلطته ونفوذه ، يتحتم عليه ان يكون كريماً ، ففي نظر البدوي الجائع فضيلة الكرم رأس الفضائل . وقد اثبت الاختبار ان الشيخ الخسيس قصير النظر . وللقيام بتلك النفقات لا يعتمد الشيخ الا على قطعانه ، واحياناً على بعض الحقول المزروعة ، او على ما يجمعه في الغزوات ، او على الاتاوى التي يتقاضاها من عابري الطريق . ولعمري ان دخلاً كهذا لضئيل هو .

ان الشيخ الذي قصد اليه فوني ، ونزل ضيفاً عليه ، كان يعد من حيث الشوكة والغنى في طليعة مشايخ تلك الانحاء. مع ان ثروته لا تتجاوز في مجموعها ما ينفقه عادة فلاح ميسور الحال، فهو يملكه مقصور على بعض الاخبية، والسجاد، والسلاح ، وخيل ، والابل ، وقيمة كل ذلك لا تزيد على الخمسين الف قرش. فلاجل ذلك كلمتا «مولى» و«امير» ليس لهما معنى مدلول لدى ما يسميه الينا الاوربيون . وقد نكون على صواب فيما اذا شبهنا الشيخ والامير باصحاب المزارع الواقعة في الانحاء الجبلية في فرنسا . والفريقان متماثلان من حيث الاخلاق وبساطة العيش والحياة المنزلية . فالشيخ الذي تحت يده خمسة افراس لا يستنكف من اسراج فرسه والجامها بيده ، ووضع الشعير او التبن في مرودها وعلافها . وفي خيامه هي امرأته التي تخض اللبن ، وتصفيه ، وتغلي القهوة ، وتطحن ، وتطبخ ، وبناته هن اللاتي يغسلن الثياب ، ويردن الماء والجرة على هامة رؤوسهن كما كانت بنات جسيمي بلادي في عهد موسى وايام هوميروس

ويعد البدو من اعرق الامم المبتذلة التي يشد بها غرائزهم. فان ما تملكه اسرة بعض الابل ، والمعز ، او النعاج ، وفرس ومهرها ، وخيمة ، ورمح ، وسيف، وبندقية ، وغليون ، ومطحنة يدوية ، وقدر ، ودلو من جلد ، ومحمصة ، وحصير ، وبعض الثياب ، وعباءة صوف سوداء ، ومن الحلي : اساور ، وخلاخل من فضة او نحاس . فالاسرة التي لا ينقصها شيء مما جئنا على ذكره ، تعد غنية . ومما يتوق البدوي الى احرازه ، ويرغب فيه كثيراً ، الفرس . وحقيقة ان هذا الحيوان هو عندهم خير واسطة للثروة ، فعليه يذهب البدوي الى الغزو ، ومقاتلة القبائل المعادية . والفرس يفضلونها على الحصان ، لانها لا تصهل ابداً ، وهي سهلة الانقياد ، وتدر الحليب الذي يغذي الجوعان ، ويروي العطشان .

البعيرة هي ثروة البدو ، لانهم لا يكترثون الا لما لا غنى لهم عنه . فلذلك

نرى ان صناعتهم مقصورة على صنع الخيام والحصر ، واستخراج الزبدة من الحليب . وتقوم تجارتهم بتبادل الابل والجداء ، والذكور من الخيل ، والالبان ، والامتعة ، والثياب ، والارز ، والحنطة ، والنقود التي يطمرونها . واما العلوم والكتب فلا اثر لها عندهم ؛ ويندر ان تجد بينهم من له المام بالقراءة والكتابة ؛ فلا يعرفون سوى رواية الحكايات التي تشبه « الف ليلة وليلة » وهم مولعون بسماعها ، وهي تشغل اكثر قسط من اوقات فراغهم . فعند المساء يتربعون على الارض خارج الخيام او داخلها ، بحسب ما يكون الجو حاراً او بارداً . ففي فصل الشتاء ، يلتفون حول نار من روث مجفف ، يصطلون بها . ويستحثون احلامهم بالتفكير من غير ان يبرموا مشكلة ما ؛ ثم يبدأ احدهم فجأة ويقول : في ذلك الزمن وفي سالف العصر والاوان كان . . . ويتابع كلامه راوياً ما حدث لاعرابي شاب واعرابية صبية . ويقص كيف وقع نظر الشاب بادئ ذي بدء على الفتاة فشغف بها . ويعدد من ثم واحدة واحدة جميع صفاتها الحسنة ؛ فيطري عينيها السوداوين وحاجبيها اللذين يشبهان قرون الغزلان ، ولحظها الذي يذهب سهمه الى عمق القلوب ؛ ويشبه حاجبيها بقوسين من الابنوس الاسود ؛ وقامتها الطويلة المشوقة كالرمح ، ومشيتها الخفيفة التي تمثل سير القطاة ؛ ووجنتيها بمكحلتين ؛ وشفتيها بالزنابق ؛ وشعرها الخصلة كاحدى الذهبية اللون . وثدييها المشدودين كاكواز رمان ؛ وكلاهما الاحلى من العسل . ثم يصف ما يكابده الشاب من الالم في سبيلها ، وكيف يذوب من شدة هيامه بها الى ان يصبح جسمه كالخيال . وبعد ما يذكر الراوي محاولات الشاب لنيل حبيبته ، وما يضعه ذووها من العوائق في سبيله ، ثم اتحاد الاعداء على اختطافهم له وما ، يختم حكايته باتحادهما متحدين سعيدين الى خباء الوالدي . فيسر الحاضرون بهذا الختام المفرح ، مثنين جميعاً على بلاغة الراوي .

وللبدو ايضاً الاغاني الغرامية التي تعبر عن الشعور بشكل اصح واصدق من اغاني سكان المدن ؛ ذلك لان اخلاق البدو طاهرة فيعرفون الحب الصحيح واما سكان المدن فانهم مرتطمون في الدعارة فلا يرعون الا في الاستمتاع والتلذذ .

ان البدو ولا سيما الذين يقيمون منهم في قلب الصحراء، لهم حالة تشبه من بعض الوجوه ما هم عليه هنود اميركة ؛ غير انهم ليسوا متوحشين مثلهم ، ولا هم يأكلون اللحم البشري ، بل نجدهم اكثر لطفاً ، واحسن عشرة واسلس اخلاقاً. فلمَ اذن هذا الفرق بين الشعبين .

ان البحيرات والغابات وكثرة المراعي ووفرة الكلأ في البلاد الاميركية تجعل المعيشة التي توافق الرعاة سهلة ميسورة فيها . غير اننا نجد ان نفس هذه الغابات قد فقدت الحيوانات اللاجئة اليها هرباً من سيطرة ابن آدم عليها الذي اضطر لاجل ذلك ان يصبح صياداً . فالعادات التي الفها قست طباعه ، ومشقات الصيد خشنت جسمه ، والجوع الشديد الذي يعقبه تخمة اللحم المصطاد الوافر ، صيّره شرهاً بعيداً عن التحكم بنفسه ، وتسلطت عليه العادة القبيحة مؤدية الى القتل وذبح الاوضاع ؛ ولما دفعه الجوع مدة الى اكل اللحم ، ولما لم يجد امامه سوى لحم قريبه دفعه الاقدام على اكله ؛ فقتل الاقرب اليه ، فاضحى ذلك عادة عنده ؛ فصار سفاكاً فتاكاً غليظ الكبد .

واما البدوي فلبثت تلك حالته . اذ وجدها القدر في سهول واسعة لا مرج فيها ، ولا شجر ، ولا قانص ، لم يعد في وسعه ان يكون صياداً ؛ فاوجد الحل الميلَ فيه الى اقتناء الانعام لرعيها . ولما انه لم يجد امامه سوى الشيء اليسير من القوت ، لذلك اعتاد الزهد في الاكل قانعاً بلبن مواشيه وبعض الشيء من التمر . فهو اذن لم يشتهِ اللحم ، ولم يذق

الدم ، وبداهة لم تألفا القتل ، واذنه لم تعتادا سماع انين المتوجع المتألم ، فظل يخفق في حشاشته قلب رقيق شفيق . وهذا الراعي الغير المتحضر ما ان عرف كيف يستخدم الفرس ، حتى غير اسلوب حياته ؛ فقدرته على قطع المسافات الشاسعة بسهولة وسرعة جعلته رحالاً . كان حريصاً يتحاشى القحط ، فصار محارباً بدافع الجوع والطمع فهو اذن يحب الغزو . وان لقي مقاومة، اعتقد ان ما يمسه لا يبرر المخاطرة بحياته . ولا يمكن استثارة غيظه الا بسفك دمه ؛ فيصبح عندئذ شديد البأس ، ميالاً الى اخذ الثأر على قدر ما كان حريصاً على اجتناب الخطر .

وقد يؤاخذ عليه ميله الى الغزو ؛ فنحن نجيب ، ليس رغبة في تبريره ، بل حباً بالحقيقة ، انه لا يغزو الا الغريب الذي يعده عدوا فهو، والحالة هذه ، ما يتنكر على الحب الأخوة المزعومة عند معظم الامم .

واما حياته الاجتماعية فيسودها الثقة والنزاهة والكرم الذي يشرف ارق الشعوب مدنية . وهل من شيء اشرف وافضل من حقوق الضيافة التي يتمتع بها عندهم كل غريب وعابر سبيل . والعدو نفسه اذا ما مس يديه او طلب خيمة الاعرابي صارت حياته في امن ، فلا يجرؤ احد على مسها بأذى . ومن العيب ومنتهى الدناءة ، ومن العار الذي ليس بعده عار ، ان يثأر الاعرابي من خصم نزل ضيفاً عليه . واذا رضي بأكل الخبز والملح مع دخيل ، فلا شيء في الدنيا يستطيع حمله على خيانته . والسلطان نفسه مع كل ما له من قدرة وسطوة ، لا يستطيع ان يخرج من القبيلة ضيفاً لجأ اليها واستجار بها ما لم تفنَ تلك القبيلة عن بكرة ابيها [1] .

(١) — يطلق عرب بعض القرى على ضيوفهم : اسم المستجير ، اي طالب حمايتهم والدخيل ، اي الذي يمس اطناب خيمته او اطناب حماته . فداك حتى انه انضوى الى قبيلتهم فصار واحداً منهم .

فهذا الاعرابي ذو البخس والطمع خارج قبيلته، ما ان يضع قدمه في حيه، حتى يبدو كريماً جواداً؛ ومهما يكن ما يملكه يسيراً فهو مستعد لاقتسامه مع غيره. واذا جلس للأكل، مدّ خوانه عند مدخل خيمته ليدعو عابري الطريق الى الاشتراك معه. وهو صادق مخلص في كرمه، لانه لا يعده فضيلة بل فرضاً واجباً، لاجل ذلك يعتقد ان له على غيره ما لغيره عليه.

فاذا كانت عند نظمهم هذه قد اوجدتها مقتضيات الزمان والاحوال، فليسوا من اجل ذلك غير جديرين بالاعجاب والثناء؛ فهم اذن سعداء من جراء حالة ادت اليها تلك المقتضيات، وهي التي عدّها اعقل المشترعين طريقة الحكم المثلى، واعني بها المساواة في قسمة المال، والعدل في توزيع الرتب. ومع انهم حرموا الكثير من الخيرات التي جادت بها الطبيعة على البلاد الاخرى، لاجل ذلك قلّت عندهم العوامل التي تلقي المرء في هوة الفساد.

وقد يتعذر على بعضهم تأليف حزب يدأب في استقلالهم واقرار امورهم؛ فكل واحد في وسعه ان يكفي نفسه مؤونتها؛ لذلك تراهم يستطيعون اكثر من غيرهم الاحتفاظ بطابعهم الخاص وصون استقلالهم من كل تعدٍّ. وهكذا يصبح فقر الفرد عندهم مصدر الحرية العامة وكفيلها.

وحريتهم هذه تشمل حتى الامور الدينية. اجل، ان العرب المقيمين على مقربة من البلاد المتحضرة يحتفظون، من باب السياسة، بمظاهر يدل على تمسكهم بالدين. غير ان هذا التظاهر غير متين، وتعبدهم متراخٍ، مما يجعلهم في نظر غيرهم، كأنهم لا دين لهم، ولا شريعة عندهم، حتى انهم هم انفسهم يقولون: ان الدين لم يجعل لنا. ويضيفون: وكيف يتسنى لنا الوضوء، ولا ماء عندنا، وكيف نقوم بتأدية الزكاة، ولا مال لدينا؟ ولماذا نصوم

رمضان ، ونحن نصوم السنة كلها ، ونحج بيت الله الحرام ، ما دام الله موجوداً في كل مكان .

وكل منهم يفكر كما يشاء ، ويعمل كما يشاء . ويسود عندهم روح التسامح التام ، وهو الروح الذي يبدو جلياً من حديث وقع لفوزي ذات يوم مع الشيخ احمد بن بجر زعيم القبيلة الوحدية الذي قال له : لماذا تريد العودة الى فرنسا ما دمت تستحسن عوائدنا ، وتعرف كيف تحمل الرمح ، وتركب الخيل ؛ فامكث عندنا ، نعطك ماء وحساء ، ونزوجك بدوية صبية حسناء ، ونهبك فرساً ، ونتركك في ديرنا على الرحب والسعة . فقال فوزي : ألا تعرف اني ولدت ونشأت في قوم دينهم ليس كدينكم ؛ فماذا يكون رأي البدوي في كافر او جاحد . فقال الشيخ : ألا ترى انت نفسك ان البدو يعيشون بمعزل من الدين وكل منهم يتبع ما يمليه عليه ضميره ووجدانه . ان الاعمال للناس والدين لله .

وقد قال لفوزي شيخ آخر ذات يوم عن غير قصد ، عبارة اعتاد قولها وهي : « صل على النبي » وبدلاً من ان يجيبه فوزي الجواب المعتاد قال : ها انا ذا صاع ابيك . فلحظ الشيخ خطأه ، وتبسم . وكان حاضراً ساعتئذ احد سكان القدس ؛ فتدخل وقال للشيخ : كيف توجه الى كافر كلاماً لا يجوز قوله الا للمؤمن . قال الشيخ : هي زلة لسان ، ولكن النية سليمة . وانت انت الذي تعرف عادات العرب واخلاقهم كيف تجيز لنفسك اهانة غريب اكلنا معه خبزاً وملحاً . ثم التفت الى فوزي وقال : هل الشعوب في بلاد الافرنج المتمدنون هم دينياً خير دينيا اكثر من نحن المسلمين . اجابه : هم اضعاف اضعاف المسلمين في يوم العدو . فقال الشيخ : ان الله غفور رحيم ، فهو يدين كل انسان بحسب اعماله .

ان آداب المبادىء التي يحملها العرب ، ويعملون بها ، قلما تتبعها الشعوب المتحضرة . وقد نجدها عند التركمان والاكراد ، فهي اذاً من خصائص البيئة التي يعيشها الرعاة .

الاكراد

ان قبائل الاكراد منتشرة مكتظة في آسيا الصغرى ، واما وطنهم في الاصل فهو الجبال التي تنحصر فيها فروع السلسلة العديدة . فتلك الجبال تحدق بالشطر الاعلى لنهر الزاب الكبير ، ثم تمتد جنوباً حتى تخوم العراق الفارسي . وفي التقاويم الحديثة تدعى هذه البلاد كردستان ، وهي تعطي بوفرة الحبوب والكتان والسمسم والارز والعدس والحرير ، ويجنى منها ضرب من البلوط اللذيذ الطعم الذي يصنعون منه خبزاً . وقد جاء ذكرها في اقدم التواريخ ، ويروون عنها شتى الاساطير . وقد تحدث عنها اكسنفون والمؤرخ الارمني موسى الخوريني .

والاكراد عصرنا قد حافظوا على الكثير من عادات وطباع اجدادهم . وبيوهر الذي جال في بلادهم في السنة ١٧٦٦ روى انهم يتبعون في حالهم ضرباً من الحكم الاقطاعي . مع انه على اثر الفتن والمنازعات التي نشبت بينهم انتزح كثيرون من اسرهم وعشائرهم وتفرقوا في نواحي ديار بكر وارضروم واريفان وسيواس وحلب ودمشق . ويقدرون عدد خيامهم بمئة واربعين الفاً ، فيها مئة واربعون الف محارب . وهم كالتركمان رعاة رحل ، ولكنهم يختلفون عن التركمان ببعض عاداتهم وطباعهم . انهم يميلون الى الغزو ، ينهب بعضهم سكان حلب وانطاكية حيث يسيطرون

الى احدث الوقعة شرقي [illegible]

[illegible]

[illegible]

وضعه موريس عرزولي

النصيرية

[illegible] اوردها [illegible] نقلاً عن المصادر [illegible]

في السنة ١٢٠٢ للروم (٨٩١ م) [illegible]

[illegible]

[illegible] فاحدث [illegible] من [illegible]

[illegible] اعادتها الى حيث كانت

[illegible] في الغد عندما جاء [illegible]

[illegible]

وللا بلائم بادر في الحال الى اقامة [illegible]

[illegible]

[illegible]

ومسلط على [illegible] ورأيت حزين، وقد قال لي: انت الذي تقرأ؛ انت الرجل الذي ينطق بحق؛ انت الحمل الذي يحمل [illegible] من الغضب؛ انت الدابة التي تحمل اوزارهم؛ انت [illegible] (النفس) ويوحنا بن ذكرويه [illegible] وعظ الناس ان اركعوا في [illegible] صلاتكم ربع ركعات، اي ركعتين قبل شروق الشمس، وركعتين قبل غروبها [illegible] شطر بيت المقدس، ويقول [illegible]: [illegible] الى [illegible]، و [illegible] بعد الاذان لا [illegible] الثاني والثالث؛ [illegible] في السنة، ولا [illegible] [illegible]، ولا تشربوا [illegible] ولا تأكلوا لحم الحيوانات الضارية، [illegible] ونشر تعاليمه، [illegible] [illegible] وبعد [illegible] [illegible] من الامصار، و[illegible] احد [illegible]

والصليبيون في حروبهم [illegible] عمره [illegible] [illegible] العادي [illegible] الصليبية، ورأوا منهم [illegible] كبير [illegible] وغليوم الصوري الذي ذكر [illegible] [illegible] بينهم وبين حشاشين [illegible] [illegible] الفريقين. فقال ان لفظة حشاشين كانت [illegible] العرب؛ من غير ان يعرف ما هو اصلها؛ فالصليبيون [illegible] في سوريا [illegible] كانت تلك الشيعة موضوع احاديث الناس، فطفقوا يرددونها ثم ابتدعوا [illegible] Assassins [illegible] وقد ترجموا كلمتي «شيخ الجبل» [illegible] احمل [illegible] (2).

والصليبية شيع وفصائل، منها [illegible] والكلبية والصيبية [illegible] الى الاصقاع [illegible] انطاكية، والذين [illegible]

---

(1) من حشّ حشاً اي [illegible].

(2) Le vieux de la montagne.

[illegible] عددهم [illegible] حتى بعد حكم يوليوس [illegible] حتى [illegible] العربي [illegible] لم تقوَ الديانة المسيحية على [illegible] العسكرية [illegible] تحدث بسهولة في الارياف كما في المدن حيث تتوفر الوسائل التي تساعد [illegible] الافكار بسرعة جاعلة [illegible] التي احرزته النصرانية عند هؤلاء [illegible] للاسلام [illegible] القديمة والحديثة [illegible] كان باعث على [illegible] لشبه [illegible]

وقد ظهرت الديانة [illegible] ولكن [illegible] [illegible]

[illegible] يؤمنون بالتقمص ؟ وينكر بعضهم خلود [illegible] [illegible] الاخلاق .

وبلادهم مؤلفة من ثلاث [illegible] يدعون [illegible] يودون [illegible] اقل الخدارة واوفر خصباً [illegible]

الموارنة

يقيم في الاماكن الواقعة بين بلاد النصيرية شمالاً وبلاد الدروز جنوباً ، شعب عرف منذ زمن بعيد باسم موارنة ، فأصل [illegible]

[illegible]

ملخص ما فيه من الاخبار المفيدة على [illegible] التالي ، وهو انه في اواخر القرن السادس اذ كانت الحياة [illegible] على [illegible]

[illegible]

[illegible]

وبدلاً من ان يخمد [illegible] تلك النار اضراماً على اثر [illegible] التي كانت تحرك [illegible]

[illegible] ذاع صيته في جميع الانحاء .

[illegible] الى [illegible] من الامراء ورجال الدين . [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] والتقدم للوعظ [illegible] في [illegible] .

ان [illegible] في لبنان

موارنا منهم [illegible] [illegible] . وقد كتب عنهم احد المؤرخين البيزنطيين ما يلي [1] : « في السنة الثامنة لحكم قسطنطين بوغونات (سنة ٦٧٩) اقتحم المردة [illegible] [illegible] حتى [illegible] [illegible] الخليفة معاوية ان يعقد مع الروم هدنة [illegible] اثني سنة ، وقبل غرامة تكاول له [illegible] [illegible] وخمسين راسا من الجياد الاصلية ، ومئة الف وخمسة الاف [illegible] من الذهب » .

[illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] كانت [illegible] اشتد ، وان الشقاق الذي [illegible] [illegible] كان دينياً ومدنياً في آن واحد .

[illegible] [illegible] [illegible] يوحنا مارون وكسرى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] من [illegible] عنيا

[illegible] كان المتمردون المتأذون من استبداد القياصرة وجور عمالهم يلجأون الى لبنان . ولا [illegible] ان يكون ذلك هو السبب الذي [illegible] يوحنا مارون [illegible] [illegible] ، ونظراً الى ما كان لهذا [illegible] من النفوذ [illegible] [illegible] [illegible] وفي » ولعمري انه اشرف والطف من [illegible] [illegible]

ومهما يكن الامر ، فان يوحنا مارون [illegible] [illegible] الخليقين نظاماً ، ووزع

(1) Cedrenus

[illegible] في [illegible] أصحابه [illegible] في وقت [illegible] البلاد المتحدة حتى [illegible] [illegible] في الاسلام ، سهل لهم الفوز والنجاح ، [illegible] في [illegible] الخدمة [illegible] الذي كان يقيم في الكوفة ، فاضطر [illegible] معاهدة [illegible] الوزارة [illegible] اليه في [illegible] في دار [illegible] وتوصل من [illegible] وهكذا [illegible] من [illegible]

وقد حدث [illegible] بالعناء ، اذ ان يوستنياس [illegible] موريس ، فدمر جنوده [illegible] مواصلة القتال [illegible] من خلع في تلك العصور [illegible] في [illegible] لليوم الذي صار موعداً لاحداث مفجعة عامة في القسطنطينية [illegible] الوزارة في [illegible] موريس ، فهجموا عليه وارادوه حتفه ، وابادوا [illegible]

و [illegible] الوزارة [illegible] تارة [illegible] في [illegible] دامت للأمة [illegible] من [illegible]

ولا شك في [illegible] كانوا يريدون حرية الحكام [illegible] او الاتراك [illegible] كان في استقامة هؤلاء [illegible] كانت [illegible] في [illegible] وهي السنة التي [illegible] فيها [illegible] على انه كان

وقد اضطروا بعد مدة قصيرة ان يخضعوا لصلاح الدين الايوبي على اثر انتصاره على الفرنج وابعادهم من البلاد .

وفي السنة ١٩٢٥ [illegible] وهو الاتحاد الذي [illegible] حتى [illegible] في ذلك [illegible] كانوا [illegible] وظل الامان باسطا جناحيه [illegible] عليهم [illegible] في السنة ١٥٨٨ فقهرهم وفرض عليهم الضرائب .

[illegible] استطاعوا من [illegible] الاقامة فيه [illegible] كان مقصوراً على [illegible] الضرائب الى صاحب طرابلس

[illegible] من الدس والعدوان لولا بعض العوامل الطبيعية التي [illegible] كان يحول دون اقدام ذوي الطمع [illegible] اراضيهم حيث [illegible] كل قرية [illegible] كل سرية [illegible] عنها ، واما العامل الثالث فهو [illegible] الى مقاومة اعداء الخلقى [illegible] الاتحاد التام بين جميع [illegible] وهو الاتحاد الذي [illegible] على [illegible] .

وهكذا [illegible] تحت الطبيعي ، ومنع من البلاد الاستبداد [illegible] من البلية الناتجة من الفوضى والشقاق [illegible] قامت مقام التشريع .

والامة طبقتان : السوقة [illegible] الاعيان [illegible]

اسرهم ، [illegible] في [illegible]

[illegible]

يملكه او يستكريه ، والمشايخ [illegible] على هذا النمط ، ولا يجاورون

الا [illegible] ويرى يملكونها ، وحياة [illegible]

[illegible] على [illegible]

واذا كان [illegible] مشغولون ، فهؤلاء [illegible] الحل من المدن [illegible] .

ان حقوق الامتلاك [illegible] على ما هي في اوربا . واما الاعتداءات

والتعديات فانها تحدث [illegible] التي تسيطر عليها الاتراك . واما في

[illegible] والعرب يجد

[illegible]

الدين المسيحي يتزوجون امرأة واحدة ، [illegible] زواجهم بها لا يشعرون بها الا

[illegible] ولا يباشرونها مطلقاً ، وخلافاً لبادي، [illegible] قد حافظوا على

عادة الثأر ، وعملا بعادة [illegible]

الرجال من [illegible] وفلاحين لا يخرجون من بيوتهم الا و[illegible]

[illegible] تزول

[illegible] الى [illegible]

[illegible] على كل [illegible]

[illegible]

[illegible] وقد [illegible] السلاح [illegible]

عددهم الخمسة والثلاثين الفاً . واما عدد جميع السكان [illegible]

[illegible] السكن [illegible]

انهم [illegible] الثغور [illegible] عددهم مئة وخمسة عشر [illegible]
[illegible] الواحد [illegible] مساحة [illegible]
[illegible] ولعمري انها نسبة كبيرة ولا أظن أن [illegible] من لسان مصري ، وما يمكن فلاحته من الاراضي قليل الخصب .

ومع [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] واذا [illegible]
[illegible] الأرواح ثابتة [illegible]
[illegible] الاخرى [illegible]
بالشكاوى ؛ وخبز الذبيحة [illegible] مدور بحجم [illegible]
[illegible] وهو [illegible]
في الكأس مع النبيذ ، ويتناول [illegible]

[illegible]
[illegible] او [illegible] المؤمنين ، او مما يحرقه من [illegible]
[illegible] ولبعض [illegible]
[illegible]
[illegible] عليهم .

[illegible]
في [illegible] وكل قرية [illegible] وهو أمر
غير جائز في الاعياد الاخرى الخاصة [illegible] وللموارنة يفتخرون بذلك ،
ولئلا يفقدوا شيئاً [illegible]
[illegible]
على هذا العمل في بلد آخر [illegible] في [illegible]

ان ابطالا تقيا ليس فيها مطا [illegible] في [illegible]
ولكنهم حافظوا على تواضعهم [illegible] واحد [illegible]
بنفسه قنديلا واحداً . ويقع معظمهم [illegible]
الرهبان واما دخل الواحد [illegible] في السنة ، وهو
[illegible] في بلاد كل شيء .
[illegible] لهذا المنصب درجة
ثقافتهم التي يسهل عليهم طرحها ، اذ [illegible] او الكاهن العادي هنالك
[illegible] ويجب القول ان الرهبان
والكهنة في لبنان [illegible]

[illegible] قانون
[illegible] الكبير ، محافظين عليه تلك الدقة التي تبعد الى الاذهان
[illegible]
[illegible] لا ياكلون
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] على
مقربة من دير الرهبان [illegible]
[illegible]
في ان نشاطهم [illegible] وسيلة [illegible] من عواقب البطالة الوخيمة .
[illegible] على [illegible]

وقد اشتهر دير قزحيا على سبع [illegible] ساعات من طرابلس شرقاً ، ففيه يطردون الارواح النجسة كما كان [illegible] العصور الاولى يفعلون . وقد يبدو لنا انه ما زال باقياً في هذه [illegible] روحاً نجساً ، وقد رأى التجار [illegible] [illegible] تعجبه [illegible] [illegible] [illegible] الخبث منه .

[illegible] خصهم البابا بمعهد في رومة [illegible] مجاناً

وفي لبنان ثلاثة او اربعة [illegible] منتشرين على [illegible] وطرابلس وبيروت يقوم بنفقات معيشتهم الرهبان الكبوشيون الفرنسيون . واما عملهم فهو الوعظ ، وتعليم الصبيان القراءة [illegible] وكتاب الاقتداء [illegible] في مطبوعة [illegible] [illegible] الفوائد التي نجمت عن هذه الاعمال الرسولية ، انتشار [illegible] الكتابة [illegible] في هذه البلاد [illegible] الى [illegible] ولا سيما الدروز جعلوا يعهدون اليهم في الاشغال التي تستدعي القيام بها معرفة الكتابة .(١)

[illegible] كما كان يجري في تلك الايام التي [illegible] في هذه [illegible] اموراً قد تبدلت من اوجه وجوانب كثيرة

الدروز

وقد [illegible] الدروز على [illegible] هرباً من الاضطهاد الذي أنزله بهم
مواطنوهم ، ولكنهم من هذه القبيل مثل [illegible] الذين اعتصموا بهذا [illegible]
ليأمنوا شرّ أعدائهم ، واضطهاد خصومهم .

ولكن الدروز والموارنة يوحدون كلمتهم عند كل خطر [illegible]
[illegible] الصليبيين ، والسلطان [illegible] ، والمماليك ، [illegible] وفي ايام
السلاطين سليم الاول وسليمان الذين كانوا يعدون من [illegible] .
على [illegible] ، [illegible] [illegible]
على [illegible] جزيرة قبرص ، ورودس ، والفرس ، [illegible]
وغيرهم

وقد [illegible] حكام [illegible] ، [illegible]
[illegible] كانوا دوماً ينتصرون عليهم وقد ظلت [illegible]
الى [illegible] ارسل عليهم السلطان مراد الثالث لاجل تأديبهم ، في السنة ١٥٨٨
القائد ابراهيم باشا الذي كان في القاهرة فحمل عليهم ابراهيم ، وقهرهم ،
واخذ منهم غرامة [illegible] قرش ، وفرض عليهم ضريبة سنوية .

وظلت [illegible] في علاقتهم للدولة التي كانت مضطربة متقطعة ، اذ
كانوا [illegible] منقسمين فريقين ، اي فريق قيسي ، وآخر يمني . وقد
تولى [illegible] [illegible] عليهم [illegible] تحت [illegible] دولة ،
واستمر على الامر [illegible] الذي [illegible] اليه ذلك المنصب الخطير ، ما لبث ان
[illegible] صاحب نفوذ عظيم ، بل اخذت سلطته تنمو وتزيد ، حتى ضارعت

سلطة ملوك ... فجاءت النتيجة خلاف ما كان الاتراك يتوخونه ، فهذا الحاكم مطلق السلطة سيطر على جميع قوى منه حتى صار في وسعه ان يقاوم الدولة نفسها .

ان شوكة الدروز بلغت اشدها في اوائل القرن السابع عشر ، بفضل امير كبير لامع هو فخر الدين الثاني الذي ما ان تقلد زمام الحكم ، حتى عمد الى توطيد نفوذه على سيطرة حكام الاتراك ، واحتل بلادهم . وقد سلك ابدا ، هدفه طريقة ذات عمق ثاقب ، وذي هدف ، فعول في اذل الى حد الاظهار على دلائل الخضوع والولاء للحكومة التركية . وكان للحصول الحق في بث الفتنة والثبت في شق الثارة على عمال طاعت ، وبلاد صور وعكا ، فطال الامد بفخر الدين يتفقدهم ويحاليهم حتى ادخلهم ، وأبعد من شرهم البلاد والعباد وهكذا تمكن من الرعية في ان يكون هو الحاكم عليهم .

وكانت ثروات المدينة تبني حضارتها على مجدها ، فرحل الامير وانزوى في اوربا ، ووصل الاخص الى مدينة البندقية التي كانت حكومتها من الد اعداء الاتراك ، ولكي يهدي له الاستيلاء عليها ، احيم بالاحتلالات في سكرها الامارة التي عليها ، فطرده منها ، واحتلها ، وبادر الى اعطائه اتباعه التالي الدليل على صدقه واخلاصه في ... ، مباداته الى الدولة ولا هم آل . وقد عمل على هذا الذي بدا استيلائه على صيدا وصور وما ... سنة ١٦١٣ حتى كان قد بسط سلطانه على البلاد كلها حتى عجلون وصفد .

... دمشق ... قلقا من نشاطه ، وأوجسا شراً من اشتداد عزه ، فكانا تارة يتصديان له ، وتارة ... عليه

عند اوربا الامر في الاستانة ، وتصدهم [illegible] انه كان يظفر بها
بمساعدة جواسيسه وصدقاته [illegible]

غير ان [illegible] قد رآه [illegible] عدم الدروز [illegible] العيش
على [illegible] عليهم [illegible]
[illegible] عليهم [illegible] وعاقبة حصول [illegible]
وهو التأييد الذي كانوا [illegible]
الصداقة بينه وبينهم ، [illegible]
[illegible] الآراء [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible] يتساءلون [illegible]
[illegible] الدروز [illegible]
عليهم ، [illegible]
[illegible] الصليبيين [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
ازدياد عدد المرتدين ، [illegible] وحصل [illegible]
التي [illegible] حتى [illegible]
من [illegible] الكتاب [illegible]
[illegible] على ذلك [illegible] حماية من [illegible]
[illegible] الحكومة [illegible] ، غير ان [illegible]

الى ان [illegible] ذكر اسم الدروز قبل ان يكون هنالك صليبيون . [illegible] ذلك [illegible] [illegible] الادهار [illegible] كانوا [illegible] من الصليبيين حافظوا على [illegible] لغة الدروز هي العربية التي ليس [illegible]

[illegible]

[illegible] تاريخ [illegible] صدرت نسخها من [illegible] في [illegible]

[illegible] كانوا [illegible] [illegible] الامير [illegible] . ثم ان الذبح والحرق [illegible] عليه [illegible] ذليلاً مصراً به

فراد الرابع [illegible] املاكه ، آمراً نائبه على دمشق [illegible] بجميع جيوشه الى بيروت [illegible] [illegible]

[illegible] المدد من [illegible] وصول [illegible]

[illegible] لا يثق [illegible] ويعتمد على [illegible] لم [illegible] من [illegible] على [illegible] ولا [illegible] لدى [illegible] من [illegible] الطريق على [illegible] ومع [illegible] كان [illegible] من [illegible] وجنود الاتراك ، [illegible] لم [illegible] عن [illegible] [illegible] هو [illegible] فيه ، [illegible] في موقفه [illegible]

وانقلبت الامور [illegible] ، [illegible] حالة واي [illegible] [illegible] وهو [illegible] موت [illegible] في [illegible] ، [illegible] من [illegible] وادى [illegible] الى [illegible] [illegible] الذي [illegible] ان [illegible] فخر الدين [illegible] الى [illegible] الى [illegible] في [illegible] وهو [illegible] من [illegible] ، [illegible] مع ان رفقاءه في [illegible] من [illegible] الروس والعذاب ، [illegible] الى الاقرار

[illegible] في الاسر ، [illegible] في الاستانة [illegible] على [illegible] في [illegible] الامر [illegible] ، [illegible] الذين كانوا [illegible] على قتله [illegible] من حين الى حين امر بخنقه (١٦٣١).

[illegible] الامير فخر الدين الى ان [illegible]

[illegible] في القرن الثامن عشر [illegible] الحكم الى [illegible]

[illegible] على [illegible] قوي على [illegible]

و[illegible] الذي [illegible] الحكم من سنة ٧٤ [illegible] هو [illegible]

في اسرته [illegible]

التي [illegible] بنو قومه ، واستطاع [illegible]

[illegible] بالامير [illegible] من المصائب والنكب[illegible]

وكان الامير [illegible] الحكم في [illegible]

سنة ١٧٥٩ ، ليقضي [illegible]

[illegible] على [illegible] الحكم ،

[illegible]

[illegible]

[illegible] لاجل ذلك آل الحكم الى عمه الامير منصور ،

[illegible] في [illegible] الحكم [illegible]

[illegible] الرشد .

فالامير الصغير يوسف لم يكن في [illegible]

[illegible] الامير [illegible]

[illegible] وكان [illegible] صاحب

[illegible] وسلطان [illegible]

الانسحاب الى جبيل حيث كان الامير [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] على [illegible] مقاطعة

كسروان كان في عهدة [illegible]

فاوض صاحب طرابلس في الامر ، وتوصل الى اخذ « الالتزام » برمته .

وكان متاولة وادي بعلبك تعدّوا حدود [illegible] ؛ فصرع الموارنة من جوار هؤلاء الناس ، [illegible] والي دمشق لمحاربتهم ، وغار عليهم في سنة ١٧٦٣ ، وتمكن من [illegible] الاراضي التي كانوا يحتلونها .

وكان الدروز منقسمين فريقين ؛ [illegible] طريق الخاصة [illegible] ثورة المؤامرة التي افضت الى سقوط الامير [illegible]

وكان الشيخ ظاهر العمر [illegible] المقيم في عكا ، [illegible] يقلق الباب العالي بعدوانه . [illegible] فقلد الباب العالي عثمان باشا [illegible] ولايات دمشق وصيدا وطرابلس [illegible] العارة عليه لمحاربتهم . ومنصور الذي [illegible] لا يجرؤ على [illegible] الاتراك [illegible] نزع الى الاساليب المألوفة ؛ فتظاهر [illegible] كان في الخفاء [illegible] عدوهم ، وذلك ما حمل سعداً على [illegible] معتمداً على الاتراك في مناهضة « منصور » . فتوصل الى ازاحته وتنصيب [illegible] يوسف محله (١٧٧٢) .

وفي السنة التالية [illegible] جيش [illegible] بك المصري [illegible] دمشق [illegible] فيوسف الذي دعاه الاتراك الى [illegible] على [illegible] ، والانضواء في الجيش التركي ، لانهم [illegible] حرب [illegible] خارج بلادهم ذلك فضلاً عن انهم كانوا [illegible] على ان تقاعسهم عن مؤازرة الاتراك لم يضرّ بهم ، اذ القتال جرى بسرعة في دمشق ، فكانت عاقبته انكسار الاتراك . وصاحب طرابلس الذي [illegible] الى الرجوع الى [illegible] ، [illegible] الالتجاء الى الامير يوسف ، فنزل ضيفاً عليه .

غير ان الامور ما لبثت ان تبدلت على [illegible] محمد بك قائد الجيش المصري ، كما سيراه القارئ . فالامير يوسف [illegible] بك صاحب مصر

[illegible]ت ، وان الشيخ ظاهر العمر لا يقوى على مواجهة [illegible] وحده ، [illegible] بعدوانه له

وكان [illegible] يعد [illegible] وخمسمئة رجل من عربه للدفاع عنه [illegible] على [illegible] ، [illegible] الى [illegible] على [illegible] خمسة وعشرين [illegible] ، [illegible] في بلاد [illegible] التي كان [illegible] الشيخ ظاهر ، [illegible]

[illegible] حتى [illegible] خمسمئة رجل [illegible] الى [illegible] ، والغيظ والغضب [illegible] ، [illegible] في [illegible] الذي [illegible] ظاهر [illegible] في [illegible] وهم [illegible] ، [illegible] في [illegible] الى [illegible] المناولة [illegible] ضئيل .

[illegible] الذي [illegible] من [illegible] الاسكندرية [illegible] الى [illegible] ، [illegible] على [illegible] ، [illegible] في [illegible] وصيد

وعلى [illegible] على [illegible] في سنة [illegible] على [illegible] الاحتفاظ [illegible] الا [illegible] السيطرة على بيروت [illegible] دمشق [illegible] رجلا [illegible] لدفاع [illegible] على [illegible] الى [illegible]

[illegible] والدور الخطير الذي قام يمدئذ بتمثيله .

[illegible]

[illegible] (1) الذي كان يجب محادثتهم - ويروون انه

[illegible] هرباً من العقاب الذي استحقه

[illegible] الى ضيق ذات يده تابع

[illegible] على بث وضنه الى ممالكه .

[illegible] وحسارة ومكان مولاه

[illegible] و«الكشفة» الذي كان

[illegible] طرار . وكان له

[illegible]

[illegible]

وكاد يصل الى بيروت مهمة الدفاع عنها [illegible]

(1) من Raguse وهي مرفأ على البحر الادرياتيكي

[illegible] الاتراك ، وعدّ الامير يوسف ذلك تحدياً له [illegible] والي دمشق ، ولكن الوالي لم يلتفت اليه [illegible]
[illegible] ، فاسرها كلاهما [illegible]
[illegible] القتال [illegible]

وعندما قاوم الجزار مقاومة عنيدة [illegible]
[illegible] ، واضطره الى [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] ثلث لاخذ ، [illegible] صيدا .
[illegible]

[illegible] وفي سنة ١٧٨١ حاربه الجزار [illegible]
ونصب بدلا منه امير حاصبيا [illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

حكومة الدروز

الدروز [illegible] والاعيان، ولو انهم جميعاً فلاحون . [illegible] راضون في [illegible] يحكم [illegible] بعضهم [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] يقوم [illegible] [illegible] ثم [illegible] [illegible] [illegible] كان [illegible] الامر [illegible] الاهالة التي حدثت في البلاد [illegible] الامر [illegible] بالشعب

والشأن [illegible] جعلوا لهم انتصاراً واتباعاً يعتمدون عليهم في [illegible] الحاكم او الامير . ومنصبه [illegible] الذكور . واذا مات الحاكم [illegible] ورضي الاتراك ، او الحاكم [illegible] من قبل هؤلاء [illegible] ان يولى عليهم حاكم رغم انفهم ، [illegible] لكن الحاكم الذي لا يرضى به الشعب لا يستطيع البقاء في كرسي الحكم [illegible] السلطة التي [illegible]

ان [illegible] على [illegible] والمشايخ من [illegible] بعضهم [illegible] الوسائل شديدة [illegible] طاقته [illegible] يحفظ [illegible] [illegible] ويحكم [illegible] [illegible] ويدفع في [illegible] على [illegible] ومثلاً في مقدرة الامة على المقاومة [illegible] لا [illegible] فقد كان في الأونة الاخيرة منة

ومئتين كيساً فالامير ملحم جعل الاموال [illegible] من خمسمئة كيس فقط . وفي السنة ١٧٨١ اي في ايام الامير يوسف صار [illegible] .

فهذه الضريبة التي يدعونها [illegible] وضعت على التوت والقطن والغلال والكرمة [illegible] على كل شجرة توت ثلاث بارات ، وعن كل ٤٠٠ حصة ارضية [illegible] الاحصاء من جيل الى آخر لئلا يلحق الغبن باحد . وما من احد [illegible] كان او شيخاً [illegible] معفى من هذه الضرائب ومن مصلحة الامير ان يجعل الاموال [illegible] الاكثر [illegible] بالقليل ، لانه يحفظ بالعرف [illegible] في وجه [illegible] شيء [illegible] مراقبة الاعيان الذين يحق لهم معارضته إن اقدم على زيادتها من نفسه .

ومواعيد [illegible] ان اراد اعلان حرب او عقد صلح ؛ فعليه عندئذ ان يجمعهم [illegible] وكل شيخ بل كل فرد ذي مكانة ، له الحق ان يبدي رأيه [illegible] وحكم [illegible] هو شخصي ومطلق [illegible] ان [illegible] الامور [illegible] على حسب تعاقب الحوادث وتكامل الاحوال . [illegible] كل [illegible] صاحب عقل ودراية ، فعل ما شاء ، فهو حينئذ مطلق [illegible] موجود على كرسي الحكم [illegible] ، [illegible] الشرائع الثابتة مدونة [illegible] الحاجة ادت الى نظام مستقر هو متقلقل اصل كل الاضطرابات التي تحدث في جميع البلاد الشرقية .

لا الحاكم ولا الامراء الاخرون [illegible] جنود ؛ فليس عندهم سوى خدمهم وبعض العبيد الزنوج . وكل رجل ، ان شيخاً او فلاحاً يعد نفسه جندياً في اوان الحرب ؛ فيمضي الى [illegible] الذي يعينه الحاكم ، آخذاً معه كيس طحين وبندقية ورصاصاً وبارودا . واذا كانت الحرب اهلية تسلح الخدم والمزارعون والاقرباء والاصدقاء ، وتكتلوا حول سيدهم او عميدهم ؛ فيبدو عندئذ ان تلك

[illegible]

[illegible] والتسويف [illegible]

فعندما اعلن الامير يوسف الحرب [illegible]

[illegible]

يا غيرة الله ! يا غيرة الدين !

[illegible]

[illegible] جبال [illegible] من [illegible]

الخصم ، ويدنون منه ، ويفتكون به [illegible]

[illegible]

وهم على الاخص صنفان [illegible] وهي العادة واصحة

[illegible] ١٧٨ [illegible] الحق ، لا [illegible] تعاليمهم ، ولا

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الاصل [illegible]

[illegible]

وكان عدد حملة السلاح بحسب [illegible]

[illegible] وعشرون الفاً ، ولا يمكن [illegible]

[illegible] في المدن الساحلية .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] علوب من فلسطين ، والى [illegible]

من بيروت

[illegible]

يتمتعون بها ؛ فان كل واحد منهم يعيش ناعم البال، مطمئناً الى ماله وعياله، بخلاف ما هي الحالة عليه في سائر البلاد الشرقية

[illegible] من حيث سعة العيش او ضيقه ، فانها تشبه حياة امثالهم في البلاد [illegible] ، الا انهم [illegible] الفكر ، [illegible] [illegible] ، [illegible] بيوتهم [illegible] افراد اسرهم ، و [illegible] في حزبهم . [illegible] لا اثر لها في الجبل . [illegible] [illegible] الشعب [illegible] [illegible] الى [illegible] رهطهم .

ثم ان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الاقامة فيه [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible]

والدروز [illegible] [illegible] من [illegible] احسن حظاً من [illegible] وبما ان يد المستبدين لا تصل اليهم، [illegible] في [illegible] بالتفوق على [illegible] ، لانهم [illegible] [illegible] الميل الى الاستقلال [illegible] والشرف [illegible] [illegible] من [illegible] واقدام وشجاعة [illegible]

ثم ما [illegible] على [illegible] منهم [illegible] الى سفك الدماء . [illegible] قد اوجدت فيهم حرصاً شديداً على اعمالهم واقوالهم ، ومجاملة في التعامل مما لا تجده عند غيرهم من الشعوب . وقد يبالغون في المجاملة حتى انها في غالب الاحيان لا تعبّر عن حقيقة فكرهم وشعورهم . واما زعماؤهم فانهم يتقربون [illegible] الى [illegible] الى

بادارة زيد وعمرو . ثم ان الدروز متحدة على العصبية جوقاً من عاقلة [illegible]
الوطنية . وهي عادة [illegible] لهم عادة وحشية ، كما في بلاد الشعوب
الوحشية ، تقوم مقام الحكومة العمومية [illegible] لا كيد ولا [illegible]

والدروز فضيلة اخرى [illegible] وهي [illegible] ، فهم [illegible]
ويزورون بلا تصنع ولا [illegible] [illegible]
رأى ثوّابي [illegible] من عاداتهم [illegible] كسره من [illegible]
وعندما كان يقول لهم : [illegible] ، كانوا [illegible]
جميعنا اخوة ، لذلك لا يقدم احد في بلادهم من [illegible]

ويستعملون الخمر [illegible] وقد [illegible]
يوم احد امراء الانكليزية في دمشق ، [illegible] ، [illegible]
ولما علم الباشا بمحل اقامته ، [illegible] الامير [illegible]
فيا انا اليه او ثوابي في تسليمه . [illegible] من شيخ [illegible]
الذي اجاره [illegible] في داره . فغضب [illegible] فقال للامير [illegible]
متى كان الدروز يخونون الضيف [illegible] ؟ قال الامير :
لا [illegible] واحدة من [illegible] في قيد الحياة [illegible] الامير
[illegible] . ثم تلحق [illegible] امرته [illegible] للمفاوضة
فخاف الامير من شؤوب [illegible] في [illegible] ، ولاجل
ذلك قال [illegible] قطعة من شعر [illegible] شعرة [illegible] كل [illegible]
تسلم الامير ، فقطعوا له [illegible] شعرة [illegible]
المشايخ الاعيان ، و[illegible] ، وارتكب [illegible]
[illegible] على [illegible] ومن عادات [illegible]
لان [illegible] على كونه هو السبب [illegible] ما جرى

[illegible] الاسر واصلها وفصلها شأنا كبيراً [illegible]
[illegible] فان كرم المحتد والنسب [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] في ثروة الارث فيا سيء
[illegible]
وكان [illegible]
[illegible]

[illegible] يعذلون القريب
[illegible] وقد حدث ان قرويين لا ماء لهم ولا
[illegible]

[illegible]
[illegible] المعيشة والمراسم والعادات : فالحضارة

والطلاق جائزان عندهم [illegible]

انهم كانوا في حراثة اراضيهم وزراعتها [illegible]

مصطنعة . فهم [illegible]

المدن . فاطار الذي [illegible]

فكل واحد منهم لا يعرف الا وجها [illegible]

[illegible]

او البعيد الاجل

وكثيرا ما [illegible]

عشر [illegible]

ثمانية عشرة من عمرهم يتعهدون [illegible]

[illegible]

يتقنون قراءة التوراة كما يفعل النصارى ، ولا قراءة القرآن كما يفعل المسلمون .

انهم يجهلون العلوم الحديثة والقديمة ، ولكن عقولهم مغمورة على الافكار الفاسدة المنتشرة [illegible] ولا ريب ان جهلاً كهذا خير من اصرار على ناقص . وهذا الاعتقاد الذي حدث من هذا الجهل هو السائد في عقولهم ، مما جعلهم لا يشعرون كثيراً بالفرق الذي بين [illegible] او بالتفاوت الذي بين [illegible] وسلوكهم .

الحق انا لا نرى عندهم ذلك البون الشاسع الذي نجده بين طبقة واخرى عند غيرهم من الشعوب ، وهو البون الذي يبدو [illegible] ، ولا يوجع شأن الكبراء فالمشايخ [illegible] التي لا تمت الى الاباحة ، ولا هي [illegible] لا ينفر من ان يرى احقر فلاح ، والجلوس معه الى خوان واحد .

والنصارى [illegible] هذه هي [illegible] شعوب الصور النادرة في [illegible] التي احدثت الامم [illegible] من [illegible] حيث [illegible] في اول مرحلة من التحول الاجتماعي .

المتاولة

يقيم المتاولة في الوادي العميق الذي يفصل لبنان عن جبال ولاية دمشق ، وهم شعب صغير مستقل بنفسه ، يختلف عن شعوب سورية الاخرى باعتقاداته وعاداته ، ولم يكن لهم في الماضي سوى مدينة بعلبك وبعض القرى والاراضي الواقعة في الوادي [illegible] والحكم عندهم يقوم به بعض المشايخ ، ومن [illegible] من بيت حرفوش ، وقد تكاثروا حتى وصلوا في القرن الثامن عشر الى اعالي البقاع ، ثم تقدموا في لبنان ، واستولوا على اراض تابعة [illegible] ، ووصلوا حتى الشوف ، [illegible] الامير [illegible] ان يحمل عليهم ويردهم عن مقاصدهم [illegible] حتى [illegible] ان يقصدوا الى جوار صور ، فاستاء صاحبا دمشق وصيدا من [illegible] التي احتلوها [illegible] ، ومن تقاعسهم عن اداء اموال الدولة المستحقة عليهم ، وعند ذلك [illegible] اشتد الغضب بهم ، ولو ان ذلك لم يكن بالامر الهين ، فانتهز الشيخ ظاهر العمر الفرصة ، وتوسط بينهم وبين الواليين ، متكفلاً بدفع الاموال المستوجبة عليهم ، وواعداً [illegible] وثرواتهم وبذلك تمكن من استمالتهم اليه ، فكان هو الرابح ، اذ كان في وسع هذا الشعب [illegible] ان يمده بعشرة آلاف فارس كاملي السلاح .

وبعد ذلك بوقت وجيز استولوا على صور ، وجعلوها ميناءهم . وفي السنة ١٧٧١ آزروا الشيخ ظاهر وعليا بك المصري اذ كانا يحاربان الاتراك ، مع ان الامير يوسف اجتاح [illegible] بلادهم ، وكان الامير على مقربة من قلعة [illegible] حين [illegible] وهم قادمون من دمشق [illegible] لحق بهم من الاذى ، فهب خمسمئة رجل منهم وهجموا كالليوث على رجاله عازمين عزماً اكيداً على الموت في سبيل اخذ ثأرهم .

[illegible] حتى انهزم الهجوم شر هزيمة .

[illegible]

المتصلين به . غير ان تفرق كلمة زعماء الدروز احبط الجهود ، وتمكن الباشا في نهاية الامر من السيطرة على الوادي كله وعلى مدينة بعلبك ذاتها .

الشيخ ظاهر العمر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] على [illegible] الأرق [illegible]

[illegible] شديد [illegible]

[illegible] في موضعة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فتم طريق له [illegible]

[illegible] بالثلاثة مرفأ يستطيع ان يوجد متدرأ يتوافد

[illegible] طبية ، فهكذا الوالقة على مقربة منه ،

[illegible] مع التجار العرب [illegible]

[illegible]

التصاقها والاستيلاء عليه

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وتنشر الوباء .

وكان [illegible]

عقد النية على الا [illegible] في حاجة [illegible]

[illegible]

[illegible] أو تلك المدينة [illegible]

[illegible] تهديد ؛ ثم زحف [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] شديد الخطر ؛ لكنه اتخذ الحيطة [illegible]

الى ابلاغ صاحب صيدا الامر برسالة قال [illegible]

[illegible]

[illegible] وليا الامر ما عرض، [illegible] لكن [illegible]

[illegible] الخداع لم تترك [illegible] ؛ [illegible]

[illegible] ان محاربة [illegible]

[illegible]

في [illegible] ، والاسرا [illegible] في الا [illegible]

بالصد وطول الاناة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] اربك الدولة [illegible] عكا التي [illegible] على تحصينها [illegible] في سنة [illegible] على مصر ، فحصلها [illegible] ثم ركب [illegible]

[illegible] المدافع العادية [illegible] المدافع [illegible] الثالثة المصرية على [illegible]

[illegible]

[illegible] عليه [illegible] تهديدا [illegible] والهدايا الى ان توصل [illegible]

[illegible] على [illegible] كانوا في موطنهم يعانون الظلم ويسامون [illegible] في [illegible] والعدد

[illegible]

[illegible] الآثار [illegible]

[illegible] البلاد [illegible] وتقتضيه [illegible] بعده حكم الدائم علوا او السداد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ذاتهم . ومع ذلك ظلت [illegible]

[illegible] الاعتداء [illegible]

[illegible] الطعام [illegible]

الى عمق الصحراء [illegible]

[illegible]

هذا الاعتداء كان اهانة [illegible] من كفرانه [illegible]

[illegible] ما زالوا يشعرون به

[illegible] كانوا البدو [illegible]

[illegible]

[illegible]

اليه [illegible] المعروف [illegible]

[illegible] هذا [illegible]

الشواطئ السورية . فكان [illegible]

ناشرين راية [illegible] رايتهم [illegible]

في مستودعاتها الى حين الحاجة [illegible]

للجميع ان الحرب ستنتهي بينهما لا محالة .

[illegible]

[illegible] على [illegible] ان [illegible]

[illegible] اثنين من

أبنائه ، لا خوف [illegible]

[illegible]

[illegible] اكيداً على القضاء على الشيخ [illegible]

الى الشيخ رسالة [illegible]

الى ابنيه يطلب منهما اعداد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible] الى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وعند انشقاق [illegible] [illegible] الى معسكر العدو [illegible]

[illegible] في معسكرهم بلا طعام ولا [illegible] وانقضوا عليهم ، واخذوا يعملون [illegible] الى الفرار ، حتى [illegible] حتى [illegible] [illegible] ثلاث [illegible] [illegible] تتوالى ، وكان [illegible]

[illegible] دولة [illegible] [illegible] الحياة الا بعد ما اخذ منه اربعة

[illegible] الاول سنة ١٧٧١ تلك الملحمة التي [illegible]
[illegible] الى القى الرعب في صيدا التي هجم
[illegible] فلم يستطع عن الدفاع عنها [illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] يتمكنوا من ردهم والاستيلاء
[illegible] المشهور شجاعته

[illegible] الذي اعتراه الخوف الشديد [illegible] ولود رهابه
[illegible] شروط حسنة وحمله على قبول ما عرضه
[illegible]

[illegible]

[illegible] الذي [illegible]
لمواصلة القتال بنشاط جديد

تلك كانت الحالة في سورية عندما [illegible] في مصر [illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ووصلوا الى مكان واقع شرقي

[illegible]

[illegible] وقد اتبع فيها اسلوب حرب لم

[illegible]

[illegible] الحصار والخنادق التي كانوا

[illegible]

الأتراك في السهل [illegible]

[illegible]

[illegible] في تلك الأنحاء.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الميدان مقفرة [illegible]

[illegible] في الوسط [illegible]

الصنديد الذي كان [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ثم تركوا مواقعهم ولاذوا بالفرار

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] تزداد على التوالي صعوبة [illegible]

على ان مراكب الروسية [illegible] الى بيروت وضربتها بالقنابل [illegible]
بجاروها الى البر واضرموا النار في [illegible]

[illegible] طاهر ما ان عاد الى عكا [illegible]

[illegible] صف المدافع لم يكن لدى [illegible]

[illegible] لان المدافع منها [illegible]
[illegible] في [illegible] ومروم الاوتاد ،

[illegible] الى الحكم على تلك المدينة حتى جعل [illegible] رتب . واول عمل اتاه كان استيلاءه على [illegible] لا مولى له الا السلطان ، [illegible] الى صاحب دمشق ، ولكن [illegible] صاحب [illegible]

[illegible] وحاصر [illegible]

[illegible]

[illegible] كل [illegible] من المدينة ، وينتقل الى الشيخ [illegible]

[illegible] لم يجد شيئاً ط الباب العالي الذي كان [illegible]

[illegible]

[illegible] الى الدفاع عنهم [illegible] حتى علموا ان علياً ابن الشيخ [illegible] وحبذا كان [illegible] فلا تهاونوا .

[illegible] الجيش الكبير يرتعش خوفاً ، لاجل ذلك ما لبثت ارصاله ان تقطعت ، و[illegible] ان تشتت ، تاركين وراءهم [illegible] باردة لسكان زحلة .

وكان [illegible] التركي [illegible] يوماً فيوماً [illegible] من حياته [illegible] مديد كانت القلاقل والا[illegible] ايضاً كانوا قد طمعوا في [illegible] الذي [illegible] يؤملون الحصول عليه [illegible] الدائم الى التمرد) جرت امور قوت [illegible] على حق [illegible]

[illegible]

من جراء كبر سنه ، لم يعالج الامر بعطفة ، بل [illegible]

[illegible] فبدأت تظهر عواقب خطاه في السنة ١٧٧٤ .

[illegible] في شرحه ، رأى ابرهيم ان الخاوف [illegible]

[illegible]

[illegible] ان [illegible]

[illegible] وراى انه ان يحضروا ذلك [illegible]

[illegible] احد منهم [illegible] ابيهم [illegible]

[illegible] الخليل ، [illegible]

[illegible] وهكذا انقضت تلك [illegible]

[illegible]

[illegible] ١٢٢٥ [illegible]

[illegible]

تسلمت وكانت [illegible]

[illegible]

[illegible] وابرهيم يوجه [illegible]

[illegible] لانه [illegible] المال على الجميع ، حتى

[illegible] على الاسلام [illegible]

[illegible]

[illegible] وآل اليه الحالة [illegible] وانقلبت الحالة [illegible]

[illegible] لكن العاصمة [illegible]

[illegible]

[illegible] مع انه كان [illegible]

[illegible]

[illegible] الاسطول التركي [illegible] مالك في ما يجب [illegible] المحرم على الشيخ [illegible] لدى الاتراك [illegible] المدينة [illegible] ولا على [illegible]

ايس لي [illegible] الدول الى [illegible] وللمارقة ؟ فلا يبقى امامهم والحالة هذه سوى الرحيل

فعترض دنكري وقال [illegible] ان [illegible] من شأنها ان تعرض لهلاك الناس ابرياء ؟ [illegible] خطر [illegible] المال . وانا اعتقد ان الفي كيس تحول [illegible] من عدو الى صديق

[illegible]

قول ابرهيم .

[illegible] يعرفون ان [illegible]

[illegible] الله ؟

فاطعه ابرهيم قائلاً : [illegible]

فاجابه دنكرلي [illegible] من العرب [illegible]

[illegible]

الواقعة حول مرة . وتركت مدينة يافا [illegible]

[illegible] وعوناً كاحبته مما تسبه اليه

[illegible]

بأن لا يطلقوا النار على الاترك

غير ان الشيخ الذي وطّن النفس [illegible]

للقتال ، وفي الغد عندما [illegible]

بالقنابل ، ردّ الشيخ عليهم باطلاق [illegible]

منه ، واما المدافع الاخرى على القرن [illegible]

ولم يحركوا ساكناً .

فلما رأى انه خُذِل ، [illegible]

[illegible] جهة الشمال ، وقصده [illegible]

[illegible] اليه اصابته في [illegible] ، ووقع على [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ورباطة جأش . واما في [illegible]

[illegible] باسرها [illegible]

الدسائس والخدائع . وقبل [illegible]

والمداهنة اللتين كان ابرهم [illegible]

استتباب الامن في بلاده [illegible]

العبث به .

وكان متساهلا متسامحاً في [illegible]

ظلّ محافظاً على طباعهم وآرائهم و[illegible]

ميسور الحال ، وملابسه

اما الحلي فانه لم يكترث لها قط

فقد ادى ثمانية آلاف قرش

علي بك المصري

[illegible]

[illegible]

[illegible] يوسف واسحاق) واهلياه اى [illegible]

[illegible]

الطمع توصلت [illegible]

ولما بلغ السنة [illegible]

[illegible] الا رقيق

والنساء . لاجل ذلك كما [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

مصاف المكونات الاربعة والعشرين

[illegible]

وموت مولاه الذي حدث في سنة [illegible]

في المؤامرات التي كانت تدبر [illegible]

الكاخية [illegible]

[illegible]

[illegible] حينئذ شيخ البلد [illegible]

[illegible]

[illegible] باهدائه اليها . ثم حول طريقه الى [illegible]

[illegible] الى [illegible]

[illegible] مصرة في [illegible]

[illegible]

[illegible] وكان بالي الحضور بدولة الاتراك [illegible]

[illegible] الباشا الذي

[illegible]

[illegible]

[illegible] شدا على حقوقه ، واخطا من قدره [illegible]

[illegible] كانوا يعمدون الى [illegible]

[illegible]

[illegible] الى ارفع درجة [illegible]

[illegible]

[illegible] الاسبلا
عليها بلا قتال ، فاغنى منها السلب الذهب

[illegible] ودعا لمضائه الهندة ، فهذا [illegible] كانت الغاية منه استقدال

[illegible] الذي حرم [illegible]

العاصمة ، اذ المماليك والمصريون هجموا معاً هجمة صادقة على الاتراك ، الذين ما لبثوا ان لاذوا بالفرار ، منهزمين شر انهزام . وكان عثمان باشا اول المدبرين .

فالطليعتان بعد فوزهما ذاك استوليا بسهولة على دمشق التي لم يكن فيها حامية تدافع عنها . وامن العامة [illegible] ، ولم [illegible] على اسوارها لا مدافع ولا مدفعيون ، بل [illegible] على [illegible] المياه . وقد وقف على الاسوار بعض حملة البنادق [illegible] ، ويحكى انهم كانوا يتهددون [illegible] امروا على اخلاء القلعة والاستسلام .

غير انه حدث [illegible] محمد بك [illegible] الى رجاله في الرحيل اذ كانوا يتأهبون [illegible] حول القلعة [illegible] الشيخ وناصيف [illegible] حاولا [illegible] عن عزمه على هذا المنوال . غير انه لم يجبهما على سؤالهما ، بل [illegible] هو ورجاله [illegible] كانهم منهزمون من وجه عدو [illegible] فكان يرى على الطريق المؤدية الى مصر [illegible] واقفة وامتعة مطروحة . وقد عزوا هذا الامر المدهش الى [illegible] ان علي بك مات فجأة في القاهرة ، [illegible] اثر مفاوضة سرية جرت ليلاً في خيمة محمد بك [illegible] .

ويحرو الخبر ان عثمان باشا [illegible] تحمد [illegible] لذلك [illegible] في [illegible] لمصري ، وحمله على [illegible] عن اصدقائه والابتعاد عن دمشق . فقد القى الرجل في ذهن محمد بك [illegible] من [illegible] الدور الذي يقوم به في [illegible]

دمشق ابن مشرفه . وانه يخطئ ان ظن ان السلطان يترك علي بك يفعل ما شاء ، من غير ان ينزل به العقاب الذي يستحقه . ثم قال له ان التعدي على مدينة مقدسة كدمشق جريمة لا تغتفر ، وان من الصعب ان يحصل رضى علي بك على رضى السلطان ، ونصح [illegible] بمرضاتك دواماً للاخطار [illegible] بك في سبيل مقاصده ومطامعه [illegible] القطن .

فهذه الحوادث كان لها مفعول بعيد [illegible] في محمد بك ورفقائه ، فمن [illegible] شاوروا واقسموا [illegible] واستحسنوا ان يعودوا في الحال الى القاهرة [illegible] دمشق ، وقد [illegible] اسرعة الى مصر ، حتى [illegible] قدومهم [illegible] في اول [illegible] القاهرة [illegible] ساعات فقط

فهذه [illegible] في [illegible] ، وود لو كان يعاقب القائد ، [illegible] بالامر [illegible] نظراً الى [illegible] من [illegible] ، لاجل ذلك اضطر علي بك ان يكتم ما كان يجيش في صدره من الحقد والغضب ، وانتظر بعد الفرص .

بيد ان حوادثه [illegible] كثيرة [illegible] لم [illegible] في [illegible] ، [illegible] في حقيقة الشيخ ظاهر ، ووعد [illegible] حصيناً لا [illegible] الذي [illegible] حتى ثلث السنة ، بما يقضيه ظهر [illegible] ، [illegible] دمياط ، على عدة مراكب شحنها ارزاً للشيخ ظاهر .

وعقب ذلك امر آخر كان شديد [illegible] ، وهو فرار محمد بك . وكان حادث دمشق لا يبرح من باله ؛ لكنه [illegible] التي كان يكتمها محمد بك تزدد في مخيلته ، الى ان [illegible] قلبه [illegible] عن [illegible] قصد التاجر [illegible] الذي مر بنا ذكره [illegible] فقال [illegible] علي بك ذات يوم . هل ملوك [illegible]

فهم ليسوا اغبياء كما ظن محمد . اجابه الشاعر : كلا فانهم يحذرون من ذلك ، لان الاشجار الكبار يتمنون ان يخلعوا الثمار قبل الاوان (1) .

فهذا الجواب حز نفسه علي بك كالسهم ، ومنذ تلك الساعة اخذ ينظر الى محمد بك نظرته الى خصم شديد الخطر ، فعزم على هلاكه . واصطنع ... له ذلك اوعز الى جميع حراس ابواب المدينة الا يدعوا اي مملوك كان يخرج من المدينة بعد المساء . ثم امر محمد بك ان يسافر الى صعيد مصر وكان يتوقع ان يلقي احراس القبض عليه ، فيستطيع حينئذ ان يفعل به ما يشاء .

بيد ان الامور جرت بخلاف ما كان يرجوه ؛ فكان من حسن حظ محمد بك ان تركه احراس يرحل مع من كان معه من رجاله ، لظنهم انه لا يقدم على مغادرة العاصمة الا بأوامر خاصة . ومن ثم اخذت الحوادث تتفاقم يوماً عن يوم .

ولما علم علي بك بما جرى بعث ... في اثره ، ولكن محمد بك ... الحيطة نفسه ، فلم يجرؤ هؤلاء على الدنو منه ؛ فانطلق الى الصعيد وهو يشتعل غيظاً ونار الانتقام تستعر في احشائه .

وفي الصعيد جرى حادث كاد يودي بمحمد بك نفسه ، وهو ان ايوب بك نائب علي بك تظاهر كأنه منشق عن علي بك ، واقسم لمحمد بك ان يساعده في كل ما يريد عمله ؛ ولكن ظهرت ... من ايوب ... فيه ... بضرب عنق محمد في القريب العاجل ؛ فقبض محمد بك على ايوب بك وقطع يديه ولسانه وارسله الى القاهرة .

وكان المماليك يحقدون على بك على ما اصاب من حسن حظ وثروة .

---

(1) ان الشاعر البلدي ... هو الذي ... بعد ... حدث

المصريين اكثرهم ، وانحازوا الى خصمه ، وكذا فعل ايضاً العرب اتباع ظاهر ، رغبتهم اخذ ثأرهم منه والحصول على ما يسمى عندهم من المغانم . ففي مدة اربعين يوماً صار لمحمد بك من الغنى والقوة ما جعله يبادر بتقدمه زاحفاً الى القاهرة ، فلما اقترب منها ضرب خيامه على مسافة اربعة فراسخ منها .

فاضطرب علي بك اضطراباً شديداً وغدا حيران لا يدري ما يجب ان يفعل ، ثم عمد الى خطة لم تكن المثلى ، وهي انه سيّر فرقة من عسكره مع محمد بك مقدمها اسماعيل بك الذي كان يعتمد عليه الا بقية ، وبقي هو وانصاره عند ابواب المدينة .

فاسماعيل بك الذي كان له ضلع في حادثة دمشق ، ما كاد يبدو من العدو حتى انضم اليه . وربما ما ذكر فقد دب الاضطراب في صفوفهم ، فعادوا الى القاهرة كأنهم منهزمون ، ولما كانوا يحاولون الالتحاق به في الجيش ، جد العرب والمماليك في اثرهم واكرهوهم على الفرار .

ولما رأى علي بك ذلك ، فقد رابطة جأشه ، ولم يعد يفكر الا في انقاذ حياته وصيانة ثروته ، فرجع في صباح الغد الى المدينة . واخذ من قصره ما كان يريد حمله ، ثم ولى هارباً مصطحباً معه نحو مئة مملوك عزموا على الوقوف الى جانبه في الضراء كما في السراء . وكان مرماه التوجه الى الشيخ ظاهر العمر في عكا . فبينا كان يمر بين سكان نابلس رآه قطعوا عليه الطريق ، فاضطر الشيخ ان يأتي ويزيل بنفسه العوائق التي اعترضت سبيله ، فاستقبله الشيخ العربي بمظاهر الاخلاص الذي طبع عليه سائر قومه ، ثم سار به الى عكا . وكانت مدينة صيدا محاصرة آنئذ ، وجيش عثمان باشا ورجال الامير يوسف يضيقون عليها الخناق . ولما استنجد الشيخ بادر الى اعانته ، وقد رافقه علي بك ومماليكه . وكان عدد الجيش نحو سبعة آلاف فارس

وما ان علم الاتراك بمقدمهم حتى فكوا الحصار ، وذهبوا الى مكان قريب من النهر ، يبعد مسافة [illegible] من المدينة . وهناك دارت في شهر يونيو سنة ١٧٧٢ رحى معركة كثيرة الضحايا ، وتلقى الاتراك من جرائها هزيمة ثانية اخرى ، فدحر الجيش التركي الذي كان اكثر عددا من الجيش الحليف ، وانكسر شر كسرة ، والدروز الذين كانوا يعضدونه ، لاذوا بالفرار . فبقيت صيدا خاضعة للشيخ ظاهر ، وهي دسكرلي الذي [illegible] عليه

ومن ثم بادر الشيخ وعلي بك الى الاقتصاص من سكان يافا الذين اوقدوا [illegible] الخلاف والفتنة التي قامت هنالك بين علي بك قبل فراره من القاهرة فالمدينة التي كان يسيطر عليها الشيخ نابلسي ، اوصدت ابوابها في وجههما ، [illegible] الضرورة الى ضرب الحصار عليها . وقد دام الحصار ثمانية اشهر ، مع ان سورها لم يكن سوى جدار عادي . فاضطرت المدينة الى الاستسلام ، وكان ذلك في شهر شباط سنة ١٧٧٣

واخذ علي بك [illegible] يفكر في الرجوع الى القاهرة ، واعد العدة لاستعادة سلطانه على مصر ، فاخذ الشيخ [illegible] كان في صحبة [illegible] ومن الذين [illegible] من اثر مفارقته [illegible] في شأن [illegible] ان ذلك لم يكن سهلا [illegible] كان [illegible] من [illegible] شوقه الى الرجوع الى مصر

وعلى ما [illegible] من [illegible] بتحريض كاتبه [illegible] القبطي [illegible] يعتقد ان ساعة [illegible] قد ازفت [illegible] ويقرب هلاك محمد بك ، لانه كان [illegible] الاتراك [illegible] الى الدجالين ، ويثق بكلامهم ويصدق [illegible]

وفي اوائل شهر نيسان جاءته رسائل من [illegible] في القاهرة ،

قائلاً له فيه : قد مضت [illegible] عندك لعنق ؛ فمن ينتظر بمفرغ الصبر [illegible]

فعلى وجوب [illegible] الوعد الموعود به ، ومن غير ان يذعن لنصائح الشيخ الذي كان يحثه على التأني والصبر ، بادر متحركاً ، مصطحباً معه الفاً وخمسمئة جندي [illegible] الى [illegible] ولم يخطر قط بباله ان رسائل [illegible] مأمورة [illegible] محمد بك من [illegible] قسراً لكي يخدعه بها ، ويوقعه في الفخ الذي نصبه له .

فالتقى علي بك في الصالحية بعدما ذهب من ناحية مصر ، أي حيثاً من جهة المماليك ، [illegible] بعودهم [illegible] الشاب الذي ولع بامرأة [illegible] ، وكان محمد بك قد وعد [illegible] ان يأتيه برأس زوجها .

و [illegible] علي بك [illegible] المدد [illegible] اقتراب الخصم ، حتى حل فيه [illegible] واضطراب في صفوفه . وقد [illegible] له في تلك المعمعة ان يقبض على علي بك ، بعد [illegible] اسيراً الى محمد بك الذي كان على مسافة [illegible]

[illegible] محمد بك [illegible] عظائم الاحترام التي يشق اصطناعها [illegible] والتوجع الذي يسهل على الخائن [illegible] واصدر الاوامر [illegible] الاعتناء [illegible] ، قائلاً له : انا عبدك الذليل الذي يقبل موطئ قدميك .

وفي اليوم الثالث ختم المشهد بموت علي بك موتاً نسبه بعضهم الى تأثير جرح [illegible] ، وعزاه البعض الآخر الى مفعول السم الذي دُسّ له . وهكذا انتهت حياة رجل كانت [illegible] تطمح اوربة اليه ، واوجد في كثيرين أمل حدوث انقلاب عظيم في الشرق .

ولا ريب انه كان رجلاً فذاً ؛ وانما من الخطأ عده من رجال العظام والذين عرفوه حق المعرفة ، يشهدون انه كان متحلياً بصفات سامية حال دون استفادته منها افتقاره الى العلم والثقافة .

ونضرب صفحاً عن بيئته بعد [illegible] الذي حمله على الاقدام على اعمال خطيرة كثيرة المخاطر دون التفكير مليّاً في عواقبها والصرف النظر عن حياته وحدته المتواتر في بيته ، وعنايته حتى الحصول اليه ، [illegible] ، [illegible] ، فان امة يشلها الفوضى تتضاءل حرصها على اخلاق افرادها . و[illegible] العصر في [illegible] من الاعمال ، [illegible] الطرق التي تؤدي الى الديون السوداء وعلو الشأن [illegible] لاهلاك نفسه .

وهذه الامور التي [illegible] ملازمة له [illegible] :

اولاً — [illegible] ميله الى [illegible] ميلاً جامحاً ، [illegible] الى [illegible] قواه ، وخراب بلاده .

ثانياً — جنوحه الى [illegible] الارض ، و[illegible] على [illegible] في [illegible] الحكم ؛ فتهدمت [illegible] هيبته في نفوس [illegible] ، ونشط فيهم الميل الى التمرد عليه

ثالثاً — [illegible] الاموال [illegible] ، [illegible] على الاعداد [illegible] وكان [illegible] من المرتزقة لئلا ينفق [illegible] خيانة ، وهم الذين في كل [illegible] حول ارباب الثروات ، طامعين [illegible] عن طريق الغش والنفاق .

ومع ذلك لا يسعنا الا الاعتراف بما كان [illegible] من الطاقة [illegible] السيطرة على مصر . واذا كانت عيوب ثقافة ناقصة حالت دون ادراكه

ما هو المصر الحقيقي ، فقد بقي دوماً الى امرائه [illegible] وشوق كهذا [illegible] يشعر به [illegible] اسموس الوصية ، ولم يكن يعوه الا ان يقرب اليه اصحاب المدى [illegible] العثمانية و التجار الاوربيون الذين شهدوا ارتقاءه [illegible] يدهشون [illegible] الشعب عليه [illegible] عن الشعب تلون الطباع ، [illegible] الحيل [illegible] وقد [illegible] الشعوب تصدر حكمها [illegible] ، وتحبهم او تكرههم ، [illegible] او تذمهم ، [illegible] يحكمون قد [illegible] لها او يشروا وسائل معيشة [illegible] المصريون [illegible] الحكم الذي تصدره عليهم على هذا [illegible] عادل [illegible] تجارة البلاد وصناعتها [illegible] التي [illegible] المعيشة يجب ان تقدم على كل [illegible] جمهور الشعب الى الخبز ، فمن حقه على الاقل ان [illegible] . وهل يشعر الشعب المصري [illegible] عليه [illegible] ولا ريب فيه ان هذه الحملات والغزوات كانت [illegible] في مصر [illegible] الى [illegible] الضرائب ، واثقلت كاهل الشعب [illegible] عشرة ملايين وارمهاية الف [illegible] من البلاد لتغذية الجيش المحارب وجشع بعض [illegible] محتكر [illegible] الامر ، مجاعة هائلة اضنت البلاد في السنتين ١٧٧١ — ١٧٧٢ .

[illegible] المنتصرون [illegible] حق بسخطهم على حرب [illegible] ولم [illegible] عليهم [illegible] في ترويج [illegible] ، وهي تجارة لا ينتفع بها الا عرفها ؟

وهل أخطأوا بقدحهم في إسرافه إذ رووا يؤدي ثماني ألف قرش ثمن مضغة حشيش ، ولو عد المتملقون المنافقون كرماً مثل هذا التبذير الذي كان الشعب المصري وحده يتحمل وقره .

وما هو فضل علي بك ان عد مالاً يحصده دون مشقة في الحصول عليه ؟ أفمن ليس من العدل ان يتصرف بأموال الامة ليشبع هواه ، او يكافئ من يخدم مصالحهم ، على خدمة خصوصية قدموها بها ، كما فعل مع قيم قصره (١) .

أحق أن ما أتى من عمل من أعماله أوحته اليه مبادئ العدل والانسانية ؟ أم كان الطمع والصلف الباعث على كل ما فعل . فهل يعجب بعد ذلك إذا رأينا الشعب الذي عامله بتعسف وتجبر ، لا يثني عليه ، بل يذمه ويكرهه ؟

(١) عندما رحل علي بك الى المنفى ، وقد مر ثلاث [illegible] صرف حياته على [illegible] من الامرة ، وكان قد مضى مدة اربع وعشرين سنة يبني [illegible] ، [illegible] الذي كان [illegible] [illegible] الملوك [illegible] ، [illegible] خمسة ريالات [illegible] في [illegible] على انه الى [illegible] علي بك [illegible] في قصر [illegible] يده ، غير ان [illegible] المخرج من [illegible] خمسة ريالات ، وقال [illegible] علي بك [illegible] واقسم ان [illegible] لا [illegible] ان [illegible] ، [illegible] لانه عندما رجع [illegible] القاهرة [illegible] ، ومن الرغم من [illegible] الكثيرة فانه لم يرجع [illegible] .

وصف بعض ما جرى من الحوادث بعد موت علي بك

(عن كتاب فولني عن مصر)

عادت احوال المصريين بعد موت علي بك [illegible]

[illegible] سنة ١٧٧٣ [illegible] في مصر [illegible]

[illegible] اليه ، [illegible]

[illegible] في حقوق [illegible] وطاعة [illegible]

وقد بعث الى الاستانة بجميع الاموال التي [illegible]

[illegible] بعد موت علي بك [illegible]

[illegible] الاذن في محاربة الشيخ [illegible]

المطلوب ، والانعام عليه بلقب « باشا القاهرة »

[illegible]

[illegible] كان الباعث عليها حقده [illegible]

[illegible]

[illegible] التي كا[illegible]

[illegible]

[illegible] شيخ [illegible] هما [illegible] ،

[illegible] في اقدامه على تلك الحروب [illegible]

كان يوحي اليه به حقده وطمعه ، فجهز جيشه بمدافع عديدة ، وجاء بمدفعيين اجانب ، عهد في قيادتهم الى الانكليزي « روبنسن » ، وحمل من السويس مدفعاً كبيراً طوله ست عشرة قدماً كان ملقى هناك منذ زمن طويل .

وزحف الى فلسطين في شهر شباط من سنة ١٧٧٥ ، وبدأ اقترابه من غزة رأى حاميتها مؤلفة من رجال الشيخ ظاهر لا تقوى على المقاومة ، فانسحبت منها ، وبعد استيلائه عليها ، توجه الى يافا ، فهذه المدينة التي كان فيها حامية ، واستعدت لمكافحة القتال ، لم تذعن بالاستسلام ، فضرب الحصار عليها .

ان مدينة يافا مبنية على تل لا يعلو معظمه عن سطح البحر الا قليلاً ، وهي مشيدة على قمة [illegible] الشكل ، [illegible] مخروطية [illegible] قدماً والبيوت [illegible] على منحدرها ، [illegible] من طرف بعيد ، [illegible] دونها قلعة صغيرة تشرف على ما حولها ، ولا [illegible] بها سور [illegible] ، لا يزيد [illegible] عليه نحو ثلاث عشرة او اربع عشرة قدماً ، وثخانته قدمان او ثلاث قدم ، والشرفات التي في اعلاه هي وحدها التي تحميه من [illegible] والمدافع ، وهذا السور الذي لا خندق له ، [illegible] حيث [illegible] والبيوت [illegible] [illegible]

فتلك هي المدينة التي اغار عليها محمد بك ، وكان يدافع عنها نحو خمسة [illegible] ، وكان [illegible] مدافعهم [illegible] قطعها اربع وعشرين [illegible] على قواعد من خشب صنعوها لها بسرعة ، [illegible] الشجاعة والتهديد [illegible] ، واصطفوا [illegible] حفنة واحدة يقومون مقام المقدرة والمهارة .

ولما رأى محمد بعث انه يجب اصطناعهم عنوة ، نصب خيامه دون المدينة

مع ان هذا المطلوب الذي كان يحول دون الحرب اتخذ معسكره بقعة لا تبعد

سوى مسافة قليلة عن مدافع الخندق والقلاع التي احدثت تسد قطعا عليه ، فلفت

نظره الى خطأه ، فنصب معسكره قليلاً ، بشكل الحصن التي ظلت تهطل مياه ،

اجهزته على سادة ثانية ، فحصروا حيث بعيداً ، وهي التي صرفوا كل الاسراف

في تزويقها وفرشها ، ونصبوا حولها خيام ... .

وما المعارضة فانهم اقتدوا لا تسمعهم احتجاجات من اصحاب شمر الله فقال والحروب ؛

وعمل باقي احلافه ما استطاع لاتحاد ، وبعد ثم قاموا حرساً في حول المعسكر

ومن معه ان يقتحموا ... من ... من شأنه ان يصون معسكرهم ؛

واخذوا من ثم يطلقون على المدينة مدافعهم التي بعد هي قسمة تبعد نحو

ستين قدم ، واصلاهم المدافعون عن المدينة ناراً حامية حصدت الكثيرين منهم .

ومن المدهش ان يتوصلوا الى فتح ثغرة واسعة في جدار ... ثلاث

اقدام ، و ... ان يجتازوا ... بعد انهم رأوا سورها وهم على

صهوة جيادهم ؛ فقيل لهم ان ذلك غير مستطاع ، فكانت المرة الاولى التي رغبوا

ان يسيروا ... في الاقدام ؛ ... هم حينئذ منظر غريب بسراويلهم

الفضفاضة ، ... (١) ذي الكمين ... المشرقي ، وطبقاتهم وسيوفهم

الاحدب ، وهم يتعثرون بالاقفاص وما يجر على الارض من الحوائل والعراقيل .

وقد خيل اليهم انهم نالوا الفوز كله اذ حازوا ثمرات الثمرة ؛ لكن

المدافعين من المدينة الذين كانوا يرون الامور على حقيقتها ، لم يتصدوا لهم حتى

وصلوا الى ارض ... التي ما بين المدينة والسور ، فامطروهم حينئذ من سطوح

البيوت ونوافذها وابلاً من الرصاص ان ادهش المهاجمين واكرههم على الانسحاب

(١) كلمة تركية معنى ... من ...

وقد اعادوا الكرة مراراً بايعاز مراد بك مع ان محاولتهم لم تجدهم نفعاً . وكان محمد بك يرى كل ذلك ، فيستشيط غيظاً . وقد دامت تلك الحال ستة وستين يوماً .

واما المحاصرون الذين كان عددهم يربو على ... من اثر غاراتهم على العدو ، فانهم سئموا انتظار المدد الذي كانوا ينتظرونه من عكا ، فابوا مواصلة الدفاع عن المدينة وحدهم .

وكان المسلمون يحنقون على المسيحيين لقضائهم اوقات في الصلاة ، ويستجيبهم الدعاء في الكنائس على القبول او حرمة ... لذلك عزم بعضهم على مفاوضة العدو في شأن تسليم المدينة اليه ، شرط ان يؤمن على نفوسهم واموالهم واملاكهم .

وكان الاتفاق قد تم بين الفريقين عندما دخل المدينة بعض المماليك ، متجاوزين ثغرة السور التي ... له وحدها ، وقد شرعوا في النهب ، فقاومهم السكان ومن اثر ذلك استوقف القتال ؟ فهجم عندئذ الجيش باجمعه من ... فشهدت يافا في ذلك اليوم من الاهوال ما تقشعر له الابدان لان المماليك قتلوا بحد السيف مئات من النساء والاولاد والرجال والشيوخ . ومحمد بك الذي كان متوحشاً بقدر ما كان جباراً ، امر بان يؤتى برؤوس هؤلاء المساكين الذين بلغ عددهم الالاف ، ووضع امامه بشكل هرم

ومنذ النكبة الهائلة التي حدثت في ١٩ ايار سنة ١٧٧٦ ، شرع الذعر في البلاد ، حتى ان الشيخ ظاهر نفسه هرب من عكا ، واقام مقامه ابنه علي الذي ما زالت سورة ... تشهد شجاعته ، مع كل ما شاب سمعته من تردده المتوالي على ابيه . وقد عرف علي ان محمد بك لا يحترم العهد الذي

قطعه به . هي ان المملوك ما ان وصل الى عكا ، حتى طلب منه رأس
ابيه برهاناً على صداقته واخلاصه .

ومما رأى به خدع وغادر لمدينة التي عدت عيبة واردة مصريين . . .
كاد التجار الفرنسيون يسحبون . . . حتى . . . حظر . . . ، وهو ان محمد باشا
الذي طلب ان يرغم الص . . . كلهم لشيخ ظاهر ودفعهم كل ما يملك من
ثروة ، وتوعدهم بالقتل ان لم يأتوه بها في ميعاد ضربه لهم .

بيد ان حسن اشاعة التقدم . . . من الخطر ، لان المملوك اصيب على
حين غرة بمرض حميت . . . سوى . . . هلك وهو في ريعان الشباب .
ويعتقد . . . ان موته كان عقاباً . . . حرمة . . . الذي
الذي على جبل الكرمل ، . . . الذي في هيئة
. . . للمسرح مثلاً . . . هذا الشيء الذي . . .

. . . حتى قام حبشه من . . . الى مصر .
. . . على . . . من دمشق

اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٣	١٦	هل بدك بعيدة	هل بلادك بعيدة
٥	١٩	الحربة الحق	الحرية الحقيقية
١٠	٨	يتألفوا فيها تألفا	يتآلفوا تآلفا
١٢	١	غير أن لفظ هاتين اللفتين	غير أن هاتين اللفظتين
١٣	٧	والشبة	والشمسية
٣٤	١	اقض وعظ	امض معظر
«	١١	والنصيرة لم تصل	والنصرانية لم تصل
٣٥	٣	تساعد انتشار	تساعد على انتشار
٣٨	٢	البلاد المتحدة	البلاد المتمدنة
«	١٦	واردوه حتفه	واوردوه حتفه
«	١٧	وحينئذ	ومنذئذ
٣٩	١٧	هده الامم	هذه الأمة
٤٣	١	على صعيد	على صعيد
«	٧	الشمس اى	الشمس أي
«	١٥	حلّ عاما	حلّ علمها
٤٥	١٢	هو الحكم عليهم	هو الحاكم عليهم
٤٨	١٠	يرعب الا الصلح	يرغب الا في الصلح
٤٩	١	فتتفق . . اى نقل	متفق . . . على نقل
٥٠	١٧	فضلا ن	فضلًا عن

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٥١	٨	رحل متوالي	رجل متوال
٥٣	١٧	مالاً وافياً	مالاً وافراً
٥٧	٣	وهي الطاعة والصحة	هما الطاعة والصحة
٥٨	٦	في حريهم	في ضررهم
〃	١٢	الزرع	الزراع
٦١	١٣	مينسايرون	فيتسامرون
٦٤	١٠	تضائل	تضاءل
〃	١٢	افتحروا	افتخروا
〃	١٣	المختصين به	المتصفين به
٦٧	٥	نحو ثلاثا	نحو ثلاث
〃	١١	التأثير في	التأثير الحسن في
〃	١٥	ما فرض	ما عرض
٦٩	٩	ابدي	ابدى
٧١	٢	الاعتراف له بالسعادة	الاعتراف له بالسيادة
٧٣	١٥	واكثر هؤلاء	وكان اكثر هؤلاء
٧٤	١٧	انهم ذو مال	انهم ذوو مال
٧٦	٧	جواب الملوك	جراب الملوك
٧٧	٢	اتلك الملحمة	تلك الملحمة
〃	١٠	عثمان ووالديه	عثمان باشا ووالديه
〃	١٢	كاخية ابرهيم	كاخيه ابرهيم
〃	١٣	اثار عليه	اشار عليه

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٧٨	٢٠	موقفٌ	موقفا
٧٩	٤	ورقت الدرور	ورقف الدرور
«	١٢	الثاني مئة	الثاني مئة
٨٢	٤	اذهله هذا القدر	اذهله هذا القدر
«	٨	رحلت من	رحلت عن
٨٣	١١	أن يتوسلوا	أن يتسللوا اليه
«	٢١	يُرد	يرد
٨٧	١٤	ساعة القتال	ساحة القتال
٨٩	١٤	افضى بها	افضى بها بعضهم
٩٥	١٦	كما يدعونه	كما يدعونهم
٩٧	١٩	رسائل الافراء	رسائل الامراء
٩٩	٩	عملوك كان يجرح	مملوك يجرح
١٠١	٤	الجيشين الحلفين	الجيشين المليمين
١٠٥	الحاشية – سطر ٣ – خمسة		خيمته
١٠٧	٥	رأى حاميتها	رأت حاميتها
١٠٨	١٠	قلعة	تلعة
«	١٦	مرضين	مريضين
١٠٩	٩	يؤمن على تقوسهم	يؤمّن لهم تقوسهم

هدية «الرسالة المخلصية»
في سنة ١٩٤٩

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الاستاذ حبيب الجوفي

الجزء الثاني

﴿ الحقوق محفوظة ﴾

المطبعة المخلصية
في صيدا ص. ب. ٥

تمهيد

نزفّ الى قرائنا الافاضل الجزء الثاني من كتاب الرحالة فولني عن بلادنا فهو تتمة المقدمة التي قدمتها « الرسالة » في العام العابر . والكلام في هذا الجزء يتناول تقسيم هذه البلاد الى خمس ولايات او ايالات ، هي : حلب ، وطرابلس ، وصيدا او عكا ، ودمشق ، وفلسطين . وقد وصف المؤلف كلًّا منها كما كانت عليه ايام كان يتنقل فيها . واتى وصفها ، على اقتضابه ، مشوِّقاً للقارئ بما يطلعه عليه من الاحوال الماضية التي لم يبقَ اليوم لاكثرها من اثر . ثم عقب على ذلك كله بنظرة شاملة لخص فيها اقسام هذه البلاد وما كان يجبى منها من اموال السلطان ، وما يترتب على جبايته من عنت وارهاق وما الى ذلك . ثم تناول الكلام الصناعة والتجارة والفنون والعلوم وبعض العادات والطباع ...

الا ان حضرة استاذنا السيوفي أعفانا من مطالعة بعض آراء عقد لها المؤلف كلاماً طويلاً دون ان يكون فيها للطالع الا الاستكثار والسآمة . فكان له فضل الاديب الناقد الذي يهمه فائدة المطالعين لا شهرة الابتداع .

وزاد فأورد ، في ملحق قصير ، نبذة من مظالم الجزار ، اقتضبها من مصادر اخرى غير كتاب فولني ، استكمالاً للفائدة مما يخص هذه البلاد مما يستدعي شكرنا الجم .

ه . ه . ر ه

سوريا ولبنان وفلسطين

الجزء الثاني

تقسيمها الى ولايات او ايالات

بعد ما فتح السلطان سليم الاول سورية بانتزاعها من يد المماليك جعلها خمس ولايات [1] وهي : حلب ، وطرابلس ، وصيدا او عكا ، ودمشق ، وفلسطين . وعيّن على كل منها حاكماً مطلق السلطة . وقد طرأ بعدئذ بعض التغيير على هذه الولايات من حيث الحدود، واما الوضع العام فانه ظلّ على حاله .

ولاية حلب

ان جانباً من ولاية حلب تتوالى فيه الاودية والجبال ، والجانب الآخر تكثر فيه السهول ذات التربة الخصبة ؛ فالعشب ينمو فيها بقوة ووفرة على اثر سقوط الامطار . ولكن لا فائدة ترجى من هذا الخصب ، اذ معظم

---

(١) كان الاتراك يدعون Pachalik سلطة الذي كانوا ينصبون عليه حاكماً ، ونسبة « باشا » . وقولي في كلامه عن ولايات سورية قد ضبطه عن ذات اللفظة التركية . واما نحن فقد استعملنا لفظة « ايالة » او « ولاية » بدلاً عن حاكم ، شخصاً معهوداً اليه فيها ؛ من غير ان ننظر الى ما كان عليه الحكم من الصيغ المصطلح عليه في دواوين الدولة العثمانية التي جعلت لمن تنتدبه ... او غير عودهم ... ارقاها درجة « الوزارة » ويليها في الرتبة درجة « المير ميران » ... « فالمدير » . ثم اننا لم نعمل فرقاً بين « الايالة » و « الولاية » ... بمعنى واحد ... مترادفتين .
(راجع « المنجد » للاب لويس معلوف اليسوعي) .

الاراضي تظل بوراً ، ولا ترى بقع مزروعة الا في جوار القرى والمدن ، وهي تعطي القمح والشعير والقطن . ويغرسون في الاراضي الجبلية الزيتون والتين والكرمة . ويزرعون التبغ في المنحدرات القريبة من الساحل . ويجدون شجر الفستق في الاراضي القريبة من مدينة حلب . واما المروج فانهم يتركونها لعشائر التركمان والاكراد الرحل الذين يرعون عليها انعامهم .

والوالي هو نائب السلطان « والملتزم » العام [1] واما في ولاية حلب فانه يعهد في « التزام » الضرائب الى محصل ، ومدة التزامه سنة واحدة ؛ والبدل الذي يؤديه الى الباب العالي مقداره سبعمئة كيس [2] فضلاً عن مبلغ آخر من المال يناهز خمسة وثلاثين الف قرش يدفع به ارباب الامر واصحاب النفوذ في الاستانة ليشملوه بعطفهم ورعايتهم ، وبعد ان يدفع هذين المبلغين يحق له ان يتقاضى :

اولاً — مكوس البضائع الواردة والصادرة .

ثانياً — رسم على رعي القطعان التي يأتي بها الاكراد والتركمان كل سنة من ارمينية ونواحي ديار بكر ليرعوها في سورية .

ثالثاً — خمس ما يستخرج من ملاحة « جبول » . ثم الضريبة المفروضة على الاراضي . وتقدَّر جميعها بستمئة او سبعمئة الف قرش .

والي حلب الذي حُرم مصدر ارباح طائلة كهذه ، يتقاضى راتباً قدره ثمانون الف قرش ، وهو مبلغ لا يوازي نفقاته ، اذ عليه ان يصلح الطرق ، ويرمم القلاع ، ويقوم بنفقات الجنود الذين تحت يده ، ويبعث بالهدايا الفاخرة الى

(١) الالتزام عقد موقت يحصل بموجبه الشخص الذي عقد العقد على الاعشار او غيرها من الضرائب مقابل مبلغ يدفعه للحاكم على ريعها .

(٢) الكيس خمسمئة قرش ذهب ؛ والواحدة منه قرش تركي صاغ ؛ والقرش التركي الاعتيادي نصفه .

الوزراء ليحظى برضاهم ويحتفظ بمنصبه . غير ان الباب العالي يعرف حق المعرفة ان ما يفرضه الوالي من الضرائب على الاكراد والتركمان ، والقرى والافراد ، يدرّ عليه الاموال الوافرة . ومما يروونه من هذا القبيل ان « عدلي » باشا الذي كان واليا على حلب حوالي سنة ١٧٧٢ توصل في مدة خمسة عشر شهراً الى جمع مبلغ عظيم من المال قدّروه بمليون وستمئة الف قرش ، مما كان يأخذه من الاتاوى ، ويفرضه من المغارم ، حتى ضجر السكان منه فطردوه من مدينتهم شرّ طرد .

ومدة حكم الوالي تكون عادة قصيرة الاجل . ومن المحتوم عليه ان يحافظ على السكينة في ولايته ، تؤازره العساكر التي ومدتي جندي ما بين راجل وفارس ، وينضم اليهم عند الحاجة الانكشارية [1] المقيمين في البلاد العامل عليها .

ويؤلف الانكشارية فرقة في كل من الولايات ويتحتم عليهم ان يكونوا دوماً متأهبين للحرب . وبما انهم يتمتعون ببعض الامتيازات والاعفاءات ، فان الناس يقبلون برغبة على الانضمام الى سلكهم . وكانوا ينعمون في ما مضى نظاماً خاصاً . غير ان حالتهم هبطت بعدئذ الى اقصى دركات الانحطاط . لذلك لم يبقَ للنظام القديم من اثر . فهم في الحقيقة شبه عسكر ، وليسوا سوى ارباب حرف وفلاحين وعمال كباقي اصناف الجنود ، لكنهم اقلّ طاعة واصعب انقياداً من غيرهم . فان استبدّ الحاكم ، وظلم الرعيّة ، كانوا اول من نشر لواء العصيان . فهم الذين خلعوا عدلي باشا الذي مرّ بنا ذكره ، وابعدوه

(١) طالع عن فرقة الانكشارية هؤلاء مدة وصفها الاستاذ الخوري سنة ١٩٦٠ وهي نسخة منه في دمشق : ابن توما (سوريا) — او من المطبعة المخلصية : دير المخلص ، قرب صيدا (لبنان) .

من حلب ، فاضطر الباب العالي ان يعيّن والياً آخر بدلاً منه .

وتقتص الدولة من الانكشارية العصاة ، بقتلها زعماءهم ؛ لكنهم لا يخشون ان يتخذوا زعماء غيرهم ولكثرة ما عانى الحكام من الشغب من هؤلاء الجنود الوطنيين ، قد اتخذوا جنوداً من الغرباء الذين لا اقرباء لهم هنالك وهم صنفان ، مشاة وفرسان . ويعدّون الفرسان وحدهم رجال حرب ؛ ويدعونهم « دولة » او « دلاتي » او « دلي باش » او « لوند » ، وسلاحهم السيف القصير والمسدسات والبندقية والرمح ويتعممون بقلنسوة من اللباد الاسود اسطوانية الشكل ، ليس لها كفاف ، طولها نحو خمسة وعشرين سنتمتراً ، فلا تقي العينين اشعة الشمس ، وترى مهدولة من على رؤوس هؤلاء الناس الخارقة .

وسروج خيولهم يصنعونها على النمط الانكليزي من قطعة واحدة من الجلد ، يمدونها على مقعد من الخشب ، وهي مسطّحة غير مريحة .

واما كسوتهم فهي تشبه كسوة المماليك ، لكنها اقل اناقة . فثيابهم البالية واسلحتهم الصدئة ، وافراسهم المتباينة القد واللون ، تجعلهم يشبهون اللصوص . والحقيقة ان معظمهم كانوا في الاصل لصوصاً ، وظلوا لصوصاً حتى بعدما صاروا جنوداً .

ان اغلب الجنود الفرسان في سورية اكراد وتركمان وقرمان قتلوا ونهبوا وسلبوا في مواطنهم ، ثم جاؤوا الى الوالي فوجدوا في كنفه ملاذاً ومأوى . وفي جميع انحاء المملكة يتألف الجيش من افراد على شاكلتهم . وبما انهم لا يتقيدون بنظام ، فان اخلاقهم تدل على ذلك ؛ فهم آفة المدن والقرى ، لانهم يتعدّون على الجميع ، ويسلبون وينهبون لدى كل سانحة وبارحة . والجنود المشاة هم اسوأ حالاً ، وكانوا فيما مضى يُجنّدون من البلد ذاته الذي يقيمون فيه . واما في العهد الاخير أخذ ملاحو تونس والجزائر ومراكش يتوافدون على

سورية للتجند فيها طلباً لعيشة غير متيسرة لهم في موطنهم ، لكن المغاربة اذ تتألف الجنود المشاة ، وليس اخف منهم ، اذ انما يملكون من امتعة مقصور على بندقية صدئة ، وخنجر ، وحقيبة من جلد ، داخلها قميص وسروال « وطاقية » حمراء وحذاء . ورواتبهم خمسة قروش في الشهر ، واذا نفقت اكلهم فالوالي يقوم بها . فحالتهم اذاً لا بأس فيها . ورواتب الفرسان ضعف رواتب المشاة . ويجري تصنيفهم على حسب الاسلوب التتري القديم ، فيجعلون شراذم ، والشرذمة عشرة رجال ، وقلما تكون كاملة العدد ، اذ الآغا المعهود اليه في صرف رواتبهم ، يبذل جهده ليحتفظ لنفسه بجانب كبير ، بل بانقاص عددهم الى اقصى حد مستطاع . ومن الرؤساء فانهم يغضون الطرف ، لان قسماً من مال الاختلاس على هذا المنوال يعود اليهم . والوالي نفسه له ضلع في الامر ، لانه الشريك الاكبر . والا لا يضطروا ان يدفعوا الرواتب تماماً ، يتغاضون عما يرتكبه جنودهم من الاعتداءات او يقترفونه من الذنوب والعيوب .

وفوضى كهذه قد جرّت الخراب على معظم الولايات ، بما فيها ولاية حلب حيث لم يبقَ سوى اربعمئة قرية من الالف والمئتين المدونة في سجلات الديوان . والتجار الفرنسيون الذين كانوا في حلب في القرن الثامن عشر رووا ان معظم القرى القريبة من المدينة صارت الى الخراب ، لان اصحابها اخلوها وجاؤوا الى حلب حيث تبعد عنهم عين الظالم العاتي .

وقاعدة هذه الولاية مدينة حلب ذاتها التي تقع في وسط سهل فسيح ممتد بين نهري العاصي والفرات ، متصلاً من جهة الجنوب بالصحراء . والرقعة المشيدة عليه تربته جيدة ، ويجري فيها سلسال لا يجف ، ينبجس من جبال عينتاب ، ثم يصب في بطيحة واقعة على مسافة ستة فراسخ من حلب ، يكثر فيها طير القوق والطرف . وتتوالى من ثم الرياض الرائعة في الارض المنبسطة ،

على ضفتي جدول الماء بقرب المدينة .

وحلب هذه هي الطف مدن سورية ، وانظفها ، واحسنها بناء ، فان اذن تلمحها تعجبك مآذنها العديدة وقبب مساجدها البيضاء المستديرة ، فتريح ناظريك من رؤية السهل الامرد الممل المحدق بها .

وفي وسط المدينة تل يحف به خندق ، وعلى قمته قلعة خربة ، تشرف على ما حولها ، فيها يمتد البصر جنوباً وشرقاً الى نهر الفرات ، وشمالاً الى جبال بيلان المجللة بالثلج ، وغرباً الى سلسلة الجبال التي ما بين نهر العاصي والبحر . وقد صمدت للحرب عدة اشهر ، غير انها تعجز في عصرنا عن صد اي هجوم كان ، فجدارها المنخفض القليل الثخانة خرب ، وابراجها الصغيرة ليست احسن حالاً ، ومدافعها الاربعة لا فائدة منها ، بما فيها المدفع الرفيع الطويل الذي غنموه من الفرس في حصار البصرة ، والثلاثمئة والخمسون انكشارياً الموكولة اليهم حراستها ، لا يقيمون فيها ، بل في حوانيتهم ، اذ الآغا قائدهم لا يجد فيها مكاناً يصلح لايوائهم . وفيها بئر يأتيها الماء بقناة محفورة من عين تبعد فرسخاً ونصف الفرسخ . وفي اطراف المدينة حجارة كبيرة مبعثرة ، وهذه قبور .

وهنالك تلال تجعل الدنو من القلعة سهلاً ، وعلى احدها دار الدراويش المشرفة على القناة وجدول الماء . فحلب اذن غير محصنة ، مع انها باب سورية من جهة الشمال . واما كمدينة تجارية فهي ذات شأن كبير ، اذ فيها تلتقي القوافل الرائحة والغادية ما بين ارمينية وديار بكر وبغداد وبلاد فارس . وهي تتصل بالخليج الفارسي وبلاد الهند من طريق البصرة ، وبمصر ومكة من طريق دمشق ، وبأوربة من طريق الاسكندرونة واللاذقية . والمتاجرة فيها تقوم بالمقايضة . واهم بضائعها القطن ، والصوف ، والغزل ، وانواع الحرير

المنسوج فيها ، والاقمشة القطنية المصنوعة في القرى ، والنحاس ، والوبر ، وشعر المعز الوارد من الاناضول ، وبعض بلاد الاكراد ، والفستق ، والشال ، والشاش الهندي .

ومما نستورده من الخارج جوخ « لنغدوق » ، ودودة القرمز ، والنيلة ، والسكر ، وبعض التوابل والابازير ، وبنّ اميركا الذي يأتون به حلب اذ استيراده ممنوع ، فيسمونه بالبن اليمني .

وللفرنسيين في حلب قنصل وسبع وكالات ، ولكل من الانكليز والبندقيين وكالتان ، ولكل من النمسويين والهولنديين وكالة . وفي السنة ١٧٨٤ انشأت فيها الحكومة الفرنسية قنصلية ، وعهدت فيها الى تاجر يهودي مسي بعد من ساعته الى حلق لحيته ليرتدي بالكسوة الرسمية ، ويشدّ السيف على وسطه . وكذلك الروس اتخذوا لهم داراً هنالك جعلوها مقراً لقنصل يمثلهم . والمعاملة الطيبة التي يجدها التجار الاوربيون في هذه المدينة ، لا يجدون مثلها في سائر مدائن الشرق .

وتأتي حلب بعد الاستانة والقاهرة من حيث كثرة السكان ، فيظن ان عددهم فيها يناهز مئتي الف نسمة . واما هواؤها فانه جاف وملائم للذين لم تعترهم الامراض الصدرية . غير ان وباء غريب الشكل ، يدعونه « حبة حلب » منتشر فيها وفي ما حولها ، وهو بثر يكون في ابتدائه التهابياً ، فيصير من ثم قرحاً يدوم سنة . وهو يخرج عادة في الوجه ، فيترك فيه اثراً مشوهاً . ويزعمون انه يعتري ايضاً كل غريب يقيم في حلب ثلاثة اشهر . وقد دلت الخبرة على ان انجع دواء له عدم استعمال اي ما دواء ، ولا يعرف له من سبب ؛ وانما يظن انه ينجم من طبيعة الماء الذي يشربونه ، لانه منتشر ايضاً في القرى المجاورة وبعض انحاء ديار بكر .

وحمامها الذي كانوا يرجلونه الى بغداد ، حكايته ليست بسطورة . وقد بطل استخدامه في نقل الرسائل منذ اواسط القرن الثامن عشر ، لان قطاع الطرق كانوا يقتنصونه . واما طريقة زجله فهي انهم كانوا ينقلونه على الخيل الى المكان المراد عودته منه . وعندما يراد ارسال الاخبار ، تربط بطاقة برجله ، ثم يطلق سبيله ، فيصل من اسكندرونة في ست ساعات ، ومن بغداد في يومين . وهذا النوع من الحمام لا يختلف من غيره الا بانتفاخ وخشونة منخره الذي يكون مادة املس في غيره من الحمام .

ومنظر حلب من بعد يجلب اليها طيور البحر التي وجودها هنالك يستثير الدهشة . واذا ما صعد المرء بعد الظهيرة الى سطح بيت ، وحرك يده كأنه يلقي في الفضاء كسرات من الخبز ، رأى الطيور تنقض فجأة ، وتخطف وهي طائرة الكسر الملقاة اليها على سبيل التسلية .

ويلي حلب من حيث الاهمية مدينة انطاكية التي اشتهرت في سالف العصور بزهو سكانها . فهي اليوم بلدة خربة ، منظر بيوتها المبنية بالطين ، وطرقها الضيقة الحقرة يدل على فقرها وبؤس اهلها . والبيوت قائمة على الضفة الجنوبية لنهر العاصي بقرب جسر قديم خرب . ويعلوها جنوباً حصن عليه سور شيده الصليبيون ، وهي تمتد من الجبل نحو الف ومئتي قدم . وفي هذه المسافة تتوالى الحدائق والخرائب .

وانطاكية اكثر ملاءمة من حلب لسكن التجار الاوربيين ، واقامة مستودعاتهم عليها . فلو ازالوا من مصب نهر العاصي الطمي المتراكم فيه — والمصب بعد ستة فراسخ عن انطاكية — سهل على المراكب صعوده ، والى منبعها ، الا ان مجراه شديد الانحدار، لذلك يدعوه السكان « العاصي » . وعرضه داخل المدينة يقارب اربعين قدماً . وعلى مسافة سبعة فراسخ من مصبه صعوداً

بمجاز سعيدة ينمو فيها السمك ولاسيا الجزي او ثعبان الماء الذي يقددون منه كل سنة مقادير كبيرة .

ولم يبقَ في انطاكية اثر لعبة « دفنة » او ذكر للمشاهد الدعارية التي كانت تمثل فيها . واما سهلها فتربته جيدة ، الا انه بور ، وقد تركت لقبائل التركمان الرحالة . مع ان الجبال التي الى جانبي النهر تتكاثر عليها بساتين التين والكروم والتوت التي شجرها مغروس بنسق لطيف لا مثيل له في غيرها من الاماكن . والملك المقدوني « سلوقيوس نقاتور » الذي شيدها ، قام ايضاً على ضفة العاصي عند مصب النهر مدينة حصينة دعاها باسمه ، لا يرى اليوم منها الّا انقاض ومغاور في صخر مجاور ، وبقايا رصيف مرفإ .

وعلى مقربة من ساحل البحر نحو الشمال جبال عالية دعاها واضعو تقاويم المدن الاقدمون « رسوس » ، وهو ذات الاسم الذي ما زال باقياً حتى الآن في لفظة « رأس الخنزير » التي تسمَّى بها زاوية هذا الساحل .

والخليج الذي يزداد وغولاً شرقيّ الساحل ليس فيه ما هو جدير بالذكر سوى مدينة الاسكندرون التي على شاطئ البحر ، مع انها قرية لا سور لها ، قبورها اكثر من بيوتها ، وهي الثغر الوحيد في سورية كلها حيث تستطيع السفن القاء مراسيها من غير ان تتقطع حبالها . غير ان محذوراته كثيرة واضراره جسيمة ؛ فهواؤه مؤذٍ ، وشتاؤهُ شديد الرياح كثير العواصف . واكثر رجال البحر الذين يقضون الصيف فيه ، يموتون بامراض تعتريهم ، وهي امراض تنشرها المستنقعات التي تتكاثر في جواره .

والتجار الاوروبيون المقيمون في حلب لهم في الاسكندرون وكلاء ومستودعات . ولا شيء فيها يسترعي النظر سوى ستة او سبعة ضرائح من رخام جيء بها من انكلترة ، كتب عليها : « هذا ضريح فلان الذي مات في

ريعان الشباب متأثراً بالهوآء الموبوء » . والذين يبلّون من مرضهم يقضون فترة النقه في بيلان الواقعة في قلب الجبال على مسافة ثلاثة فراسخ ، وهي بلدة هواؤها نقي وماؤها عذب زلال .

ولما ضاق تجار حلب الاوربيون ذرعاً عطار الاسكندرون ، فكّروا في نقل مستودعاتهم الى اللاذقية ، فاقترحوا على الباشا صاحب طرابلس اصلاح مرفئها على نفقتهم نظير اعفائهم من المكوس والضرائب لمدة عشر سنين ، وابانوا له ما ينجم من ذلك من الفوائد في مستقبل الايام ، فاجابهم : « مالي والمستقبل ؟ كنت امس في مرعش ، وقد انتقل غداً الى جدّة ، فلمَ احرم نفسي الحاضر الاكيد في سبيل مستقبل غامض لا امل لي فيه » .

وفي وسط الجبال شمالي حلب ، مدينتا كلّس وعينتاب الآن سكانهم ارمن واكراد واتراك . وبما انهم يعيشون جميعهم في سلام ووئام ، فلا يستطيع الحكام الاستبداد بهم .

وعلى مسير يومين من حلب شمالاً شرق بلدة « منبج » التي كانت تعرف قديماً باسم « بمبيس » (Bambyce) . ولم يبقَ فيها اثر لهيكل للالاهة الكبرى التي وصف عبادتها لكيانوس . والامر الوحيد الجدير بالذكر قناة عجيبة طولها اربعة فراسخ يسيل المآء فيها منحدراً من الجبال ، وكانت المجاري المماثلة لها كثيرة في هذه الارجآء ، اذ الاشوريون والماديون والفرس كانوا يعتقدون ان الدين يفرض عليهم جرّ المآء الى الصحرى لانه وسائل الراحة والرفاهة ؛ لاجل ذلك يرى ما بين بقعة واخرى آثار حائلة تدلّ على ان البلاد كانت آهلة في العصور الخوالي ؛ وتلك الآثار هي انقاض قرى قديمة ، وصهاريج خربة ، وبقايا قلاع وهياكل ، واقعة جميعها على الطريق التي بين حلب وحماة .

وفي السهل الواسع الذي في تلك الانحآء مدة تلال بيضوية الشكل وهي

من عمل البشر ، ومنها تل « خان شيخون » الذي طول دائرته الف واربعمئة قدم ، وهو شاهد ناطق بالجهود العظيمة التي كانوا يبذلونها في اقامة مثل هذه التلال التي تتوالى بين فرسخ وآخر ، وعلى جميعها انقاض قلاع واطلال هياكل ، لأن الاقدمين كانوا يؤثرون القيام بفرائض العبادة في الاماكن العالية .

واما الآن فبدلاً من تلك الحدائق والبساتين ، لا يرى المرء الا اراضي بائرة مهملة ، مع ان تربتها جزيلة الخصب ، وما يزرعونه في بعضها من القطن والسمسم ينجح نجاحاً تاماً .

وجميع الاراضي الواقعة على حدود الصحراء ، ليس فيها ماء جار ولا ينابيع ؛ وماء الآبار مالح ؛ والامطار التي يعلقون الآمال عليها لا وجود لها الا فيما ندر . لاجل ذلك ما من شيء له منظر كئيب كما لتلك الاراضي الماحلة القاحلة حيث لا شجر ينمو ولا عشب ينبت ؛ او لهذه المساكن المبنية باللبن التي تتألف منها القرى ؛ او لهؤلاء القرويين البؤساء المعرضين دوماً لعسف الحكام ، وجور الظلام ، وتعدي البدو .

والعرب المقيمون هنالك يدعون « الموالي » ؛ فهم اغنى واقوى القبائل العربية طراً ، بعضهم فلاحون ، والبعض الآخر يؤازرون عرب نجد في تسيير القوافل ما بين حلب والبصرة ، او دمشق او طرابلس عن طريق تدمر .

ولاية طرابلس

تشمل ولاية طرابلس البلاد الممتدة بموازاة البحر الابيض ما بين اللاذقية ونهر الكلب . فحدودها غرباً مجرى هذا النهر وسلسلة الجبال المطلة على نهر العاصي . واكبر جانب منها جبلي ، وليس فيها ارض منبسطة الا تلك التي تقع بين طرابلس واللاذقية . وجداولها العديدة تجعلها كثيرة الخصب ، واخص غلاتها القمح والشعير والقطن . غير انهم لا يهتمون كثيراً بفلاحتها ، لانهم يفضلون عليها الاراضي الجبلية .

ويحكم طرابلس مطلق السلطة في الشؤون العسكرية والمالية ، ويقلد الحكم لسنة واحدة ببدل قدره مئة وخمسون كيساً يؤديها الى الباب العالي ، وعليه ايضاً ان يقوم بنفقات الجردة التي تقدر بستمئة وخمسين كيساً ؛ والجردة هي القمح والشعير والارز التي يذهب بها الى قفل الحجاج في البادية ، فيعتاض من ذلك بالاتاوى والمغارم والضرائب والمكوس وما يتقاضاه من تلزيم بلاد النصيرية ولبنان . والمال الذي يدخل عليه من هذه المصادر وافر جداً . وعليه كذلك ان يقوم بنفقات الخمسمئة فارس والجنود المغاربة الذين تحت يده ؛ وهؤلاء ليسوا احسن حالاً من زملائهم الذين في حلب .

والحكام الذين تعاقبوا على طرابلس ، حاولوا مراراً ان يديروا هم انفسهم دفة الحكم في بلاد النصيرية والدروز . غير ان هذين الشعبين كانا يقاومان بالسلاح دخول الاتراك الى بلادهما ، لذلك اضطروا ان يعهدوا في جباية الاموال منهما الى « ملتزمين » يرضيان بهم . ومدة الالتزام سنة واحدة ؛ والحاكم هو الذي يطرحه في المزاد ، فيتزاحم الاعيان لأخذه ؛ وهكذا يستطيع الحاكم ان

يثير التحاسد والاضطراب في تلك البلاد ، جاعلاً بيرانها مضطرمة على الدوام ، وذلك ما فعله الفرس والاشوريون في البلاد التي كانوا يسيطرون عليها .

ففي اواخر القرن الثامن عشر كان ثلاثة زعماء او متقدمين ملتزمين بلاد الصيرية . واما بلاد الموارنة والدروز فان التزامها كان معهوداً فيه الى الامير يوسف ويدفل قدره ثلاثون كيساً .

واول مدينة جديرة بالذكر في هذه الولاية ، طرابلس ذاتها ؛ فهي قاعدة الحكم ، وتقع على مسافة ربع فرسخ من مصب نهر « قاديشا » ؛ ويفصلها من البحر سهل صغير مثلث الزوايا ، اتساعه نصف فرسخ ، في طرف البلدة التي ترسو المراكب بقربها . وليس هنالك مرفأ ؛ واما الخليج الذي ما بين الشاطئ والصخور المعروفة بجزر الارانب والحمام ، فان المراكب تحذر الرسو فيه بكثرة الصخور التي في اسفله ولا سيما الرياح التي تعصف بشدة على جميع هذا الشاطئ . وفي عهد الصليبيين كانت تحمي الخليج ابراج رأى فولني سبعة باقية منها .

وعلى مقربة من طرابلس بساتين التوت الابيض والرمان والبرتقال والليمون ، وهي اشجار تحمل احسن الاثمار واشهاها ويكثر هنالك الصبار الذي ينبت بشكل غير منتظم .

وقد يبدو ان السكن في هذه المدينة مستطاب ، الا انها معرضة لانتشار الاوبئة فيها ، وعلى الاخص في فصل الصيف ؛ فهي من هذا القبيل كقبرص والاسكندرون ، اذ بساتين التوت القريبة منها يغمرونها بالماء لجعل الاشجار تورق ثانية ، ويحدثون مناقع عديدة . ثم ان المدينة ليست مفتوحة الا من جهة الغرب ؛ لذلك لا يهب عليها النسيم ، فالمرء يشعر فيها بتعب ونصب دائمين . وفي الميناء الهواء اكثر رطوبة منه في المدينة ، الا انه

نقي وامره له طائع .

وفي الساحل الجنوبي للسور اسمه الشداد انيه ، تر مساكن ، و عدة مطمئة داخلة في الارض او مشادة بزوال الحجر ، وهي التي استعمل العالم ون الكثير منها في الاسوار التي شيدوها

وتجارة طرابلس تقوم بالحرير الخشن الذي يصنعون منه قماشاً ، الا ان صنعها آخذ بالتضاؤل لزوال اشجار التوت التي لم يبق منها سوى سوق مهجورة ، واصحابها لا يقدمون على غرس غيرها ، او على احداث بناء جديد ، لئلا يتهمهم الحاكم مثرين ، اذ من يعرف عنه انه يحرز مالاً ، طلب منه تأديته ، فان أبى او انكر ، ضرب ، وان اعطى ضرب ليعطي اكثر فاكثر .

والطرابلسيون يأبون الخروج ؛ لقلب الاسكندنية التي يتحدرون ، والعمامة الخضراء التي يعتمرون بها ، متحدين صفة الاشراف ، بجملتهم على المحسن ، ففي اواسط القرن الثامن عشر ، امر احد ثابعهم ، ردهم الى اليأس . القرية من اعمال الجور والاستبداد ، فطردوه ، وطلبوا تخلية الشهر مستقلين اتزوا بهم ذهاب العالي بعث اليهم حلا من ساليب العدق ، الوصال الى احضاعهم مكيلة لهم الوعود الطيبة رقسمه لأبنيه الحرجة ومنحهم العفو والامان ، ثم انتهى به الامر الى حتى ذبحه منهم في يوم واحد ، وهم الذين ترى مدافنهم في مغارة قرب « قاديشا » .

والفرنسيون الذين هم في طرابلس قنصل وثلاث وكالات ، يقايضون على الحرير والاسفنج المستخرج من قعر الخليج ، بالجوخ والاردية القرمزية ، والسكر ، والبن ، ولكن هذا التمر هو دون اللاذقية اهمية .

مدينة اللاذقية التي انشأها « سلوقيوس نقاتور » ودعاها « لاودقية » تقع على الشاطئ الجنوبي بقعة ارض مستطيلة داخلة نصف فرسخ في البحر .

ومرفؤها كباقي مرافئ التي على هذا الساحل يحيط به رصيف من الحجارة ، وله مدخل ضيق ؛ ويمكنه ان يأوي خمسة عشر او ثلاثين مركباً . بيد ان مرفأها قد تراكمت فيه الحجارة والاتربة حتى لم يعد يسع اربعة مراكب ؛ والسفن التي يزيد غورها على اربعة اقدام لا يمكنها ان تعوم فيه . وكثيراً ما تجنح السفن عند مدخله ؛ ومع ذلك فان التجارة في هذه المدينة رائجة ؛ وعلى الاخص تجارة التبغ الذي يشحنون منه سنوياً الى دمياط عشرين مركباً فيأتيهم بدلاً منه الارز الذي يقايضون عليه بالزيت والقطن في سوريا العليا . وفي عصر « سترابون » كانوا يبعثون الى مصر عن طريق الاسكندرية مقادير كبيرة من النبيذ المشهور المستخرج من عنب الكروم التي على منحدرات الجبال .

ويقدرون عدد سكان كل من طرابلس واللاذقية باربعة آلاف نسمة .

وعلى الساحل الذي ما بين هاتين المدينتين ثلاث قرى كانت في العصور الخوالي مدناً محصنة ؛ كجبلة وطرطوس وعمريت . وهنالك اماكن عديدة تدل آثارها التي اندثر الكثير منها ، انها كانت عامرة في سالف الزمان ؛ ومنها جزيرة ارواد او ارادوس القديمة الحصينة بحد ذاتها ، وهي التي روى عنها « سترابون » ان دورها كانت اكثر طبقات من بيوت رومة ، وسكان جزيرته التي كان ينعم بها سكانها نموا وتكاثروا حتى اصبح عددهم عظيماً . وكانوا يزاولون الملاحة ، ويمارسون الفنون والصنائع ؛ والجزيرة اليوم خالية خاوية ؛ حتى ان النقل لم يحفظ لنا ذكرى عين الماء العذب التي يزعمها الارواديون في قاع البحر فكانوا يستمدون الماء منها بقمع من الرصاص وانبوب من جلد يركبونه عليه .

والى الجنوب بلاد كسروان الممتدة من نهر الكلب حتى طرابلس ؛ واكبر مدنها جبيل وبيبلوس القديمة التي عدد سكانها ستة آلاف . ومرفأها

كرفا اللاذقية . ونهر ابرهيم هو نهر ادونيس ، القديم الذي يبعد فرسخين الى الجنوب ؛ وعليه جسر بقوس واحدة ، فتحتها خمسون قدماً ، وارتفاعها ثلاثون . ويدل شكله على ان العرب هم الذين شيدوه .

والاوربيون يتردّدون الى اهدن وبشري التي فيها معهد للمرسلين . وفي فصل الشتآء يقصد جمهور كبير من القرويين الى الساحل تاركين بيوتهم التي طمرتها الثلوج ، في عهدة بعض الحراس . وتبعد بشري عن غابة الارز ثلاثة فراسخ ، مع ان الرجل لا يستطيع قطع هذه المسافة الا في سبع ساعات . ويدعي فولني ان اشجار الارز هذه الذائعة الشهرة ، تشبه عجائب الدنيا الاخرى . فاذا دنوت منها ، رأيت ان صيتها يفوق حقيقة حالها . ويقول ان هنالك اربع او خمس شجرات ضخمة ، ليس لها اية صفة خاصة ، ولا هي جديرة بما يكابده المرء من المشقة في سبيل رؤيتها .

وعلى حدود كسروان بمسافة فرسخ واحد من نهر الكلب تقع قرية عينطورة الصغيرة حيث كان للآباء اليسوعيين دير حسن الموقع ، قريب من الساحل ، يشرف على الوادي الذي امامه . وعلى مقربة منه عين مريرة الماء تسقي بساتين الدير وكرومه . وكان الآباء رغبوا في ان يضموا اليه دير نساء يبعد نحو ربع فرسخ . غير ان الروم الكاثوليك الذين هم اصحابه لم يوافقوهم على ذلك ؛ واقاموا ديراً آخر الى جانب ديرهم دعوه دير الزيارة . وكانوا قد بنوا ايضاً على بعد مئتي قدم مدرسة اعدوها للطلبة الموارنة والروم الكاثوليك ؛ لكنها بقيت خالية . واللعازريون الذين حلّوا محلهم لهم هنالك كاهن واخ مساعد .

ولاية صيدا

التي يقال لها ايضاً ولاية عكا

الى جنوب ولاية طرابلس ، وعلى طول ذات الساحل ، ولاية ثالثة دعيت باسم صيدا ، وهي المدينة التي كانت قاعدتها . ويمكن ايضاً تسميتها ولاية او ايالة عكا . فقبل الشيخ ظاهر كانت تشمل بلاد الدروز ، وجميع الساحل الممتد من مجرى نهر الكلب حتى جبل الكرمل . وبقدر ما كانت سلطة الشيخ تنمو وتتقدم ، كانت البقعة التي يسيطر عليها الوالي تصغر وتضيق ، حتى انها لم تعد تشمل سوى مدينة صيدا وحدها التي طرد منها في نهاية الامر .

غير انها ما لبثت ان استعادت حدودها السابقة على اثر اضمحلال سلطة الشيخ ؛ والجزار الذي خلف الشيخ في الحكم ، ضمّ اليها بلاد صفد ، وطبرية ، ومدينة قيصرية التي كان يحتلها عرب بني صخر ، وبعلبك التي كانت تابعة لولاية دمشق ؛ ثم نقل مركزه الى عكا ، للاستفادة مما اجراه فيها الشيخ من العمران . وهذه الولاية بعد ان ضُم اليها ما ضُمّ ، صارت تشمل جميع البلاد الواقعة ما بين نهر الكلب وقيصرية فلسطين جنوباً ، والبحر المتوسط غرباً ، ولبنان الشرقي والجانب الاعلى من نهر الاردن شرقاً .

فتلك الاراضي الواسعة قد زادت الولاية شأناً ، واعطتها مزيّتين حسنتين ، هما الموقع والخصب . فسهول عكا ، ومرجعيون ، وصور ، والحولة ، والبقاع الاسفل ، اشتهرت بجودة تربتها ؛ فان ما يزرع فيها من شعير ، وذرة ، وقطن ، وسمسم ، يعطي عشرين او خمسة وعشرين ضعفاً . واراضي قيصرية فلسطين فيها غابة من شجر البلوط لا مثيل لها في سورية بأسرها . واراضي صفد ينبت

فيها قطن يحاكي قطن جزيرة قبرص ، وما يزرع من التبغ في الاراضي الجبلية التي في جوار صور يضارع بجودته تبغ اللاذقية ، بل هنالك بقعة يُجنى منها صنف به رائحة عطرية كرائحة القرنفل يبعثون به الى القصر السلطاني في الاستانة . ويتوافر في بلاد الدروز الحبوب والحرير .

وتُعدّ هذه الولاية بندراً لدمشق وسائر سورية ، بحسن موقعها على الساحل وكثرة خلجانها .

والوالي حاكم مطلق التصرف ، ومحترم جداً ، فهو يدفع سنوياً الى الباب العالي مبلغاً ثابتاً قدره سبعمئة وخمسون كيساً . وفضلاً عن ذلك ، فعليه ان يؤدي نفقات الحج ، على غرار زميله والي طرابلس ، مقدماً للقافلة من الارز والقمح والشعير ما يساوي مئة وخمسين كيساً . والالتزام مدته سنة واحدة يمكن تجديدها . واما دخله فهو اولاً عُشر او ضريبة الارض . — ثانياً الاموال المفروضة على الدروز والموارنة والمتاولة وبعض عشائر العرب . — ثالثاً المال الجزيل الذي يدخل عليه من الجمارك ومن طريق الاتاوى والمغارم . — رابعاً المكوس التي تُحمل بدل التزامها من جميع الموانئ والمقاطعات الف كيس .

ومما كان يأتيه ايضاً من الارباح الطائلة استغلاله الاراضي الواسعة ، وتسليفه التجار والفلاحين المال بالربا ، فما يجنيه من ذلك يربو على ثمانية ملايين قرش .

ولأولياء الامر في الاستانة خطة لا يحيدون عنها ، وهي جعل المال المفروض على الملتزم ثابتاً ، اي تركه بلا زيادة ولا نقصان ، مهما كثرت الارباح ، ولاجل ذلك يدعونه يجمع المال بأمان واطمئنان ، حتى اذا جاءت الساعة توصلوا ببعض الحجج الى الاتيان اما برأسه او بصندوق ماله

فالباشا الذي يخشى من الحرمان نظراً الى جشعه ، فهو الذي يمهد السبيل الى

القضاء على الشيخ ظاهر العمر واولاده ، وقمع عرب قبائل صخر ، وخفض جناح الدروز ، وكسر شوكة المتاولة . فلاجل ذلك احرز له الانعامات ، ومنحه رتبة «باشا» ولقب «وزير» . ولكن الباب العالي ما لبث ان داخله الارتياب من مطامعه الجامحة ؛ فنشأ في كليهما شعور دفين من تضعضع الثقة ، كما حمل الجزار على الاخذ بالحيطة لنفسه ؛ فعمل بجمع الجنود ، باذلاً جهده لحشد معظم افراد جيشه من مواطنيه الشناق والارناؤوط ، حتى اصبح عددهم تسعة آلاف فارس ، ذلك علاوة على الالف مغربي الذين كانوا تحت يده . وكان له ايضاً اربع سفن حربية غنمها من صحاب حربية ساقطة .

تلك الاحتياطات التي تظاهر بواسطتها انه رأس العدو ، جعلته في مأمن من المباغتات . لكن الباب لم يبق مكتوف اليدين ، بل كان يدس اليه «القبوجيين» ليعدموه في اغتياله ويجيزوا ، بما لم يكن غافلاً عن حيل هؤلاء المدسوسين ؛ فكان يراقبهم مراقبة شديدة عند ساعة وصولهم . فالاعدام العاجل الذي اورده اثنين او ثلاثة منهم حتفهم ، اخمد رغبة غيرهم في الاقدام على اغتياله .

وكان له في ديوان الاستانة ، وفي القصر السلطاني ذاته مواسير واصدقاء ، يجزل لهم الهدايا والعطاء ؛ فهم الذين توصلوا بعدئذ الى حمل اولياء الشأن على اسناد ولاية دمشق اليه . وذلك ، كما هو يرغب فيه ؛ لأن ولاية دمشق اعظم ولايات سورية قاطبة . وقد تخلى عندئذ عن ولاية عكا لمملوك يدعى سليماً كان غلاماً له . لكنه كان يعد نفسه صاحب الولايتين ، اذ سليم كان اطوع له من بنانه .

واما الاماكن الجديرة بالذكر في هذه الولاية ، ففي مقدمتها بيروت القائمة على بقعة تبدأ عند سفح الجبل ، داخلة في البحر على شكل قرن طوله

فرسخان . والزاوية الجوفآء التي يحدثها هذا القرن ، يصب فيها نهر بيروت او نهر الصليب الذي يفيض في فصل الشتآء ، وعلى هذا النهر جسر كبير خرب يصعب عبوره .

وكانت بيروت في حوزة الدروز ، ثم انتزعها منهم الجزار . بيد انها ظلت البندر الذي يترددون اليه ، لانهم منها يشحنون قطنهم وحريرهم المعد معظمه لمدينة القاهرة ، فيأتيهم بدلاً منهما البن والارز والادان يقايضون عليهما بحنطة البقاع وحوران . وفي بيروت من السكان ستة آلاف نسمة .

ومرفاها ضعيف كما لمرافئ الاخر التي على هذا الساحل ، وقد تراكمت فيه الانقاض والرمال . ويحيط بها سور مبني بحجارة رملية رخوة تخترقها القنابل من غير ان تحطمها . مع انه لا متانة لسورها ولا لابراجها القديمة . والتلال المشرفة عليها ، وافتقارها الى المآء يجعلانها تعجز عن صد المغيرين عليها .

وترد ساؤها عياً نائية ، ماؤها قليل العذوبة . وقد حاول الجزار اقامة سبيل فيها كالذي شيده في عكا ، والحفر التي تحفرها لمآء الصهاريج ، كشفت من اطلال المدينة القديمة التي بعض انقاضها واعمدتها ترى ورآء السور .

والبساتين التي بجوارها توتها اقوى واحدث من التوت الذي في اراضي طرابلس ، لان اصحاب تلك البساتين كانوا في اثنآء حكم الدروز يستطيعون نصب اشجار جديدة كل دعت الضرورة ، فلا يعارضهم احد ؛ لاجل ذلك يمتاز الحرير الجني منها بجودته .

وبيروت حرّها شديد ، وماؤها ساخن ، لكنّ هواءها طيب ، ومما يزيد طيبه ويجعله جيداً ، شجر الصنوبر الكثير الذي نصبه الامير فخر الدين على مسافة فرسخ منها . وبعض هذا الامر قد اكده لي رهبان دير

الشوير ، وقالوا له ايضاً قد كثرت مياه الينابيع وازدادت عذوبة منذ ما انتشرت غابات الصنوبر على قمم لبنان؛ وهو لعمري قول صادق قد أيدته الحقائق .

ان الاماكن التي تستدعي النظر في جبل الدروز هي يسيرة ، فاهمها دير القمر موطن الامراء . وهي ليست مدينة ، بل هي قرية منازلها سيئة البناء ، تقع خلف جبل يجري عند سفحه نهر الدامور اي « تمراس » القديم ؛ وسكانها دروز وموارنة وروم من ارثوذكس وكاثوليك ، عددهم نحو الف وثمانمئة . وقصر الامير ليس سوى بيت كبير ، بناؤه سيء ، وجدره متداعية .

ومما يجدر ايضاً ذكره زحلة القرية الواقعة في وادي البقاع على سفوح الجبال واكامها . وقد صارت في اواسط القرن الثامن عشر عقدة الاتصال ما بين بعلبك ودمشق وبيروت ولبنان . والمشهور منها ان نقوداً مزيفة تضرب فيها .

وبلاد الدروز عدة مقاطعات ، لكل واحدة منها حاصلها الخاص الذي يميزها عن غيرها : فمقاطعة المتن كثيرة الصخور والحصى والحديد ؛ ومقاطعة الغرب ينبت فيها احسن اشجار الصنوبر ؛ ومقاطعة الساحل تكثر فيها الكروم وشجر التوت ؛ ومقاطعة الشوف مشهورة بجودة حريرها ؛ وتكثر شجر الشمع في المقاطعة لكثرة [illegible] ؛ ومقاطعة الشقيف تعطي افضل اصناف التبغ . ويسمون جروداً أعلى وأبرد بقع في الجبال ؛ وهناك يسرح الرعاة قطعانهم في فصل الصيف .

وكان الدروز قد رضوا بان يقطن بين ظهرانيهم المسيحيون من روم وموارنة ؛ فاقطعوهم ما يحتاجون اليه من الاراضي لاقامة ديورة عليها . وهكذا تسنى للروم الكاثوليك ان يشيدوا هناك اثني عشر ديراً في اوائل القرن الثامن عشر .

واول تلك الديورة دير مار يوحنا الصابغ الذي يقع تجاه قرية الشوير ،

على سقف صخر يجري في اسفله شتاءً سيل يصب في نهر الكلب . وقد بني هذا الصرح بهندسة لا زخارف فيها ولا جمال ، في وسط الصخور المطلة المنهارة من الجبل ، وهو يشبه مرقداً له دكان من الحجارة الصغيرة يعلوها سطح معقود عقداً متيناً . ويقيم فيه اربعون راهباً . ومزيته الكبرى احتواؤه على مطبعة عربية وهي الوحيدة التي وجدت في البلاد الشرقية . ولا يظن القارئ بأني لم أعرض لالمام بتاريخها .

فان الآباء اليسوعيين شرعوا منذ بدء القرن الثامن عشر ينشرون العلوم في ديرهم بحلب ، بنشاطهم وعنايتهم المعهودة ، فانشأوا في تلك المدينة مدرسة لتربية الاولاد المسيحيين ، وتلقينهم قواعد الدين ، وتدريبهم من الصغر ، كما هو دأب المرسلين الاول ، وتمكينهم من ذلك حين يشتد الى المناقشات التي تؤدي الى الخصام والجدال ما بين المنتمين الى شتى المذاهب الشرقية .

فالمنطق ركن الحجة ، وهو علم يفرض على من يروم الاخذ به ان يكون ملماً الالمام التام باصول اللغة ، ولما كان المسيحيون كانوا لا يعرفون سوى اللغة العامية لابتعاد ابواب المدارس العربية في وجوههم ، لم يكن في وسعهم الاقدام على المناقشة كتابة ، الى ان توصل نفر منهم الى الاخذ من بعض العلماء قواعد الصرف والنحو .

وقد امتاز من بين هؤلاء المسيحيين بنبوغه وتضلعه من اللغة العربية المدعو عبدالله زاخر ، فاخذ ينشر بهمة لا تعرف الكلل عقائده وآراءه . وليس في وسعنا ان نعلم بدقة مدى التأثير الذي كان يحدثه نشاطه في استمالة الناس الى آرائه في حلب ، اذ طرأ فجأة حادث من الحوادث التي تعد عادية في تلك البلاد ، فغير مجرى الامور .

فخصومه قد عاظهم نجاحه عليهم فسعوا في الاستانة لهلاكه ، وتوصلوا الى

الحصول على خط شريف بضرب عنقه . وكان من حسن حظه انه شعر بالمكيدة ففرّ هارباً الى لبنان حيث لم يكن خطر على حياته .

ففارق عبدالله بلده ، ولكن افكاره الرامية الى التجديد لم تفارقه ؛ فعزم عزماً صادقاً على نشر آرائه كتابة وما يطول مخطوطاً منها ، فانه بدا له غير واف بالمرام . ولما انه كان يقدر فوائد الطباعة ، فقدم على تنفيذ ثلاثة مشاريع في آن واحد وهي التأليف ، وصب الحروف ، والطباعة . وقد تمت له ذروع مرامه بفضل عبقريته وثروته واتقانه فن الحفر الذي مارسه اذ كان يتعاطى مهنة الصياغة

وكانت الحاجة تدعو الى شريك يساعده على وجود ذلك الشريك ، فاستعان به على عمل ما كان يصبو اليه واتى عبدالله الذي كان رئيس دير مار يوحنا الشوير ، فأشار عليه بالتمكن في ذات الدير . ومنذ تلك الساعة غدت مشاريعه شغله الشاغل ، الى ان تمكن في سنة ١٧٣٣ من نشر مزامير داود في مجلد واحد فاقبل الناس على شراء كتابه حتى خصومه انفسهم ، لما رأوا فيه من جمال الحروف واتقانها . ومنذ ذلك الحين اعيد طبع الكتاب عشر مرات .

وقد حاول بعده صب الحروف ، ولكنهم لم يستطيعوا التفوق عليه ، اذ الحروف التي صبها كانت تمثل الكتابة تمثيلاً تاماً . فكانت ملأى حيث يجب ان تكون ملأى ، ودقيقة حيث يجب ان تكون دقيقة . وذلك بعكس الحروف العربية التي كانوا يصنعونها قبلاً في اوربة معكوسة دقيقة .

فقضى عشرين سنة وهو يقوم بطبع المؤلفات المتنوعة التي كان معظمها مترجماً عن الكتب التقوية ، لانه لم يكن يعرف اللغات الاوربية ، الا ان الآباء اليسوعيين نقلوا الى العربية كتباً عديدة . ومع ان علمهم باللغة العربية لم يكن كاملاً فاعاد تعريبهم مستبدلاً لغة هي مثال المتانة والطلاوة .

وكان قلمه سيالاً ، متنوع الاساليب ، صريحاً ، خالياً من الحشو ، فادهش الجميع ، دالاً بذلك على ان اللغة العربية تلائم ملاءمة موفقة اي موضوع اريد طرقه وشرحه .

وقد توفي عبدالله سنة ١٧٤٨ ، فخلفه تلميذه ، فرهبان الدير انفسهم ، مواصلين بعده عمل الطباعة وصب الحروف . غير ان المطبعة وقفت بعدئذٍ حالها حتى امست مهددة بالزوال ، لان ما كان يباع من الكتب يسير ما عدا كتاب المزامير الذي جعله المسيحيون كتاب اولادهم المدرسي . فرواجه هو الذي دعا الى اعادة طبعه مراراً .

بيد ان النفقات كانت باهظة ، لان الورق يجب جلبه من اوربة . ثم ان اليد العاملة بطيئة جداً ، فمشكلة الورق يمكن معالجة شيء من الفن ، واما بطء العمل فمن المتعذر وجود حل له ، لان الحروف العربية تتطلب ربط بعضها ببعض ، لان شكلها يختلف على نحو ما تكون في بدء الكلمة ، او في وسطها ، او في طرفها . فدعت الضرورة الى صب الحروف العديدة المزدوجة والى جعل منضدة الحروف ذات عيون كثيرة العدد ، لا تستطيع يد الناضد الوصول اليها بسهولة ، فيضطر الناضد الى اخرى ذهاباً واياباً امام المنضدة التي يبلغ طولها ثماني عشرة قدماً ، باحثاً عن حروفه في ما يقارب تسعمئة عين مما يؤدي الى ضياع وقت طويل . ومثل هذا الامر يجعل من المتعذر على الطابعين العرب بلوغ درجة الاتقان التي ادركها الطابعون في اوربة .

واما كساد الكتب فساعد عليه عدم انتقاء الملائم منها ، فبدلاً من تعريب الكتب ذات الفائدة العلمية التي من شأنها ايقاظ حب الفنون في جميع العرب بلا تمييز ، فانهم لم يعربوا الا كتب العبادة التي تلائم المسيحيين وحدهم .
فهاك جدول الكتب التي طبعت في دير مار يوحنا الشوير في جبل الدروز :

١ ميزان الزمان للاب بيرهمرع اليسوعي – ٢ اباطيل العالم للاب ويدكر اليسوعي – ٣ مرشد الخاطئ للاب لويس دي غرناد اليسوعي – ٤ مرشد الكاهن ٥ قوت النفس – ٦ مرشد المسيحيين – ٧ التأمل الاسبوعي – ٨ التعليم المسيحي – ٩ تعبير السعات ١٠ مزامير داود مترجماً عن اليونانية – ١١ النبوات – ١٢ الاحبيل والرسائل – ١٣ الدويهيات تأليف وردريكاز .

وهذه هي المخطوطات المحفوظة في الدير .

١ الاقتداء بالمسيح – ٢ بستان الرهبان – ٣ علم النية تأليف بوزامبوم ٤ مراعظ سنيري – ٧ قواعد النواميس لكلود فرمتير ٨ محادلات الانبا جرجس – ٩ لمنطق ترجمه من اللاتينية احد افراد الصنعة المارونية – ١٠ رد الالباب لبولس الارميري اليهودي الاصل المرتد الى المسيحية – ١١ المطالب والمباحث للمطران جرمانوس فرحات – ١٢ ديوان الخوري نقولا ابن ام عبدالله زاخر – ١٣ مختصر القاموس .

جميع هذه الكتب خطها المسيحيون ، والمسوق منها بنجمة الحث باللغة العربية . اما الكتب الآتي بيانها فالفها المسلمون :

١ القرآن – ٢ قاموس الفيروزبادي – ٣ الفية ابن مالك – ٤ تعبير الف بيت – ٥ الاجرومية – ٦ التفتزاني – ٧ مقامات الحريري – ٨ ديوان عمر بن الفارض – ٩ فقه اللغة – ١٠ الطب لابن سينا – ١١ المفردات ترجمة ابن البيطار – ١٢ دعوات الاطباء – ١٣ تبرات المتكلمين – ١٤ التدبير الوحيد – ١٥ تاريخ اليهود ليوسيفوس (ترجمة سنة) . وايضاً كتب في علم الفلك ، وكتب اخرى لا فائدة منها .

تلك هي مجموعة خزانة دير مار يوحنا ، ومنها يمكن ان نعرف مستوى

الثقافة في جميع الكنائس السورية ، حيث لا يوجد سوى هذه القراءة وقراءة اخرى . ولم يكن بين مخطوطاتنا ما هو جدير بالترجمة من حيث مضمونه ، حتى ان مقامات الحريري لا اهمية لها الا من حيث لغتها ، وليس بين الرهبان من يستطيع فهمها سوى راهب واحد ، كما ان باقي مخطوطات يتعذر فهمها على معظم الرهبان .

وفي نظام هذا الدير واخلاق سكانه شيء من الغرابة يجدر بنا ذكره . فقانون رهبانيتهم هو قانون القديس باسيليوس الذي معرفته عند الشرقيين مثل معرفة القديس بندكتوس عند الغربيين ، غير انهم قد ادخلوا على قانونهم بعض التعديل لجعله ملائماً حاجاتهم . وقد رفعوه في اواسط القرن الثامن عشر الى الحبر الاعظم ، فوافق عليه .

وفي استطاعتهم ان ينذروا نذورهم ابتداء من السنة السادسة عشرة من عمرهم ، اذ واضعو القوانين الرهبانية قد قرروا التأخر في دعوة الذين يستميلونهم منذ حداثتهم لكي يحفظوها حسب طريقتهم . وتلك النذور لا تختلف عما هي عليه في اي مكان آخر ، فهي الفقر والطاعة والتضحية والعفة ، غير انهم يحافظون عليها في هذه البلاد اكثر مما يحافظون عليها في اوروبة .

وحالة رهبان الشرق هي اذاً اصعب من حالة الرهبان الغربيين ، كما تدل على ذلك طريقة معيشتهم ، فانهم يقضون في اليوم الواحد سبع ساعات في الصلاة من غير ان يُعفى منها احد . وينهضون في الساعة الرابعة صباحاً ، ويرقدون في الساعة التاسعة مساء ، ولا يأكلون في يومهم الا اكلتين ، الواحدة في الساعة التاسعة ، والاخرى في الساعة الخامسة . وينقطعون دوماً من اكل الزفر ، حتى انهم لا يأكلون اللحم في امراضهم الكبرى . ويصومون كباقي الروم ثلاثة صيامات كبيرة في السنة . وهناك عدة صيامات اخرى لا يأكلون

في خلاله بيضاً ولا حليباً ولا جبناً . ويعيشون الاكثر من السنة على العدس المطبوخ بالزيت . وعلى الفول والارز المطبوخ في السمن ، وعلى الخل والزيتون ، وشيء من السمك المقدد . وحين يصومون صوماً حقيقياً ، في الاحتفال ، يجب ثاني يوم عيد ، مع انهم لا يجرون الامرة في الاسبوع . ثم يزعمون ان مثل هذه الاغذية يتحصنون الامراض التي تعتري الفلاحين .

ولكل واحد منهم حجرة صغيرة ليس فيها من الاثاث سوى حصيرة وفراش وغطاء . وليسوا في حاجة الى اكثر من ذلك لانهم ينامون وثيابهم عليهم . واما لباسهم فهو قميص عريض ، وسروال وقميص داخلي وقباء من الصوف الخشن الذي لا يبلى ... ثم يدعون شعر رؤوسهم يطول حتى يبلغ ثماني اصابع ، على حسب عادة السكان . ويلبسون قلنسوة من اللباد كالتي يلبسها فرسان الاتراك طولها عشر اصابع .

وكل منهم ما عدا الرئيس ونائبه ووكيل الخرج ، يتعاطى مهنة من المهن اللازمة والمفيدة للدير ، فمنهم الحائك ، والخياط ، وصانع الاحذية ، والـ ... وطباخان ، واربعة يقومون باشغال مختلفة ، و ... يتعاطون الكتابة ، وجميعهم يشتغلون في الصحن يوم الخبز .

ونفقات هؤلاء الاربعين او الخمسة والاربعين لا تزيد على اثني عشر كيساً في السنة ، اي ما يساوي ستة آلاف قرش ، ... كثيراً ما تعود بركاتهم على الدير ... التي تؤلف قسماً من دخله . واما الجانب الآخر فانه يوجد من ريع الاراضي التي اكتراها الرهبان من ... اربع مئة قرش في السنة

وتلك الاراضي تقوم بحرثها ... واما الآخرون ... وزراعتها يقوم بها فلاحون يحصدون الدير نصف محصولها ، وهو حب الابيض والاصفر

الذي يبيعونه في بيروت ، وبعض الحبوب ، والخمر التي لا سوق لها هنالك ، فيهدونها الى المحسنين الى الدير ، او يشربونها هم . وكان الرهبان فيما مضى يمتنعون عن شربها . ولكن انقياداً لما يطرأ عادة من التحويل والتبديل على اي جمعية كانت ، قد خفف الرهبان من غلوهم الاول ، كما انهم بدأوا يتساهلون في تدخين التبغ ، وشرب القهوة ، غير ملتفتين الى احتجاج الرهبان القدماء الحريصين على صيانة التقاليد التي تقيدوا بها منذ حداثتهم .

ان ذات هذا النظام تتبعه اديرة الاثني عشر الخاصة بتلك الرهبانية التي عدد افرادها نحو مئة وخمسين . ويجب ان نضيف اليها خمسة ديورة للراهبات . فان الرؤساء الاولين ظنوا انهم صنعوا حسناً بانشائها . وقد اسف الرهبان بعدئذ على ما فعله اسلافهم ، اذ وجود راهبات في هذه البلاد لا يخلو من الخطر . ثم انهن ينفقن اكثر من دخلهن . بيد ان الرهبان لا يجرؤون على تسريحهن ، لانهن ينتمين الى اغنى الاسر في دمشق وحلب والقاهرة . وتلك الاسر ترسل بناتهن الى تلك الديورة ومعهن مهورهن .

وكثيرون يهبون الدير كل سنة مئة قرش ، حتى مئة ليرة ذهباً او الف ريال ، ولا يطلبون عوض ذلك سوى الصلاة على نيتهم لكي يبعد الله عنهم طمع الحكام . مع ان ذلك لا يمنع الحكام من اكراههم على استنفاذ نقودهم بالمال اذا ما رأوا افراطهم في اللباس الانيق والرياش الفاخر . وقد روي ان احدهم بنى في دمشق داراً نفقت بنفقات مئة وعشرين الف قرش . فما علم بها الحاكم بعث اليه يقول : ارغب في ان اراها واشرب القهوة عندك . ولكن ما ان الحاكم اعجب بها وهو لم يرحل عنها الا بعدما دفع اليه صاحبها عشرة آلاف ريال .

ومن الديارات الاكثر شهرة دير المخلص المقام على بقعة تبعد مسير ثلاث

ساعات عن صيدا شمالاً شرق . وكان رهبانه قد جمعوا فيه كثيراً من الكتب العربية من مطبوعة ومخطوطة غير ان عساكر الجزار أتلفوا بعضها ، وبددوا البعض الآخر عندما شنوا الغارة على هذا الصقع واقتحموا الدير .

وصيدا الآنفة الذكر هي صورة صيدون القديمة ، لكنها صورة لا تطابق الاصل . وكانت فيما مضى مقر الباشا الحاكم ؛ وهي كسائر المدن الشرقية سيئة البناء ، وملأى اقذاراً ؛ وتشغل على شاطئ البحر بقعة من الارض طولها نحو ستمئة قدم بعرض مئة وخمسين وفي طرفها الى الجنوب حيث تعلو قليلاً ، اقام دنكرلي الذي مر بنا ذكره حصناً يشرف على البحر والبر والمدينة .

وفي طرف المدينة الآخر ، شمالاً بغرب ، قلعة مشيدة في وسط البحر تبعد ثمانين قدماً من البر المتصلة به بأقواس . والى جانبها مرّ صخرة بارزة فوق الماء طولها مئتا قدم ؛ فترسو السفن في المسافة التي ما بين الصخرة والقلعة . فذلك هو المرفأ ، لكنه لا يقي السفن الارياح اذا هبت ، والعواصف اذا ثارت . وعلى الشاطئ بإزاء المدينة حوض محوّط برصيف خرب ؛ فحيث كان المرفأ فيما مضى ، لكن الرمال تراكمت فيه ، فلم تعد المراكب تستطيع دخوله .

هو الامير فخر الدين الذي اقدم على ردم جميع تلك المرافئ الصغيرة ، لانه كان يخشى السفن التركية ، لاجل ذلك ، اغرق فيها مراكب وردمها تماماً ؛ فلو نُظّف هذا الحوض ، وازيل منه الردم ، لاستوعب خمسة وعشرين مركباً .

ما من سور يصون المدينة من جهة البحر ، ولا يكتنفها من جهة البر الا حائط السجن . ثم ان مدافعها الستة التي في قلعتها ، لا « قنادق » او قواعد لها ؛ وليس هنالك من يعرف طريقة استعمالها وعدد رجال حامية المدينة

اقل من مئة . ويأتيها الماء في مجارٍ مكشوفة تردها النساء ، ومنها ترتوي بساتين التوت وحدائق الليمون .

والتجارة هناك لا بأس فيها ، لان المدينة هي البندر الاول لدمشق والبلاد الداخلية . والاجانب المقيمون فيها جميعهم فرنسيون ، لهم فيها قنصل وخمس او ست وكالات ، فيتاجرون بالحرير والقطن المغزول او الغير المغزول . وغزل القطن اهم الصنائع التي يتعاطاها سكان صيدا البالغ عددهم نحو خمسة آلاف .

وبعد مسير ستة فراسخ الى الجنوب بموازاة البحر ، يصل المسافر الى قرية[*] صور التي كانت في سالف العصور محور تجارة وملاحة عالميتين ، ومهد العلوم والفنون ، وموطن اشهر وانشط شعب مشى على وجه البسيطة . وهي تقع على بقعة شبه جزيرة متوغلة في البحر على شكل مطرقة ، رأسها صخر تغشيه تربة حمراء تصلح للزراعة ، مكونة سهلاً صغيراً طوله ثماني مئة قدم ، وعرضه اربع مئة . والبرزخ الذي يصل السهل بالبر ، مكون من رمال البحر . والفرق ما بين السهل والبرزخ يجعلنا نتصور ما كانت عليه الجزيرة البيضوية الشكل قبل ان يصلها الاسكندر بالساحل بواسطة رصيف ، فالبحر يقذف الرمال على الرصيف حتى صار على شكله الراهن .

والقرية ذاتها قائمة على الرملة التي ما بين البرزخ والجزيرة ، غير شاغلة منها سوى ثلثها . فالطرف البارز من الارض شمالاً فيه حوض ، وهو الذي كان في الاصل المرفأ ، قد تراكمت فيه الرمال حتى صار الاحداث يخوضونه من غير ان تبتل احقاؤهم . وعند مدخله برجان متقابلان ، كانوا يعلقون بهما سلسلة

(*) كان سكانها على زمان « فولني » لا يزيد عددهم على خمسين او ستين اسرة لذلك تراه يدعوها « قرية » .

عرضها خمسون او ستون قدماً ليمنعوا المراكب من دخوله ، وكان يمتد منها جدار بطول الحوض من جهة البحر ، ويحدق من ثم بالجزيرة كلها ؛ ولم يبق الآن منه سوى اساسه الممتد على الشاطئ الى نقطة قريبة من المرفأ حيث قام المتاولة في العقد السابع للقرن الثامن عشر ببعض الترميمات التي اخذت الآن تنهار .

وفي وسط البحر على مسافة ثلاث مئة قدم من الطرف البارز الآنف ذكره ، يُرى شمالاً بغرب صف من الصخور . ففي الفرجة التي بينها وبين الشاطئ ، تجد السفن ملجأ يحصل على مرفأ جيد ، ولو انها لا تكون فيه بأمن من الاخطار ، لان الريح الشمالية تعصف هنالك بشدة ، كما ان قعر البحر يُتلف حبال المراسي .

واذا دخلنا الجزيرة المشار اليها ، رأينا ان القرويين تركوا جانباً منها فضاء ، وهو المطل على البحر من الشمال ، فقد جعلوه بستاناً ، لكن اعتناءهم به ضئيل . ويقيم في هذه القرية خمسون او ستون اسرة يتعاطى افرادها الملاحة وصيد الاسماك . وشتان ما بين اكواخهم الحقيرة المتداعية والبيوت ذات الطبقات الثلاث التي كانت هنالك في عصر « سترابون » .

وكانت القرية معرَّضة للغارات . والمتاولة الذين استولوا عليها في سنة ١٧٦٦ احاطوها بسور علوه عشرون قدماً . ومما يستدعي الانتباه كنيسة لم يبقَ منها سوى الخورس ، وهي من آثار الصليبيين . وعلى مقربة منها ، في وسط كوم من الحجارة عمودان جميلان من الصوان الاحمر النادر الوجود في سورية . والجزار الذي اخذ من هذه الاماكن ما كان فيها ، ليزين به الجامع الذي بناه في عكا ، رغب في نقلهما . غير ان رجاله لم يستطيعوا زحزحتهما من مكانهما .

وعلى مسافة مئة قدم من باب القرية، برج خرب فيه بئر تردها النساء، عمقها نحو خمس عشرة قدماً. على ان الماء فيه لا يزيد ارتفاعه على قدمين او ثلاث اقدام، وليس افضل منه في سائر انحاء ذلك الساحل. ومن الغريب انه يتعكر في شهر ايلول، ويظل بضعة ايام احمر من كثرة التراب الحمراوي الممزوج به، فيحتفل القرويون بالحادث احتفالاً رائعاً، فيأتون البئر، ويلقون فيها دلواً من ماء البحر، زاعمين انه يروق ماءها.

واذا تابعنا سيرنا على الجدول، متجهين نحو البر، رأينا بين مسافة ومسافة اقواساً متهدمة تتتابع في خط مستقيم حتى تل طبيعي وهو الوحيد في ذلك السهل، ومكوّن من صخرة طول دائرها نحو مئة وخمسين قدماً، ليس عليها سوى بيت واحد خرب ومقام لاحد الاولياء تعلوه قبة بيضاء. والمسافة التي ما بين الصخرة وقرية صور يقطعها الفارس في ربع ساعة من الزمان. وكلما دنا المسافر من الصخرة توالت امامه الاقواس التي اشرنا اليها وتتضاءل عاليها شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطاً متتابعاً، ينعطف فجأة الى الجنوب على شكل زاوية قائمة، ثم يسير بانحراف في وسط الحقول الى ان يصل الى البحر. وتلك المسافة يقطعها الخيال في ساعة من الزمن.

واما الغاية من تلك الاقواس فهي جلب الماء. فالمثعب الذي عليها والذي عرضه ثلاث اقدام وعمقه قدمان ونصف القدم، وهو مبني بملاط اصلب من الحجر، ومتصل آخره آبار ثلاثة يدعوها بعض الرحالة «آبار سليمان» ويدعوها القرويون «رأس العين» احداها كبيرة، واثنتان اصغر منها، وعلى مقربة عدة آبار أُخر صغيرة، مكونة جميعها كتلة من البناء الشديد مجصص بالحجر والملاط ارتفاعه ثماني عشرة قدماً في الجنوب، وخمس عشرة في الشمال بانحدار خفيف الميل عريضه، تصعد المركبة عليه بسهولة حتى قمته، التي اذا ما بلغ اليها المرء، رأى منظراً مدهشاً

رأى الماء بدلاً من ان يكون منخفضاً عن الارض او متساوياً لها ، يرتفع أعلى من سطح المكان ، اي ان الماء الذي يملأ البئر أعلى من الارض بخمس عشرة قدماً ؛ وهو ليس هادئاً ، بل يشبه سيلاً فائراً مدهشاً ، فينحدر الى المناصب التي على سطح البئر ، وهو غزير كاف لادارة ارحاء الثلاثة الطواحين الواقعة على مقربة ؛ ويؤلف من ثم غديراً يصب في البحر على مسافة اربعمئة قدم

وفوهة البئر الكروي مثمنة الزوايا طول كل منها ثلاث وعشرون قدماً وثلاث اصابع ؛ وقطر الفوهة ، هو اذاً حدى وستون قدماً ؛ ويزعمون ان هذه البئر لا قرار لها ، بيد ان الرحالة « لاروك » يروي انهم وجدوا عمقها في زمانه ستة وثلاثين باعاً .

وكما يبدت النظر ان مورد الماء قرض جانب البئر الداخلي الذي صار شبه نصف قوس معقود فوق الماء .

واكبر واحد من المجاري المشعبة هنالك يتصل بشعب الاقواس المشار اليها ، وكان الماء ينحدر منه قديماً الى الصخرة المرتفعة من طريق الجسر ، وهو المجرى الذي ترد النساء بقربه .

والسهل عرضه فرسخان ، تحف به تلال عالية ، تمتد من القاصرة حتى الرأس الابيض ، وهو ذو تربة جيدة سوداء .

ومدينة عكا المشهورة في قديم الزمان باسم « بتولمايس » لا تبعد عن صور سوى تسعة فراسخ ؛ وهي تقع في الزاوية الشمالية لخليج يمتد حتى الطرف البارز من جبل الكرمل .

ومنذ ما رحل الصليبيون عنها تضاءل شأنها ، وقلّ عدد سكانها على ان الترميمات والاعمال العمرانية التي اجراها فيها الشيخ ظاهر العمر عادت بالحياة اليها . وقد جعلها الجزار من بعده اعظم مدائن الساحل ؛ فبنى فيها جامعاً جميلاً ،

وسوقا مسقوفة لا تقل شأنا عن سوق حلب ذاتها . ومما يجب ذكره عن الجزار بالثناء انه وضع هو نفسه تصميم تلك البنايات ، فكان يدرس مشاريعها ويرسم خططها ، ويشرف على بنائها .

ومرفأ عكا هو من حيث موقعه احسن مرافئ ذلك الساحل والمدينة ذاتها تقيه شر الارياح الشمالية . غير انه ظل مردوما منذ عهد الامير فخر الدين ، ولم يحدث فيه الجزار بعدئذ سوى موردة .

والحصن الذي هناك لا فائدة منه . ولو انه معتنى به اكثر من سائر الحصون الاخرى ، وليس فيه سوى ابراج لا خير فيها ، ركبوا عليها مدافع ، لكنها صدئة رديئة ، ان أُطلقت انفجرت . والسور الذي من جهة البر ان هو الا جدار ، لا خندق له ، فهو يماثل اسوار الحدائق والبساتين .

وسهل عكا اكثر اتساعاً واقل عرضاً من سهل صور ، تحدق به تلال تتتابع من الرأس الابيض حتى الكرمل . ومنخفضاته تحملها مياه الامطار التي تتجمع فيها ، مناقع خطرة ، تتصعد منها في فصل الصيف الابخرة المنتنة . واما تربته فهي تصلح لزراعة القمح والقطن ، وهما اساس تجارة عكا .

وقد اتبع الجزار اسلوباً راجحاً في الشرق ، هو احتكار التجارة فما من احد يستطيع بيع او شراء القطن سواه . وعبثاً حاول التجار الاوربيون الاحتجاج على ذلك باستنادهم الى الامتيازات التي منحهم اياها السلطان ، فكان يجيبهم : انا السلطان في بلادي . لذلك لم يعبأ بهم . وهؤلاء التجار معظمهم فرنسيون ، لهم في عكا قنصل وست وكالات .

والجانب من خليج عكا حيث ترسو السفن يقع الى شمال جبل الكرمل عند اسفل المدينة حيفا . وقعره تثبت فيه المراسي من غير ان تنصرم حبالها . لكن المكان معرّض للريح الشمالية . وجبل الكرمل الذي يشرف على ما حوله ،

له ظهر مسطح صخري، يُرى عليه الى جنب الوسج، الزيتون والكرمة البرية مما يدل على ان الزراعة امتدت في سالف الزمان الى هذا المكان. وعلى قنته معبد مكرس لايليا النبي. والى الجنوب سلسلة صخرية، ينمو على ذراها البطم والصنوبر، ويختلف اليها النمر والعلوف.

وعلى مسافة ستة فراسخ بلدة الناصرة ذات الشهرة العالية، سكانها ثلثهم مسلمون، والثلثان مسيحيون. وللآباء الفرنسيسيين فيها نزل ومعبد وهم عادة ملتزمو البلدة.

وجبل الطور او طابور الذي يبعد فرسخين عن الناصرة، له شكل مخروط مبتور الرأس. وكان عليه قلاع لم يبقَ منها الا واحدة خربة. ومن اعلاه يمتد البصر الى جبال وأودية تتتابع جنوباً حتى بيت المقدس. ويُخيل الى الناظر من عليه ان وادي الاردن وبحيرة طبرية، التي حوضها مكوَّن من فوهة بركان، يقعان عند سفحه.

لا شيء مما على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا خليق بالذكر ما عدا المدينة المكناة باسم البحيرة نفسها، وعين الماء الحارّ التي تقع على بعد فرسخ منها. وقد تراكم فيها وحل اسود، وهو دواء نافع في الامراض العصبية. واما المدينة فليست سوى كوم انقاض تقيم فيها نحو مئة اسرة.

وعلى مسافة سبعة فراسخ من البحيرة نحو الشمال، قرية صفد الواقعة على مسطح جبل. وتعدّ صفد مهدَ السلطة التي توصل الى احرازها الشيخ ظاهر العمر. وكان فيها معهد لتعليم الصرف والنحو والفقه وتفسير القرآن. واليهود الذين يعتقدون ان مسيحهم سيجعلها قاعدة ملكه، رغبوا في سكناها، فاستوطنها خمسون او ستون اسرة منهم. غير ان الزلزلة التي حدثت في سنة ١٧٥٩ تركتها خراباً. والاتراك الذين يتشاءمون منها قد اهملوها،

فصـارت قرية لا شأن لها .

واذا غادرنا صفد ، واتجهنا شمالاً ، صادفنا سلسلة جبال عالية ، تدعى « جبل الشيخ » ينبع منها نهر الاردن وجداول اخرى . والمكان المنبعث منه يدعى « حاصبيا » ، كان متولياً عليها في اواخر القرن الثامن عشر احد امراء الاسرة الشهابية ؛ وكان يؤدي الى « الجزار » ضريبة سنوية تقدرها ستون كيساً . والارض هناك وعرة تشبه ارض جبل لبنان الاسفل . والجبال الممتدة بطول وادي البقاع ، تدعى لبنان الشرقي ، لانها موازية للبنان بحروز والموازنة . ووادي البقاع الفاصل بينهما كان يدعى قديماً « سوريا المجوفة » لموقعه المنخفض الذي تنحدر اليه مياه الجبال يجعله من اخصب الاراضي السورية . والقيظ فيه شديد الوطأة ، ويشبه بمصر من هذا القبيل ؛ غير انه طيب الهواء ، وليس فيه مياه راكدة . والعربيون ينامون على سطوح بيوتهم ولا ينالهم ضرر . وقبل زلزلة سنة ١٧٥٩ ، كانت تلك الاماكن كثيرة القرى ، وسكانها متآلفة . ولكن الاضرار التي احدثتها الزلزلة ، والحروب التي نشبت بعدئذ بين السكان والاتراك ، تركتها قفراً صفصفاً ؛ والمكان الوحيد فيها الذي يسترعي الانتباه ، مدينة بعلبك .

ان بعلبك الشهيرة عند الرومان واليونان باسم « هليوبوليس » اي مدينة الشمس ، مبنية على سفح لبنان الشرقي ، عند طرف الجبل الذي يليه السهل . ومن يسير اليها من الجنوب ، يراها من مسافة فرسخ ونصف الفرسخ ، وراء ادواح الجوز الرائعة التي تمتد مسير ساعة من الزمن ؛ تعلوها قمم وآذن بيضاء ، وتليها جنائن تتخللها طرق ضيقة عوجاء مؤدية الى المدينة . واول ما يقع النظر عليه هناك جدار خرب على حوافيه ابراج مربعة .

فذلك الجدار الذي لا يزيد علوه على اثني عشرة قدماً ، يتسلق من الجهة

اليمنى للقلعة ، فيحدق بأبنية القلعة ، من غربها يحجب ما وراءه من الارض الخلاء ، والاروقة والاعمدة ، والسقف العظيم الذي يدل جداره العالي ، واعمدته المزخرفة ، على انه احد تلك الهياكل التي تركها لنا الاقدمون ، ليشيدوا بها اعمالنا . فهو احسن البنايات القديمة قاطبة ، واكثرها صيانة ولو ان جانباً كبيراً منه تناوله الخراب بفعل اضطرابات الطبيعة ، وتوالي الحدثان ، وجهل السكان (١) .

ومن الغريب ان مؤرخي اليونان والرومان لم يذكروا الا شيئاً يسيراً من هذا الهيكل . والرحالة « وود » قد بحث في كتب الاقدمين عن اصل منشئها ، فلم يجد فيها الا ما قاله يوحنا الانطاكي من ان بانيه هو القيصر انطونينوس الورع . وقوله هذا تؤيده الادلة ، كشدة التنوع في النحت مع استعمال الطراز الكورنثي في عمارته ، وهو الطراز الذي لم يبلغ درجة الاتقان الا في الحقبة الثالثة لمدينة روما . ولا يجب ان لا نعد برهاناً على ذلك العقاب الذي نقش على عتبة احد ابواب الهيكل ، ذا المنقار الاعقف ، والمخالب

---

(١) وصف فولني سوريا [illegible] هذا الاثر العظيم [illegible] ان « روبرت وود » و « داوكنس » [illegible] وصفه [illegible] زارا بعلبك وتدبرا سنة ١٧٥١ ونشرا بعد [illegible] كتاباً [illegible] ووصفاً دقيقاً لذلك الاثر المحبوب . وفولني [illegible] عليه من هذا [illegible] على من يريد التعمق في درس اصول الفن [illegible] بعلبك [illegible] المحفوظة نسخة منه في [illegible] الوطنية . والكتاب [illegible] الوجود [illegible] وقد لاحظ فولني انه طرأ بعض التغيير على حالة الهيكل بعد [illegible] من الاعمدة [illegible] كبيرة [illegible] وعشرين صغيرة ، واما هو [illegible] لم يجد منتصباً سوى [illegible] الاعمدة كبيرة ، وعشرين صغيرة . [illegible] الاعمدة [illegible] سنة ١٧٥٩ كانت قد اسقطتها .

الكبيرة القابضة على شيء له شكل طير . فقنبرته التي تشبه قنبرة البعض من طير الحمام ، تدل على انه ليس بالنسر الروماني ؛ وذات صورته ترى في هيكل تدمر ، لاجل ذلك يرجح ان يكون الطائر المشار اليه نسراً شرقياً مكرّساً للشمس التي هي إلاهة هذين الهيكلين .

فبعلبك عبدت الشمس منذ اقدم العصور ، وتمثالها الذي يشبه « اوزيريس » جيء به من مدينة « هليوبوليس » مصر ، ويعتقد « رود » المار ذكره ان كلمة « بعلبك » تعني مدينة الشمس ، واليونان بتسميتهم اياها « هليوبوليس » فعلوا ما فعلوه غير مرة ، اي انهم نقلوا اسمها الى لغتهم مترجماً .

واما سكان تلك البلاد فيزعمون ان الجانّ اقاموا هذا الهيكل طوعاً لأوامر الملك سليمان ؛ ويزعمون ان الغاية منه اخفاء الكنوز العظيمة التي يعتقدون انها ما زالت موجودة في اسفل البناية . والكثيرون منهم نزلوا الى اقبيتها للبحث عما دفن فيها . غير ان اخفاقهم في بحثهم ، وما نالهم من عسف الحكام من جرآء ذلك اكرهاهم على الكف عن مواصلة التنقيب .

والاساطير التي يتناقلونها في شأن سليمان الملك ، تحملنا على التفكير في ثلاثة امور مهمة وهي :

اولاً — معظم ما يرويه النقل من العصور الخوالي ، لا كبير صحة له فان الحوادث التي جرت منذ مئة سنة فقط ، ولم تكن قد سُجلت عند وقوعها ، طرأ عليها المسخ والتحريف .

ثانياً — ينسب الاسلام واليهود والنصارى الى الملك سليمان جميع البنايات القديمة العظيمة ، ليس لان النقل يشير الى ذلك ، بل لانهم يرون في تفسيرهم لبعض آيات العهد العتيق ما يحملهم الى مثل هذا الزعم . فالعهدان القديم والجديد هما مصدر النقل باجمعه ، لانهما الكتابان التاريخيان اللذان يعرفها

ويقرأها جمهور الناس هنالك . وبما ان معظم الذين يفسرونها اميّون ، فما يشرحونه منها هو في غالب الاحيان غير مصيب .

ثالثاً . واما يقينهم بوجود كنوز مدفونة فقد أيّدته الوقائع ؛ فانهم عثروا في مدينة الخليل منذ بضع سنين على صندوق مملوء فضة وذهباً ، وفي بلاد الدروز اكتشفوا جرة فيها نقود من ذهب . وبما ان الحكام يدّعون ان لهم الحق في امتلاك ما هو مدفون في الارض ، فالذي يسعدهم الحظ بوجود شيء من هذا القبيل ، يكتمون امره ، فلا يعلم به احد ، فيطمرونه او يبعدونه الى الخارج ، خوفهم من الولاة ، وهو نفس الخوف الذي حدا فيما مضى اصحابه الى اخفائه .

ولسنا نعرف ما هي الحالة التي كانت عليها تلك المدينة في قديم الزمان وانما نعتقد ان وقوعها على الطريق التي ما بين تدمر وصور ، جعل لها حصة لا يستهان بها من تجارة هاتين المدينتين العظيمتين . وكانت تقيم فيها فرقة من الجنود الرومانيين في عصر انطونيوس قيصر ، اذ انه منقوش بحروف يونانية على جدار الباب الجنوبي (Kenturia Pr ma) اي فرقة المئة الاولى .

وبعد مئة واربعين سنة بنى انطونيوس الهيكل الحالي بدل القديم الذي كان متداعياً . ولما انتشرت الديانة المسيحية في عصر قسطنطين ، أُهمل شأن الهيكل الجديد الذي جعل بعدئذ كنيسة ، بقي منها الجدار الذي يفصل المعبد من الصحن ، وظلّ على حاله حتى الفتح العربي . وقد اوصدت الكنيسة ابوابها عندما انقطع الناس عن الاختلاف اليها . ولما توالت بعدئذ الحروب ، جُعل المكان حصناً . غير ان الخراب ما عتم ان استولى على الهيكل بعدما ساءت حالته من جراء صروف الزمان وتعاقب الحدثان .

والمدينة نفسها ليست احسن حالاً من الهيكل ؛ فان امراء آل حرفوش

انزلوا بها الاضرار الجسيمة ؛ وزلزال سنة ١٧٥٩ ، زادها خراباً ؛ والحروب التي دارت رحاها بين الجزار والامير يوسف ، اتت على آخر اثر من عمرانها . وبعد ما كان عدد سكانها في سنة ١٧٥٠ خمسة آلاف ، هبط الى الفين ومئتين في اواخر القرن الثامن عشر ، جميعهم فقراء ، لا صناعة لهم ، ولا تجارة عندهم ، وزراعتهم مقصورة على شيء من القطن والذرة والبطيخ . وتربة هذه النواحي قليلة الخصب ، كما هي ايضاً تربة الاراضي الممتدة منها الى الشمال او الى الجنوب الشرقي في اتجاه دمشق

٭ ٭ ٭

ولاية دمشق

هي الاخيرة من ولايات سورية الاربع؛ فانها تشمل الجانب السوري الشرقي بمعظمه، وهو الذي يقع في الشمال ما بين معرة النعمان على طريق حلب، ومدينة الخليل في الجنوب الشرقي لفلسطين؛ ويتبع خط حدوده غرباً جبال الصعيدية، ولبنان الشرقي، فالشطر الاعلى لمجرى نهر الاردن، مكتنفاً نابلس، وبيت المقدس، والجليل؛ ثم يمر شرقاً بالبادية متوغلاً فيها بقدر ما تمتد الفلاحة والزراعة في تلك الانحاء؛ بيد انه في الغالب لا يتجاوز الا يسيراً الجبال المار ذكرها ما عدا جهات تدمر الواقعة على مسافة خمسة ايام منها.

ففي تلك الاراضي الواسعة تبدت القرى والمحلات متماثلة، فسهول حوران والبقاع التي على ضفاف نهر العاصي هي الاخصب؛ فتعطي بكثرة القمح والشعير والذرة والسمسم والقطن. وتربة اراضي دمشق والبقاع الاعلى خصبة ضعيفة تلائم على الاخص التبغ والشجر المثمر. والاراضي الجبلية تصلح جميعها للزيتون والتوت والشجر المثمر والكرمة التي من عنبها الاحمر يصنع النصارى النبيذ، والمسلمون الزبيب.

ان حقوق صاحب هذه الولاية اوسع واعظم من حقوق غيره من الولاة؛ وهو ذو سلطة مطلقة، والملتزم العام، وامير الحج؛ والمسلمون يجلّون كثيراً هذه الرتبة، والذي تسند اليه، ويقوم بمهامها خير قيام؛ لا يستطيع احد ولو كان السلطان نفسه، ان يمسه بأذى.

والمال الذي يؤديه والي دمشق الى السلطان، لا يزيد على اربعة وخمسين كيساً. انما عليه ان يقوم بجميع نفقات الحج التي تبلغ ثلاثة ملايين قرش،

وهي ما ينفقه على شراء القمح والشعير والارز المعدّ لتموين « الجردة » وعلى اكتراء الجمال لنقل الجنود الذين يرافقون قفل الحجاج . وعليه ايضاً ان يدفع الى مشائخ البدو التي تمرّ القفل بمضاربها . ويعتاض مما ينفقه على هذا المنوال ، بالميري او ضريبة الارض التي يجبيها هو بنفسه ، او يعهد في جبايتها الى ملتزمين يختارهم . واما المكوس فلا شأن له بها ، والنظر في امرها للدفتردار الذي يدفع منها رواتب الانكشارية وحراس الحصون القائمة على طريق مكة .

ويرث الوالي الحجاج الذين يقضون نحبهم في اثناء السفر ، ودخله من ذلك لا يستهان به ، وقد اتضح ان الذين يموتون في الطريق هم عادة اغنى الحجاج . ويحق له علاوة على ذلك ان يقرض التجار والفلاحين المال بالربا ، وفي وسعه ايضاً ان يفرض على رعاياه من المغارم ما يشاء .

والجنود الذين تحت يده الفان ، او الفان وثلاثمئة ، من انكشارية ومغاربة ، ودلي باش او فرسان ؛ وهؤلاء الجنود الذين كانوا يعدونهم في سورية جيشاً كبيراً ، يفتقر اليهم الوالي ليس فقط لحراسة قوافل الحجاج ، ومعاقبة البدو المعتدين على المسافرين وغيرهم ، بل ايضاً لجباية الميري ، واجبار الرعية على الطاعة والاستكانة .

فكل سنة قبل قيام موكب الحج ثلاثة اشهر ، يطوف بصحبة جنوده في انحاء ولايته الواسعة لجمع الضرائب من المدن والقرى ، وطوافه قلما ينتهي بسلام ، لان الشعب الخامل يشعر انه رعية مهانة ، وان الوالي نفسه يعسفه ويظلمه ، فينتفض ويتمرد ولا يُجبى المال منه الا عنوة . وسكان نابلس ، وبيت لحم ، والخليل ، لهم من هذا القبيل شهرة اكسبتهم اعفاءات خاصة . بيد ان الدولة تأخذ منهم العوض اضعافاً عندما تسنح لها الفرص .

ان ولاية دمشق معرّضة اكثر من غيرها لغارات البدو ، لكنها من حيث العمران احسن حالاً من باقي الولايات ، اذ الباب العالي لا يعزل ولاتها بتواتر . وفي القرن الثامن عشر تقلد زمامها مدة خمسين سنة اسرة العظم الدمشقية الغنية التي اربعة من افرادها ، اي أب وثلاثة اخوة ، تناوبوا في تولي الحكم عليها ؛ وآخرهم اسعد باشا الذي مرّ ذكره في اثناء حديثنا عن الشيخ ظاهر العمر ، ظلّ والياً عليها خمس عشرة سنة ، قام في غضونها باعمال طيبة لا تعدّ ولا تحدّ . ومن اعماله الحميدة بشكل خاص وضعه نظاماً للجنود ، ردعهم به عن التعدي على الفلاحين ونهب اموالهم .

ان جمع المال كان يستغرقه على غرار سائر ارباب المناصب في الشرق ، لكنه لم يكن يدعه في خزائنه ، بل كان يقرضه بعائدة قدرها ستة في المئة وهي لعمري فائدة معتدلة . ويروون عنه انه احتاج ذات يوم الى بعض المال ؛ فالمرافقون أشاروا عليه بفرض غرامة على النصارى بحجة انهم قوم لا يستحقون الشفقة او المراعاة . فسألهم : ما هو المبلغ الذي يمكن جمعه من هؤلاء الناس . قالوا : خمسون او ستون كيساً . قال : لكنهم ليسوا باغنياء فيتعذر عليهم دفع مثل هذا البذل . قالوا : ليبيعوا حلى نسائهم . قال سأنظر في الامر ، لعلي اكون اوفر حيلة منكم .

ففي اليوم ذاته اوعز الى رجل عالي المقام أن يلاقيه سرّاً في هذا المساء . فلما جاءه قال له : علمت ان سيرتك في السرّ لا تحمد ؛ فأنت وزميل لك تشربان المسكر ، وترتكبان المنكر ، مخالفين ما انزله الله في كتابه الكريم . فتلك امور لا استطيع الاغضاء عنها ، وقد اضطرّ الى ابلاغها لمفتي الاستانة ؛ لكني قبل اقدامي على ذلك رغبت في انذارك ، لئلا تتهمني بأني اخذتك غدراً .

فلما سمع الرجل ذلك ، اعتراه خوف شديد ؛ وجعل يتضرع الى الباشا ليكتم الامر ، ويغض الطرف ؛ وعرض عليه الف قرش . غير ان الباشا لم يرضَ بها . فزاد الرجل المبلغ مثنى وثلاث ، وانتهى الامر باتفاقهما على ستة آلاف قرش وعلى اتفاقهما في طيّ الكتمان ما دار بينهما من الحديث .

وفي الغد دعا الباشا منصباً كبيراً آخر ، وحادثه كما حادث زميله من قبل متهماً اياه تهمة مغلظة توجب ضرب عنقه ؛ فخاف الرجل وسأله بالحاح ان يرفق بحاله ؛ وساومه كما ساومه زميله ؛ فاتفقا على مبلغ مماثل للاول . وهكذا عاد هذا الرجل وهو مغتبط لنجاته من الهلاك .

وجرى الامر نفسه مع رجل ثالث عالي المقام ، ومع آغا الانكشارية والمحاسب ، وبعض كبار التجار ؛ فكان يذكر لهم اموراً وذنوباً ارتكبوها في اثناء قيامهم بمهام مناصبهم ، او بتعاطي تجارتهم . فكانوا يبادرون الى استفداء نفوسهم على منوال من سبقهم .

فلما اجتمع لديه مبلغ كبير ، قال لاولئك المتزلفين : هل سمعتم في دمشق ان اسعد باشا يأخذ المال من الشعب قسراً ؟ قالوا : لا ، فقال : كيف اذاً توصلت الى جمع مثل هذا المال ؟ فسكتوا ولم يحيروا جواباً . ولما سألوه كيف تسنى له الحصول على مثل هذا المال ، اجابهم : « جززت النعاج ولم اعقر الحملان » .

وبعد حكم دام خمس عشرة سنة ، خرجت دمشق هذا الرجل على اثر مؤامرة يروون حكايتها كما يلي :

في السنة ١٧٥٥ نزل ضيفاً على اسعد باشا رجل من خصيان بلاط السلطان ، وهو في طريقه الى مكة . غير انه لم يسر بالمقابلة التي لقيها . فلدى عودته من الاقطار الحجازية ، لم يعرج على دمشق ، بل رجع من طريق غزة ؛ فحرض باشا الذي كان مستولياً عليها ، استغله حسن استغلال .

وبعد ما وصل المحصي الى الاستانة ، تذكر صنيع مضيفه ، وبكي يظهر ما يكنه من الحقد على اسعد باشا . ومن عرفان الجميل لحسين باشا ، سعى في الحاق الاذى بالاول ، واسداء الثاني عمله . فنجح في سعيه وتوصل الى حمل اولياء الشأن في الاستانة ، على فصل القدس عن ولاية دمشق وضمها الى الولاية العامل عليها حسين باشا . وبعد ذلك بسنة اسندت ولاية دمشق ذاتها الى حسين باشا .

لما نُحّي اسعد باشا عن منصبه انسحب الى العادية مع اهل بيته ، خوفاً من ان تنزل به نقمة اكبر . ثم جاء اوان الحج ، فحسين باشا سار في قافلة الحجاج الى مكة . ولما قفل راجعاً ، نشب نزاع بينه وبين البدو على مال طالبوه به . فهجمت عليه جموعهم وكسروا جنوده ، ونهبوا القفل بأسره وكان ذلك في سنة ١٧٥٧ .

فتلك الفاجعة كان لها صدى اليم في جميع انحاء البلاد العثمانية ، وتأثير مؤلم كالذي تحدثه الهزيمة بعد حرب ضروس . فذوو المنكوبين من الحجاج الذين هلكوا قتلاً او جوعاً او عطشاً ، واقرباء النساء العديدات اللواتي سُبين ، والتجار الذين نهبت اموالهم ، هؤلاء جميعهم طلبوا معاقبة امير الحج على جبنه والانتقام من البدو على اعتدائهم ذلك الفظيع .

فقلق الباب العالي مما حدث ، وحكم على حسين باشا بضرب عنقه ؛ لكن حسيناً توارى عن الانظار ، ولم يتوصلوا الى معرفة مخبئه . ومع ذلك ظل صهيره وصديقه الافرنجي يسعى لتبرئته ، فنجح في مسعاه بعد ثلاثة اشهر ، مصدراً رسالة نسبها الى اسعد باشا . فالحكم تحول صدوره على اسعد باشا ، بدلاً من حسين باشا ، وجعل اولياء الامر يترقبون الفرصة لتنفيذ الحكم .

واما ولاية دمشق فبقيت زمناً بلا والٍ ، وحسين الذي مقته الشعب ، لم

يستطيع العود اليها . والباب العالي الذي كان يرغب في محو العار الذي لحق به ، وتأمين طريق الحج ، عين على دمشق رجلاً غريب الاطوار ، له حكاية يجدر بنا ذكرها . ان هذا الرجل الذي يدعى عبدالله باشا الشتجي ، ولد في جوار بغداد من ابوين فقيرين . دخل منذ نعومة اظفاره الى خدمة الحكام ، وقضى سني شبابه الاولى في المعسكرات والحروب ، خائضاً جميع المعارك التي دارت رحاها بين الترك والفرس . ونظراً الى جسارته وبسالته ، ارتقى من رتبة الى رتبة اعلى منها ، الى ان اسندت اليه ولاية بغداد . فقام باعباء منصبه الخطير خير قيام ، فاستتبَّ الامن وسادت الطمأنينة . فالحياة العسكرية التي اعتادها جعلته في غنى عن النفقات الكبيرة . لاجل ذلك لم يندفع الى جمع المال .

غير ان اولياء الامر في الاستانة لم يرقهم اعتداله هذا ، بل استاؤوا منه ، واخذوا يتحينون الفرص لخلعه . فاتفق ذات يوم ان دخلت الخزينة اربعون الف قرش من تركة بعض التجار . ولما طالبوه بها ، اجابهم انه انفقها على رواتب الجيش المتأخرة ، ورغب اليهم في امهاله . لكن الصدر الاعظم الحَّ عليه في تأدية المال في الحال ، واوفد اليه مندوباً قبجياً ومعه خط شريف بضرب عنقه .

ولما وصل المندوب الى جوار مدينة بغداد ، تمارض وتظاهر بانه جاء التماساً للصحة . ورغب الى عبدالله باشا بان يسمح له بزيارته والسلام عليه . فعبدالله باشا الذي كان مُلماً باساليب الباب العالي ، ساوره الشك ، وامين خزينته الذي كان هو ايضاً خبيراً بتلك الاساليب ، ارتاب هو ايضاً من مظاهر العلة التي ابداها القبجي ، فاقترح ان يبحث في امتعته بينما يكون هو ورفاقه في حضرة الباشا . ووافقه عبدالله باشا على ذلك .

ففي الميعاد المضروب مضى امين الخزينة الى خيمة الخصيّ ، وبعد التفتيش والبحث الدقيق عثر على الخط الشريف في بطانة فرو ، فانطلق من ساعته الى عبدالله باشا ، ودفع اليه الرقيم السلطاني . فوضع عبدالله باشا الرقيم في ردنه ، وعاد الى الغرفة حيث كان الخصيّ ، واستأنف محادثته بكل هدوء ، قائلاً : كلما افكر في مجيئك الى بغداد ازداد دهشة فديننا بعيدة عن الاستانة ، وليست بعادية ، لذلك ارتاب في كونك جئتها طلباً للصحة . فاجابه الآغا : نعم ، وقد عهد الي ان اطلب منك في الوقت ذاته ان تدفع اليّ شيئاً من الاربعين الف قرش ، فقال الباشا لا بأس في ذلك . ولكن قل ايضاً انك جئت لضرب عنقي . وقد علمت انت مما يذاع عني اني رجل صادق لا يحنث بوعده ، فان صدقتني القول اطلقت سبيلك من غير ان ينالك ضرّ .

فحلف عندئذ الخصيّ يدافع عن نفسه بحديث طويل ، ويؤكد انه لم يضمر له شراً . فقال له عبدالله باشا : اقسم في برأسي انك تقول الحقيقة ، فطفق الخصي يبرئ نفسه من كل نية سيئة . فقال الباشا : احلف لي برأسك . لكن الرجل اصرّ على الانكار . فقال له عبدالله باشا : استحلفك برأس السلطان ، فحلف من الكذب .

فلما رأى ان الخصي لم يحد قيد شعرة عن اقواله السابقة ، قال : لقد حكمت انت على نفسك بالموت . ثم اخرج من ردنه الخط الشريف ، وقال : اتعرف ما في هذا الكاغد . اهكذا انتم تديرون دفة الحكم هناك ؟ فلستم سوى عصابة لصوص ، فلا تحسبون حساباً لحياة الذين لا يجاوزون رضاكم ، فتتجرأون على سفك دم خدم مولانا السلطان . ان الصدر الاعظم يروم ان يرى هامات معصولة ، فسيكون له ما يروم ، خذوا هذا الكلب ، واقطعوا رأسه ، وابعثوا به الى الاستانة .

ففي الحال اطاعوا امره . ورفقاء الآغا اطلق سبيلهم ؛ فعادوا ادراجهم ومعهم رأس الزنجي .

وكان في وسع عبدالله باشا ان يستفيد من حب الشعب له ، ويتمرد على الدولة . لكنه فضّل مغادرة بغداد ، والاقامة بين عشائر الاكراد . ثم جاءه عفو السلطان وهو هنالك ، والبراءة بتوليته على دمشق . وكان في منفاه قد اصابه الضجر واعتراه الملل ، كما ان المال كان قد فرغ من يده ؛ فرضي بالمنصب وسافر برفقة مئة من اتباعه .

ولدى وصوله الى تخوم ولاية دمشق ، علم ان اسعد باشا ضرب خيامه في مكان قريب . وكان يعرف ما له من الشهرة ، وانه اعظم رجل انجبته سورية . فرغب في ان يراه ؛ لاجل ذلك تنكّر ، واصطحب ستة فرسان ، وقصد خيمه ، وطلب مقابلته ؛ فادخلوه عليه بلا تكاليف ، عملاً بالعادة المألوفة في مضارب البادية . وبعد السلام وعبارات الترحيب ، قال له اسعد باشا : من اين اقبلتم واين تريدون ، اجابه عبدالله باشا : نحن ستة او سبعة فرسان اكراد نطلب عملاً . وقد سمعنا ان عبدالله الشتجي جاء دمشق فعزمنا ان نطرق بابه . وبما اننا علمنا ونحن في الطريق ، بان مضاربكم قريبة ، جئنا نطلب علفاً لخيلنا . فقال اسعد باشا : نعطيكم بطيبة خاطر ما تطلبون ؛ ولكن اتعرفون انتم الشتجي . اجابه عبدالله باشا : نعم ، فقال اسعد باشا كيف هو الرجل ، ايحب المال . اجاب عبدالله باشا : هو غريب الاطوار ؛ فلا المال يهمه ، ولا الفرو ، ولا اللآلئ ، ولا النساء . فهو لا يحب الا السلاح الطيب ، والجياد الكريمة ، والحرب الضروس ؛ ويحب العدل ، ويحمي الارملة واليتيم ، ويقرأ الكتاب الكريم ، ويعيش على السمن واللبن . فسأله اسعد باشا هل هو طاعن في السن . اجابه : اقلّ مما يبدو عليه ، اذ الشقاء

صيره شيخاً قبل الاوان . وقد جرح مراراً عديدة ، وعلى اثر ضربة سيف ، غدا يعرج من رجله اليسرى ، وضربة اخرى جعلت عنقه تميل الى كتفه اليمنى . قال عبدالله باشا ذلك ، وانتصب فجأة وقال : البس هذا ارصف طبق صورتي من رأسي الى اخمص قدمي » .

فلما سمع اسعد باشا هذا الكلام امتقع من شدة خوفه ، ظاناً ان ساعة هلاكه قد ازفت . بيد ان عبدالله باشا جلس وقال : ايطمئن بالك ، يا اخي ، اني لست برسول جاءك من كهف هؤلاء اللصوص . وما اتيت لاخونك ، فثق بي ، واذا استطعت ان اخدمك ، فاني لا اتوانى مطلقاً . فكلانا عدوان في نظر « دتنا » ، فقد رضوا عني واعادوني اليهم ، لانهم يريدون الاقتصاص من البدو ، فاذا ما تم لهم ما يريدون ، استأنفوا التفكير في قتلي . لكن الله كبير فيعمل ما يشاء » .

فذهب عبدالله باشا الى دمشق ، واعاد الى السكان الراحة والطمأنينة ، وردع العسكر من التعدي عليهم ، وسار في مقدمة الحج ، والسيف في يده ولم يؤذ نفساً واحدة الى البدو . وفي اثناء حكمه الذي دام سنتين كان العدل ناشراً لواءه على البلاد . « فكان الناس يناموت وابوابهم مفتوحة » هكذا يقول الدمشقيون حتى اليوم . وهو نفسه كان يتنكر متخذاً هيئة شحاذ ويطلع كل شيء بنفسه ، والاحكام التي كان يصدرها وهو متنكر كان لها المفعول الحسن . ويروون على سبيل المثال انه وصل الى القدس في طوافه فحذر رجاله من اغتصاب شيء من السكان . وقد حدث ذات يوم اذ كان يجول متخذاً شكل فقير وفي يده صحن عدس ، ان جندياً معه حزمة حطب ، قابله واجبره على حملها عنه ، فوضعها عبدالله باشا على ظهره ، وسار بها امام « الدلي باش » الذي كان يستنجده ، وهو يسب ويشتم . ولكن سرعان ما

عرفه احد الجنود ، ومضى الى زميله بالامر ؛ فما كان من صاحب حزمة الحطب الا ان لاذ بالفرار ، متطفلاً في الازقة . ولما خطا الباشا بضع خطوات ، ولم يعد يسمع صوت الجندي ، التفت ، فلم يره ، فاستاء من انه خلص من يده ، فالقى الحمل الى الارض ، وقال : يا له من لص لئيم . فقد فر آخذاً معه صحني واجرتي . غير ان امر الجندي لم يطل ، لان عبدالله باشا فاجأه بعد ايام قلائل اذ كان يسرق بعض البقول من بستان امرأة فقيرة ، ويبيع محاصيلها فضرب عنقه في الحال .

واما هو فبعد نجاته غير مرة من قتلة كانوا يترصدون به ، مات مسموماً بيد ابن اخيه . وقبل موته عرف من هو سامه ، فدعاه اليه وقال له : يا لك من شقي ، لقد غرتك الاشرار ، فدسست لي السم ، لتستولي على ما اتركه من بعدي . فمن وصيتي قبل موتي ان احجب املاك ، واعاقبك على فعلتك ، غير اني اعرف الاتراك ، فهم سيأخذون ثأري منك .

فكان الامر كما قال ، لان بعد موته ارسل الباب العالي مندوبا معه خط شريف بخنق ابن الاخ ، فخنق .

وبعد عبدالله باشا آل الحكم الى شاب ، عثمان ، فمحمد ، فدرويش ابن عثمان الذي تقلد الحكم في سنة ١٧٨٤ . فدرويش هذا لم يكن له شيء من مناقب ابيه ، ولم يرث منه سوى الميل الى الاستبداد . فهاك حادثاً جديراً بالذكر :

في شهر تشرين الثاني سنة ١٧٨٤ ، طلب من قرية واقعة على مقربة من دمشق ان تدفع ضريبة الميري ؛ فشيخ القرية ابرزوا الوثائق الدالة على ان الضرائب دفعوا جميع المال المستحق عليهم ؛ لذلك رفضوا دفعه ثانية ؛ فما كان من بعض الجنود الا انهم اكتسحوا القرية ليلاً ، وقتلوا واحداً وثلاثين رجلاً

من مكانها . فاستولى الذعر على القرويين المساكين فاخذوا هامات قتلاهم وجاءوا بها الى الوالي في دمشق ، وطلبوا منه انصافهم ، فاصغى درويش باشا الى شكواهم ، ثم اشار عليهم بدفن الهامات في الكنيسة الى ان يقوم بالبحث اللازم ، فمرت ثلاثة ايام ، ودفنت الهامات ، ولما ارادوا دفنها لم يستطيعوا نقلها من مكانها بدون اذن الباشا الذي لم يسمح بدفنها الا بعد اخذه منهم اربعين كيساً .

وفي السنة التي بعدها عُزل درويش باشا وحلّ محله احمد الجزار بعامل المال الوافر الذي بعث به الى اولياء الشأن في الاستانة . وقيل تأكيداً انه ابتغى السيطرة على ولاية حلب ايضاً . فلو نال ما صبا اليه ، لأضحى سيد سورية باجمعها ، واستطاع ان يثني عنها الطاعة ويتصرف في الحكم تصرف المستقلّ بامره .

بيد ان الدولة كانت مرتاحة البال من هذا القبيل ، ولو ان المشاكل التي نشبت قائمة بينها وبين روسية ، شغلتها عن الاهتمام بشؤون بلادها ، وتصرف عمالها فان خبرة واسعة علمتها ان لا بدّ لعصاة المتمردين من الوقوع ذات يوم في يدها مهما قويت شوكتهم وازدادت سطوتهم .

والجزار ايضاً مع ما كان عليه من دهاء ، وقوة عزيمة ، عرف حق المعرفة انه يعجز عن الشذوذ عن تلك القاعدة ، فلم يخطر قط على باله ان ينهض على الدولة ، بل اتبع الخطة التي سار عليها اسلافه ، فلم يهتمّ بمصلحة العامة الا بقدر ما كانت تعود عليه بالمنفعة . فالمسجد الذي اقامه في عكا لم يقدم على بنائه ، وينفق في سبيله مليوناً ومئتي الف قرش الا لانه كان يحب الظهور ، ويميل الى المباهاة . والسوق التي شيدها لا تنكر فائدتها ، مع انه كان يجب عليه قبل التفكير في احداث مكان تباع فيه الغلة ، ان يهتم بالارض التي

تغطيها ، فالزراعة على بعد غلوة من عكا كانت معدومة .

وكان ينفق اعظم جانب من ماله على حدائقه وحماماته ونسائه البيض اللاتي كان عددهن ثماني عشرة في السنة ١٧٨٤ ، وجميعهن يفرطن في التبذير والاسراف على تبرجهن .

وبعد طعنه في السن ، ودخول السآمة على نفسه ، اخذ جمع المال يستغويه ؛ فكان من جراء بخله ان نفر منه جنوده ، ومن جراء شراسته ان كثر اعداؤه حتى عائلته ذاته لا تخلو منهم ؛ فقد حاول اثنان من غلمانه اغتياله ، لكنه نجا من نار غدارتيهما . ولم يجن من ادخاره المال سوى اثارة طمع الباب العالي فيه ، ومقت الشعب له .

ولنتحدث الآن عن الاماكن الجديرة بالذكر التي في هذه الولاية ؛ فان اول مدينة تستوقف الانتباه دمشق نفسها ، قاعدة الولاية ، ومقر الولاة ، والعرب يدعونها الشام ؛ واما الاسم القديم « دمشق » فلم يكن يعرفه سوى اصحاب تقاويم البلدان .

تقع هذه المدينة في سهل مترامي الانحاء ، وهي مفتوحة على البادية من الشرق والجنوب ، ومحصورة شمالاً وغرباً بالجبال العالية حيث تتفجر الينابيع ، وتتدفق الجداول التي تجعل جنتها وغوطتها اخصب الاراضي السورية ، واوفرها رياً واروعها منظراً ؛ والعرب لا يذكرون دمشق الا بالثناء والاطراء معجبين بناظر بساتينها ، واخضرار حدائقها ، ووفرة ثمارها ، وكثرة غدرانها ، وصفاء مياهها .

غير ان التربة فيها حصبية ضعيفة حمراء لا تصلح لزراعة الحبوب ؛ بل تلائم كثيراً اشجاراً تعطي الذّ الاثمار .

وما من مدينة تضاهيها من حيث غزارة مياهها ، وكثرة سواقيها فلكل

نبت له فستقية ، وجميعها تتغذى من ثلاثة غدران ، او بالاحرى من ثلاثة فروع لنهر واحد يروي الجنائن والبساتين المنبسطة على ضفتيه بطول ثلاثة فراسخ ، ثم يتجمع في ارض منخفضة وضيقة في وسط البرية فيكون مستنقعاً واسعاً يدعونه بحيرة المرج .

وتعد دمشق من حيث موقعها احسن مدن تركية قاطبة ، لكن هواءها ليس في غاية النقاوة . والدمشقيون معرضون للامراض ، وبياض بشرتهم ليس الدليل على جودة الصحة ، واسرافهم في اكل الفواكه ، ولا سيما المشمش ، تنجم عنه في فصلي الصيف والخريف زحار وحميات .

وشكل المدينة مستطيل ، و « نيبور » الذي صور خططها في القرن الثامن عشر ، قدر انصافها بستة عشر الفاً وخمسمئة قدم مربعة ، باعتبار ان طول دائرها فرسخ ونصف الفرسخ . فكان عدد سكانها مئتين الفاً ، خمسة عشر الفاً منهم نصارى ، ثلثهم ارثوذكسيون .

والدمشقيون يعتقدون ان مدينتهم مقدسة ، لكونها باب الكعبة ففيها يجتمع الحجاج القادمون من مختلف الانحاء الشرقية ، كما يجتمع في القاهرة حجاج افريقية . فيتوافد عليها كل سنة جمهور غفير ، يصل بعضهم اليها قبل الاوان بنحو خمسة اشهر ، وانما تتوافد الاكثرية منهم في اواخر شهر رمضان . فتشبه دمشق حينئذ معسكراً او سوقاً عظيمة ، لا يرى فيها سوى غرباء جاءوها من سائر اطراف البلاد التركية وفارس ، فتزدحم فيها الابل والخيل والبغال ، وتكتظ حاناتها وخاناتها بشتى انواع البضائع .

وبعد استعدادات وتأهبات دامت بضعة ايام ، تبادر تلك الجماهير الى السفر بلا ترتيب ولا نظام ، متبعة طرق البادية ، فتصل الى مكة بعد اربعين يوماً ، اي في عيد الاضحى . وبما انها تمر باراضي بعض القبائل ، فتدعو الحاجة الى

الاتفاق معهم باعطائهم مالاً واستخدامهم كأدلاّء .

وقد يقع في غالب الاحيان اختلاف بين مشايخهم ، فينتهز امير الحج الفرصة للاستفادة من تزاحمهم ، فيبادر الى مساومتهم . ومن المعتاد ان تُفضَّل على غيرها القبائل الضاربة بطول بلاد حوران ، فيبعث الباشا الى رئيسها بسلاح وحلة وجبة ، ويبشره بانه جعله رئيس الادلاّء . ويعني بذلك انه عهد اليه في اعداد ما يحتاج اليه القفل من إبل بأجر معين من غير ان يضمن له اي تعويض كان من الخسائر التي تلحق به ، لانه يموت عادة عشرة آلاف بعير في الموسم الواحد .

والحج فرصة فريدة لمعاطاة تجارة جزيلة الارباح ، فان فريقاً كبيراً من الحجاج يبادرون بلادهم ومعهم بضائع يبيعونها في اثناء السفر ، والمال الذي يجنونه منها يضمونه الى المال الذي يحملونه معهم ، فيشترون به في مكة ، الشالات والاقمشة الهندية المصنوعة في البنغال والملبار وشال كشمير ، وعود الطيب ونحوه ، ومن الهند ، ولآلئ البحرين ، والتوابل ، والابازير والبن اليمني .

وقد يتفق احياناً ان يخيب البدو الآمال ، لنهبهم اموال المتباطئين في السير ، وغزوهم المنفصلين عن القفل . ومع ذلك يصل الحجاج الى بلادهم سالمين ، فيغبطهم مواطنوهم لمظاهر الاكرام والاحترام ، فيصفون لمن يأتون للسلام عليهم ، عجائب الكعبة ، وجبل عرفات ، وجموع الحجاج ، وكثرة الذبائح المنحورة يوم العيد ، والمشقات التي كابدوها ، وغزوات البدو الغريبة ، والبادية التي لا ماء فيها ، وضريح النبي في المدينة . فوصفهم هذا يثير اعجاب السامعين وغيرتهم .

ودمشق التي هي محور تجارة واسعة النطاق ، تتصل عن طريق حلب

بارمينية ، وبلاد الاناضول ، وديار بكر ، وبلاد فارس ، وترد القوافل الى القاهرة عن طريق جسر بنات يعقوب، وطبرية، ونابلس، وغزة؛ وتستورد البضائع من الاستانة واوربة عن طريق بيروت ؛ وتصدر منها ابدع الاقمشة الحريرية والقطنية التي اشتهرت بنسجها ، والفواكه المجففة ، ومربى الورد والمشمش ، وغير ذلك من الحلاوى التي تتقن صنعها . وتشتري تركية من هذه الاقمشة والمربيات ما تساوي قيمته اربعمئة الف قرش . وتجارة كهذه تجلب على دمشق مالاً وافراً ؛ ويرجع عهدها في سورية الى اقدم العصور . وقد اتخذت طرقاً متعددة واتخذت اساليب متنوعة ، على حسب تعدد الامكنة ، وتبدل الاحوال ؛ وكان ينجم عنها في ورائها مدن دامت آثارها حتى بعد زوالها ؛ وولاية دمشق تعطينا من هذا القبيل شاهداً حديثاً يمكن اعتباره ، الا وهو تدمر التي دامت شهرتها في حقبة الثالثة روما ، من جراء دورها الجديد الذي قامت به في عصور النزاع الذي نشب بين البارتيين (Parthes) والرومانيين ، سواء كان في ايام اذينة وزنوبيا ، او بعد سقوطها، وخرابها في عصر اوريليانوس فتدمر ، مخلدة في بطون التاريخ ذكرى مجيدة دائمة

وبما ان معالم عظمتها لم تعرف بالضبط ، فلم يكن من السهل تكوين فكرة صحيحة عنها ، حتى في اوربة نفسها ؛ ولم يكن يخطر على بال احد وجود آثار لها ، الى ان سمع في اواسط القرن السابع عشر بعض التجار الانكليز المقيمين بحلب ، ان في الصحراء خرائب عظيمة ؛ فعزم بعضهم على كشف القناع عن حقيقة امرها . لكنهم اخفقوا في محاولة اولى اقدموا عليها في سنة ١٦٧٨ ، لان البدو اطبقوا عليهم ، وهم في الطريق ، وجردوهم مما كان في حوزتهم ، فاضطروا ان يعودوا ادراجهم من غير ان يحرزوا طائلاً .

فعادوا الكرة في سنة ١٦٩١ ، وتوصلوا بعد الجهد الكبير الى المنشود

على الآثار التي ذهبوا البحث عنها . لما نشروه آنئذٍ في اعلانات العلية الى الكثيرون تصديقه لاعتقادهم انه ليس من المعقول ان تقوم في بقعة بعيدة من الاماكن المأهولة مدينة كانت مثلها وصفهم وتصورهم .

ولكن منذ ما نشر « داوكنس » الانكليزي [1] في سنة ١٧٥٣ الرسم الكامل الذي نقله هو نفسه عن تلك الآثار والاطلال في السنة ١٧٥١ لم يبقَ للشك اي محل ما . فاجمعوا عندئذٍ على القول بان الاقدمين لم يتركوا شيئاً سواه كان في بلاد اليونان او ايطالية يضاهي بجماله آثار تدمر .

فهاك ملخص ما رواه « روبرت وود » زميل « داوكنس » ومدوّن وقائع رحلتها قال :

« لما علمنا ونحن في دمشق ان تدمر تقع في المنطقة التي يسيطر عليها آغا يقيم في قرية الحسية الواقعة في الصحراء على الطريق التي ما بين دمشق وحلب ، قصدنا اليه ، وقد استغرقت رحلتنا اربعة ايام ، فاستقبلنا الآغا احسن استقبال ، واولانا ضيوفاً عليه بذلك الكرم الذي اشتهر به اهل تلك البلاد ، اغنياء كانوا او فقراء . وما ان علم بقصدنا حتى دهش من عملنا ، لكنه دلنا الى ما كنا في حاجة الى معرفته لبلوغ هدفنا .

« انا برحنا الحسية في ١١ آذار سنة ١٧٥١ وبصحبتنا حرس من احسن فرسان الآغا مسلحون ببنادق ورماح طوال ، فوصلنا الى قرية صدود بعد مسير اربع ساعات في سهل قاحل ، ينبت فيه عشب لا تقوى على رعيه حتى الغزلان التي لقينا اسرابها هنالك . وهذه القرية حقيرة فقيرة ، بيوتها مبنية باللبن وسكانها موارنة ، يزرعون في الاراضي التي حولها ما يقتاتون به ، ويصنعون خمراً حمراء جيدة .

(١) راجع الحاشية صفحة ٦١ .

« وفي المساء استأنفنا السير، فدخلنا القرية التركية حوارين بعد ثلاث ساعات، فقضينا ليلتنا فيها، وهي ليست احسن حالاً من صدود. وقد شهدنا في جوارها قرية مهجورة، وهو امر كثيراً ما يحدث في تلك البلاد حيث ينزح السكان عن اراضيهم، ان لم تأتهم مغلة توازي جهودهم.

« غادرنا حوارين في ١٢ اذار، فوصلنا الى القريتين بعد ثلاث ساعات سرنا في اثنائها شرقاً بجنوب. وهذه القرية تماثل القرى التي عرجنا عليها ولو انها اكبر منها. وقد عزمنا ان نقضي فيها باقي يومنا لنتأهب للشطر الاخير من رحلتنا الذي يستغرق اربعاً وعشرين ساعة اخرى يجب قطعها في مرحلة واحدة اذ الطريق لا ماء فيها.

« فقمنا بدءاً من قريتين في اليوم ١٣ اذار، وكنا حينئذ نحو مئتي نفس، ومعنا ما يقارب ذات العدد من حمير وبغال وجمال وسكان، وكنا شكل غريب واما اتجاهنا فيها فانه كان شمالاً شرقي، فاجتزنا بصحراء رملية عرضها ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ لا ماء فيها ولا نبات، يحدق بها يمنة ويسرة جبال قاحلة بدت لنا من بعد كأنها تتلاقى على مسافة ثاني الفرسخ من تدمر.

« وعند ظهر اليوم ١٤ وصلنا الى المكان الذي خيل الينا ان فيه تتلاقى تلك الجبال، واذا بواد يفصل بينها، فرأينا فيها آثار قناة كان الماء يسيل منها الى تدمر ثم شهدنا يمنا ويسرا ابراجاً مربعة الشكل عالية. ولكن ما ان دنونا منها حتى اتضح لنا انها قبور التدمريين وبعد ما اجتزنا تلك الآثار الجليلة، بدت لنا فجأة من فرجة الجبال التي على الجانبين، خرائب عديدة، لم نكن رأينا مثلها قبل، تمتد وراءها حتى نهر الفرات صحراء جدباء.

« فرأينا اغرب ما يمكن تصوره، اي عدداً كبيراً من الاعمدة الكورنثية،

وبجوارها جدار وابنية »(1) .

وفي وسط تلك الاعمدة العظيمة ذات الاطلال المزدانة باجمل ما توصل الفن الى ايجاده من نقش وحفر وفي وسط الجدر المتينة والاقواس القديمة التي ما زالت منتصبة منتهى الروعة والجلال ، يصادف المرء اكواخاً حقيرة قذرة تقيم فيها أسر بدوية بائسة ، فقرها مدقع ، لا تملك من حطام الدنيا الا بعض المعز والنعاج .

وكانت تدمر قبل المسيح المكان الذي ترد اليه بضائع الهند عن طريق الخليج الفارسي ، فتبعث بها الى فينيقية وآسية الصغرى من طريق الفرات والصحراء .

ومما كان يحمل على السكنى في تدمر عينان ينبجس منهما ماء عذب في تلك البوادي . فموقعها هذا جعل سليمان يقدم على فتحها . وقال يوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الاول بعد المسيح : وبنى (سليمان) فيها اسواراً متينة يضمن امتلاكها ودعاها تدمر اي بلاد النخيل .

واذا ما غادرنا تلك الخرائب العظيمة ، وعدنا الى الاماكن الآهلة وصلنا مدينة حمص الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي ، والتي كانت كثيرة السكان في سالف الزمان . واما الآن فهي بلدة خربة يقطن فيها نحو الفي نسمة بعضهم روم والبعض الآخر مسلمون . وكان متولياً عليها آغا قد اقرها من والي دمشق ، ويشمل التزامه جميع الاراضي الممتدة حتى تدمر ، وهي التي

(1) وهنا يشرح فولني اصل تلك المباني مستعينا برسم طويل جميل ضمه الى كتابه مثلت فيه تلك الاطلال الرائعة ، احسن تمثيل . ثم يجعل شرحه سهلا جدا . فيرد القارئ بالفكر الى تلك العصور اذ استطاعت امم متقدمة ان تشيد في الصحراء مدينة على هذه النسبة صاعقتها قاعدة ملك متولية على عرشه ملكها .

مع حماة ومعرّة النعمان ، اقطعها السلطان والي دمشق باربعمئة كيس .

وعلى مسير يومين من حمص تجد حماة الشهيرة بنواعيرها التي هي اكبر النواعير المعروفة ، فدائرة عجلاتها مؤلفة من قواديس مركبة بنمط يجعلها تدور على نفسها وهي ممتلئة ماء . واذا ما وصلت الى قمتها انحدر منها الماء الى حوض متصل باقنية ، فيسيل فيها الى الحمامات الخصوصية والعمومية .

وتقع حماة في واد ضيق على ضفتي نهر العاصي ويبلغ عدد سكانها اربعة آلاف . وتجارتها لا بأس فيها . وتلائم تربتها القطن والحنطة . واما الزراعة فيها ضئيلة من جرآء عسف المتسلم وتعدّي العرب .

واذا واصلنا سيرنا نزولاً مع نهر العاصي على طريق قلما يسلكها المسافرون رأينا في وسط البطائح مكاناً يستدعي الانتباه من جرآء التغير العظيم الذي طرأ عليه . والمكان يُدعى « فامية » وكان يعرف باسم « اباميا » وهي من المدائن الشرقية الشهيرة . وقال « استرابون » : « كان السلوقيون قد جعلوا هنالك ميداناً للتدريب على ضروب الفروسية ، ومرعىً واسعاً تتوالد فيه وتنمو الجياد المعدّة لفرسانهم .

والاراضي التي في جوارها تكثر فيها المراعي ؛ فثلاثون الف فرس ، وثلاثة حصان ، وخمسمئة فيل كانت ترتع فيها وتمرح . وجنود الاسكندر الذين جعلوا من هذا المكان محطة استراحة ، خلفهم عليه فلاحون فقرآء ، يقضون العمر في خوف دائم من جور الحكام وتعدي البدو . وتلك هي ايضاً حالة سكان القرى التي ما بين الصحرآء والجانب الجنوبي من دمشق عند سهول حوران .

والحجاج الذين يسيرون في وسط تلك السهول خمسة وستة ايام في غضون سفرهم ، يرون انهم كثيراً ما يعثرون على انقاض منازل قديمة ، غير انها لا

تستدعي الانتباه، ولا هي ذات اهمية من الوجهة التاريخية .

ان المواد الصلبة التي تصلح للبناء مفقودة من هذه السهول، والارض لا قضض في تربتها ولا حصى، فما يرويه من خصبها يؤيد ما قاله فيها كتّاب العبرانيين، واليها يزرع القمح، فينضج نضجاً باهراً، ويعم حتى يبلغ طوله قامة رجل، معطياً غلة وافرة، ذلك ما لم تحسن الدبا العبث عنه. ويؤكد الحجاج ان الرجال هنالك ذوو قوة وقوام لا مثيل لهم في سائر انحاء سورية، ويشبهون المصريين بملامحهم ولون بشرتهم المحول جراء اصطلائهم الكثير الحرّ والحماء.

ومعظم قراهم يحميها العرب، غير انهم يؤدون الخراج الى صاحب دمشق والاردن محتمين في الجبال الممتدة شمالاً وشرقاً. لاجل ذلك التزحت اليها بعض الاسر الدرزية والمارونية التي اضنتها قلاقل لبنان وحروبه، واقامت لها قرى، وشيدت فيها معابد حيث تقوم بشعائر دينها بلا مانع ولا عائق.

وكلما اقترب المسافر من نهر الاردن، تفارقت الجبال، وتوالت الاراضي المروية. والوادي الذي يجري في وسطه النهر، كثير المراعي، غزير الكلا ومليء الحصى في شطره الاعلى. والعرب الذين لا يعرفون لفظة «اردن»، يسمونه نهر الشريعة. ومتوسط اتساعه ما بين الضفتين الكبيرتين نحو خمس وسبعين قدماً. واما عمقه فهو نحو اثني عشرة قدماً، فاذا تضخم في الشتاء، خرج من مجراه على اثر هطول الامطار التي تنحدر اليه سيولها، فيفيض متدفقاً على ضفتيه، فيصبح عرضه ربع فرسخ، وفيضانه الاعظم يحدث في شهر آذار اذ تذوب الثلوج المتراكمة على جبل الشيخ. فتتكدر حينئذ مياهه، ويزداد انحدارها سرعة. وعلى شطيه غابات متكاثفة تأوي اليها الخنازير البرّية والنمورة وبنات آوى والارانب والطيور.

واذا عبرت النهر في منتصفه، ولجت اراضي خصبة عُرفت في قديم الزمان

باسم مملكة السامرة ، ويدعونها اليوم بلاد نابلس ، قاعدتها مدينة نابلس . وهذه المدينة ، او بالحري القرية ، مشيدة على انقاض « نيابوليس » اليونانيين . وهي مقر شيخ ملتزم يعينه صاحب دمشق .

ولا فرق بين هذه الاماكن وبلاد الدروز الا من حيث ان سكانها مسلمون ذوو حمية ، لا يرضون بان يعيش بين ظهرانيهم من لا يدين بدينهم ، واما اراضيهم فانها جبلية خصبة التربة ، تغطي بوفرة القمح والقطن والزيتون .

وبعدهم من دمشق ووعورة اماكنهم يجعلانهم في مأمن من جور الحكام ويمكنانهم من ان يعيشوا بهناء وسلامة بال ؛ فكانوا يعدون اسعد شعب في سورية . وبما انهم لزموا جانب الهدوء في اوان الاضطرابات التي حدثت في بلاد الجليل وفلسطين فقد نزل الكثيرون من ذوي اليسار الى جوارهم لكي ينجوا من مفاجآت الزمن وجشع الحكام . غير ان طمع بعض زعمائهم ما فتئ ان اوجد فيهم ميلاً الى النزاع والتحزب والشقاق ، فكابدوا من جراء ذلك اضراراً لا تقل جسامة من التي يلحقها بغيرهم حكام البلاد .

وبعد مسير يومين من نابلس جنوباً ، في وسط جبال تزداد على التوالي وعورة ، يصل المرء الى مدينة تعد شاهداً ناطقاً لتقلبات الزمان وعوائل الحدثان . فاذا ما رأينا اسوارها المهدومة وخنادقها المردومة ، والانقاض المكتظ بها محيطها ، صعب علينا ان نصدق انها هي اورشليم ، تلك العاصمة الشديدة البأس التي قاومت في غابر الزمان جيوش اعظم الممالك . وها هي ذي الآن ، عرضة لتعاقب الحوادث ، وتبدل الاحوال ، محط شتى ضروب الاكرام والاجلال . وبما يحمل على العجب من الحظ العظيم الذي تتمتع به ، كونها قائمة على بقعة وعرة ماحلة قاحلة ، لا ماء فيها ولا كلأ ، تحدق بها الاودية والمنخفضات والهضاب . ونظراً الى بعدها من الطريق الكبرى ، كانت تلوح انها لم تصير

مدينة ذات شأن . غير انها انتصرت على جميع العوائق ، مبرهنة على ما يستطيع الفكر فعله اذا ما سيطر عليه شارع ماهر او جاءته فرص طيبة .

والمقامات الرفيعة ، التي لها عند اليهود والنصارى والاسلام ، قد تحمل على الظن ان اهلها اكثر الامم ورعاً وصلاحاً ، غير ان الحقيقة هي بخلاف ذلك . وعددهم يناهز اربعة عشر الفاً . واما مسيحيوها فان تخاصمهم متواصل ، وتحاقدهم دائم ، فخصامهم الذي تثيره دواع تافهة ، يعود عليهم بالضرر ، وعلى الحاكم بالفائدة . فاولياء الامر يشهرون خصامهم ، فيبتزون اموالهم . لذلك يدأب الحاكم في توسيع شقة الخلاف ما بين طائفة واخرى .

ودخل المتسلم اي الحاكم يناهز مئة الف قرش ، فهو يتقاضى من كل زائر رسماً قدره عشرة قروش ، وغرامة من الزوار الذين ينوون الذهاب الى نهر الاردن ، فضلاً عن المغارم التي يفرضها عليهم لدى كل سانحة وبارحة .

وله على كل دير من اديار الطوائف المختلفة مبلغ مال معلوم يأخذه باسم رسم طواف ، او اصلاح عمار . وبما ان التنافر مستحكم الحلقات بين تلك الديورة فان كل واحد منها يرشوه لكي يشمله بعطفه ، ويؤيده بنفوذه ، او يغض الطرف عن مخالفته النظم المتبعة القائمة عليها حقوق الطوائف . والاديار تقدم له الهدايا في بدء تقلده منصبه ، او عندما يولى عليها رئيس جديد .

ويتقاضى ايضاً ضريبة على السلع المختصة بصنعها مدينة القدس كالسبح والصلبان وما اليها من التحف الدينية التي يصدرون منها كل سنة ثلاثة صندوق ، والتي تشتري منها الاديرة شيئاً كثيراً . ودير اللاتين وحده ينفق على مشتراها خمسين الف قرش في السنة .

وتوافد الزوار على بيت المقدس يدر على الديورة والمدينة الارباح الجزيلة . غير ان عددهم آخذ في التضاؤل ، وفي سنة ١٧٨٤ لم يرد منهم سوى الف زائر

بعد ما كانوا فيما سبق اثني عشر الفاً او يزيدون . واما ما ينفقه الواحد منهم فيناهز الالف والستمئة قرش ، وهو مبلغ كانوا آنئذٍ يعدونه جسيماً ، بيد ان بعض الزوار الاغنياء ينفقون اضعافه .

ورحلة الزوار الى نهر الاردن تأتي الحاكم بدخل لا يقلّ عن الاربعين الف قرش في السنة ، يُنفق بعضها على مواكبة الزوار لاجل حراستهم . والكثيرون منهم يشمون ايديهم فيبقى الوشم شاهداً ناطقاً على انهم حجوا بيت المقدس ، وانما الوشم لا يخلو من الخطر ان مرّت الواشم الابرة في عصب الكوع ، فقد يؤول ذلك احياناً الى بتر اليد الموشومة .

وعلى مسير ستة فراسخ من القدس بلدة اريحا الفقيرة في وسط سهل طوله نحو سبعة فراسخ ، وعرضه ثلاثة ، حوله جبال جرداء ، تجعل الهواء حاراً . وكان سكانها يعنون بغرس شجرة البلسم التي تشبه الرمان ، لها ورق كاوراق الحرجل ، وتحمل ثمراً داخل لوزة يستخرجون منها مادة يدعونها بلسماً . غير انهم عدلوا الآن عنها واستبدلوها بشجرة يسمونها الزقوم ، وهي تشبه شجر الخوخ ، فيستخرجون منها زيتاً حلواً ينفع في الجروح والقروح ، لها اشواك طول الواحدة اربع اصابع ، وورق كاوراق الزيتون ، الا انه اضيق منها ، واكثر اخضراراً ، واطرافه شائكة . وثمرها كالبلوط ، ولكن ليس له كمّ ، وتحت قشرته لبّ فيه نواة ، يستخرجون منها زيتاً ، يُباع باسعار طيبة . فتلك هي تجارتهم الوحيدة . واريحا ليست سوى قرية صغيرة فقيرة .

وبيت لحم لا تبعد عن القدس سوى فرسخين جنوباً بشرق ، وهي مشيدة على اكمة في بقعة كلها تلال واودية صغيرة . لاجل ذلك هي حسنة الموقع ، وتربتها تفوق بجودتها تربة غيرها من الاراضي التي تجاورها ، فتنمو فيها اتمّ نماء الاشجار المثمرة والكرمة والزيتون والسمسم . ويقدرون سكانها بعدد

رجاله القادرين على حمل السلاح ، وكثيراً ما يخشقون الحسام لمقاومة الباشا ، او لشن الغارة على القرى المجاورة ، او لفض نزاع ينشب فيما بينهم .

واصحاب الطقس اللاتيني عددهم مئة ، يقوم بخدمتهم الروحية احد رهبان دير القدس الكبير . وكانوا يتعاطون جميعهم صنع السبح ؛ غير ان الرهبان لم يستطيعوا شراء كل ما كانوا يصنعونه منها . لذلك اضطروا ان يعودوا الى فلاحة اراضيهم . والمسيحيون في بيت لحم يعيشون بسلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين ؛ وجميعهم من الحزب اليمني . والفلسطينيون حزبان : يمنيون وقيسيون .

وعلى مسافة سبعة فراسخ من بيت لحم الى الغرب مدينة حبرون التي يدعوها العرب « الخليل » نسبة الى ابرهيم الخليل المدفون فيها . وبيوتها مبنية بانقاض قلعة قديمة . والاراضي التي حوارها لها شكل حوض مستطيل ، طوله خمسة فراسخ او ستة ، تتوالى فيه على خط لطيف الآكام المثمرة ، وغابات البلوط والصنوبر ، وبساتين الزيتون ، والكروم التي لا يستخرج السكان من منها خمراً ، لانهم جميعهم مسلمون ، بل يجففونه زبيباً ، ولو انهم لا يتقنون عمله . ويزرعون القطن ، فيغزلونه ، ويبيعونه في القدس او غزة . ويصنعون الصابون ، ويأتيهم البدو بالقلي الذي يدخل في طبعه . وعندهم معمل للزجاج وهو الوحيد في سورية . ففيه يصنعون الخواتم الملونة ، واساور ، وخلاخل ، واشياء أخر تافهة يبعثون بها الى الاستانة .

فتلك الصنائع جعلت لحبرون منزلة ممتازة ، فهي اقوى بلدة في تلك الارجاء . ويمكنها ان تسلح ثماني مئة رجل . وبما ان سكانها ينتمون الى الحزب القيسي فهم وسكان بيت لحم اضداد وخصوم . فالنزاع القائم منذ القدم بين اهل تلك البلاد يجعلهم متحفزين دوماً للقتال وخوض الحروب الاهلية . وكثيراً ما يغير بعضهم على اراضي البعض ، فيتلفون الزرع ، ويقلعون الشجر ،

ويحطمون النعم والمعز والابل ، وقلما يحاول الحكام ردعهم من جراء عجزهم وضآلة نفوذهم .

ان البدو المقيمين في الاراضي المبسطة يحملون على مشاكسة الفلاحين الذين ينتقمون منهم بشن الغارة عليهم ، فيؤدي ذلك الى احداث فوضى هي شر من الاستبداد الرازحة تحته باقي البلاد .

واذا ما برحنا حوران الى الغرب ، وصلنا بعد مسير بضع ساعات الى مرتفعات هي في هذا الجانب الحلقة الاخيرة لجبال اليهودية ، والمسافر الذي يكون قد سئم تلك المناظر الوعرة التي فارقها ، يلقي نظره بارتياح على السهل الواسع المتساوي الذي يمتد عند قدميه حتى البحر المتوسط امامه ، فذلك هو السهل المعروف باسم فلسطين ، الذي تنتهي به ولاية سورية .

ايالة فلسطين

كانت ايالة فلسطين تشمل في اواخر القرن الثامن عشر الاراضي الواسعة من الجانب الواحد ، ما بين البحر المتوسط غرباً ، وسلسلة الجبال شرقاً ؛ ومن الجانب الآخر ، ما بين خطين ، يبدأ احدهما عند خان يونس ، ويمتد الآخر شمالاً من قيصرية حتى غدير يافا .

فهذه المقاطعة تتكون من سهل شبه متساو لا انهار فيه ، ولا غدران ؛ غير ان تربته جيدة ؛ وقد تكون كثيرة الخصب اذا ما جادت السماء عليها بالمطر . وهي سوداء دسمة ، تدخر في جوفها من الرطوبة ما يكفي لانضاج البقول والحبوب في اشهر الصيف . لذلك يكثر فيها زرع الذرة والسمسم والبطيخ والفول والقطن والشعير . واما القمح فلا يزرعون منه الا ما هم في اقصى الحاجة اليه ، خوفهم من طمع الحكام واعتداء البدو .

وهذا الصقع هو الاكثر خراباً من سواه في سورية باجمعها ، اذ الاغارة عليه سهلة لكونه مفتوحاً امام البدو ، والذين يرغبون فيه ، يفضلونه على غيره لخلوه من الجبال . لذلك لبثوا ردحاً يبارزون الحكام لاستيلاء عليه ، حتى اكرهوهم على التخلي لهم عن جانب منه ، بدل مال يؤدونه الى الدولة في مواعيد معينة ؛ فاخذوا يشنون الغارة منه على المسافرين ويقطعون الطرق ، وهو امر جعل السفر ما بين غزة وعكا محفوفاً بالاخطار .

وكان يمثل في فلسطين حكام لهم لقب باشا . وقد جرت العادة يومئذ بجعلها ثلاث اقطاعات ، هي يافا ولد وغزة ؛ فالاولى منها خصت بسلطانة الوالدة ، اي ام السلطان ؛ والثانية والثالثة منحتها الدولة للرتب الاعلى

مكافأة له على ما قام به من الاعمال الحميدة ، وعلى فوره بالشيخ ظاهر العمر ، وهو يعطي التزامها مئتين وخمسة عشر كيساً لآغا يقيم بالرملة اي ١٨٠ كيساً عن غزة والرملة ، و ٣٥ كيساً عن اللد .

واما التزام يافا فانه امتد الى آغا آخر بمئة وعشرين كيساً يدفعها الى السلطانة الوالدة ، ويتعاض بالاموال التي يجبيها من المدينة والقرى المجاورة . غير ان الجانب الاكبر من دخله يأتيه من المكوس التي يتقاضاها على جميع البضائع صادرة كانت او واردة ، وهي لعمري ذات شأن ، اذ في يافا ينزلون الارز اي ترساه مدينة دمياط الى القدس ، واليها يشحنون بالبضائع المعدة للوكالة التجارية الفرنسية التي في الرملة ، ومنها ينزل الى البر الزوار الآتون من بلاد اليونان والاستانة ، واليها ترد غلال الساحل السوري ، ومنها يصدر القطن المغزول ، وتودع الغلال التي تبعث بها فلسطين الى مدنها الساحلية .

واما الجنود الذين تحت يد الآغا فعددهم ثلاثون ، فلا يقوون على حراسة الاماكن الموكول اليهم امرها . ومدينة يافا ليست حصينة ، ولا هي ذات مرفأ حسن . وانما هنا الآن المدفعان اللتان فيها قرب شاطئ البحر تجعلانها احمى مدن ذلك الساحل . وقد مكنتاها في الحروب الاخيرة من مقاومة المغيرين عليها .

واما مرفأها فهو في اسوأ حال ، فمنذ ازالوا منه الردم المتراكم فيه ، لا يستطيع استيعاب عشرين سفينة ، حمولة كل واحدة منها ثلاثمئة طن . لاجل ذلك تضطر السفن التي تأتي اليها ان تلقي مراسيها على مسافة فرسخ من الشاطئ ، وهي مع ذلك لا تأمن الخطر ، لان قعر البحر هناك كثير الصخور .

وكانت يافا قبل الحصارين الاخيرين احمى مدينة على الساحل . وكانت تكثر في جوارها بساتين البرتقال والليمون والكباد والنخيل والزيتون الذي

يشبه شجرة دوح الجوز . فالالبك قطعوا جميع تلك الاشجار للاستدفآء او للتسلية . على ان العدو لم يستطع ان يحرم يافا الماء الطيب الذي يروي بساتينها وهو الماء الذي احيا جوانب تلك الاشجار فأخذت تتشكل بسرعة .

وبلدة اللد التي تبعد من يافا ثلاثة فراسخ ، عرفت في قديم الزمان باسم ديوسبوليس ، وهي اليوم تشبه مكاناً اعمل فيه العدو النار والدمار ، فلا يرى في البقعة التي ما بين اكواخ السكان وقصر الآغا ، سوى انقاض واطلال وبيوت متهدمة . ومع ذلك تقام فيها سوق يتوافد عليها اهل القرى المجاورة لبيع القطن المغزول .

ونصارى اللد يشيرون باحترام الى انقاض كنيسة مار بطرس ، ويدعون الزوار الى الجلوس على عمود يزعمون ان القديس كان يجلس عليه . ويشيرون ايضاً الى معصرتين ، زاعمين ايضاً انه كان يصلي في الواحد منهما ، ويعظ الناس من على الآخر .

وعلى مسافة ثلث فرسخ من اللد بلدة الرملة اي اريماتيه القديمة ، وعلى جانبي الطريق المؤدية اليها سياجات من الصبر . والرملة كاللد مدمرة . وقاعدة حاكمها مقره بأكمله في دار سقفها وحيطانها متداعية . وقد قيل ذات يوم لاحد اعوان الآغا : « لماذا لا يصلح الآغا غرفته ، ما دام يأبى ترميم الدار كلها ؟ » فقال : « وان عزل في العام المقبل ، فمن يعوضه من نفقات الترميم ؟ »

وتحت يده مئة فارس ومئة جندي مغربي ، ويقيم فريق منهم في كنيسة قديمة ، وفريق آخر في خان تكثر فيه العقارب والحشرات .

والاراضي التي في جوار هذه المدينة تعطي زيتوناً جيداً ، غرست اشجاره على خط هندسي لطيف ، وهي اشجار كبيرة كدوح الجوز . بيد انها قادمة على التلف من جراء قدمها او اهمالها او العبث بها .

والعبث بالشجر كثير الحصول في عهد الاعتداء اذ القروي يأتي ليلاً شجرة خصمه وينشرها او يثقبها عند اصل جذعها ، ثم يغطيه بتراب ، فتسيل مادتها وهكذا تتلف شيئاً فشيئاً .

وان اجتاز المرء بهذه السهول يرى الكثير من الآثار الجميلة والصهاريج الخربة والمصانع المقببة مما يدل على ان المدينة كان لها في ما سبق محيط يبلغ الفرسخ ونصف الفرسخ . واما الآن فليس فيها مئتا نسمة .

والاراضي القلائل التي يعمرونها ويزرعونها ، يملكها الغني او اثنان او ثلاثة من القرويين . واهم ما يتعاطونه من الاعمال بعضهم غزل القطن الذي يشتريه منهم تجار فرنسيون . ويصنعون ايضاً الصابون فيبعثون به الى مصر . ومما يجدر بالذكر انه في سنة ١٧٢٨ عهد الى تاجر بندقي في اقامة طاحون هوائي في الرملة ، وهو الوحيد في مصر وسورية مع انه يقال ان تحرك دواليب الريح ودحى الهواء شرقي .

والاثر القديم في الرملة ، مئذنة جامع قديمة على طريق يافا ، يوجد من الكتابة العربية التي عليها ان بانيها الناصر محمد قلاوون احد سلاطين مصر . ويمكن تسريح الطرف من اعلاه على الحقول التي وراء السهول حيث بعض القرى الحقيرة التي تحول دون وصول اصحابها صيحة الذل والفقر . والبيوت هنالك بعضها بعيد ، والبعض الآخر مؤلف من حجر متسعة حول باحة يحيط بها سور من لبن .

وفي فصل الشتاء يلجأ القرويون حيث يجدون مواشيهم ، فيدفأون من غير ان يصطلوا بنار ؛ ففي ذلك توفير لثمن الخشب في بلاد يعوزها الحطب . واما نارهم فهي من روث حيواناتهم اقراصاً يجففونها في الشمس ويحملونها تحت اكواخهم . ولهم في الصيف مسكن آخر ليس فيه من الاثاث سوى حصير

وانما للماء . ولا يزرعون الا الاراضي القريبة من مساكنهم ، واما البعيدة فيتركونها للبدو الذين يرعون انعامهم عليها .

وكثيراً ما يصادف المرء هنالك خرائب ابراج وشرف وقلاع حولها خنادق، يقيم في بعضها رجل من قبل الآغا ، وثلاثة جنود ، لا يملك الواحد منهم سوى قميص وبندقية ؛ بينما البعض الآخر قد ترك لبنات آوى والابوام والعقارب ، فتأوي اليها وتمرح فيها .

ومدينة غزة مؤلفة من ثلاثة احياء ، احدها قلعة خربة يشغل قصر الآغا جانباً منها، وهو متداع كقصر الرملة، لكنه يطل على ما حوله الى ابعد مدى ، ومنه يرى البحر الذي يفصله عن البر ساحل من الرمال عرضه ربع فرسخ . وهذه البقعة تشبه اراضي مصر بشكلها المنبسط والنخيل القائم فيها ، وتربتها وحرارتها يماثلان هواء مصر وتربة شواطئ النيل . حتى ان السكان هم مصريون باقوالهم وعاداتهم وطباعهم ولون بشرتهم اكثر مما هم سوريون .

وغزة هي عقدة الاتصال ما بين سورية ومصر ، لاجل ذلك ظلت مدينة ذات شأن ، مع ما طرأ عليها من تقلبات الدهر وعوامل الحدثان . وتدل الانقاض من الرخام الابيض التي فيها ، على انها كانت عامرة غنية . ثم ان تربتها السوداء كثيرة الخصب ، وسواقيها التي يجري بها ماء عذب ، تعطي رماناً وبرتقالاً وتمراً لذيذاً .

وليست غزة اليوم سوى قرية سكانها لا يزيدون على الفي نسمة ، اهم صنائعهم الحياكة التي يستعملون لها نحو خمسمئة نول . وعندهم ايضاً معملان او ثلاثة معامل للصابون ، وكانت تجارة القلي رابحة ، وكان البدو يبيعونه منهم بابخس الاثمان . ولكن بعدما احتكره الآغا واجبرهم على بيعه منه بالسعر الذي يريده ، توقفوا من جلبه . وهذا الرماد او القلي مرغوب فيه لكثرة الملح الذي يحويه .

والقوافل الرائحة والغادية فيما بين مصر وسورية مصدر ارباح جزيلة لسكان غزة ، فمن غزة تبتاع تلك القوافل الطحين والزيت والتمر ، وما يعوزها من المواد الغذائية في خلال الايام التسعة او العشرة التي تقضيها في اجتيازها بالصحراء .

والتجار العربيون يقصدون الى ترعة السويس [illegible] فيها السفن الآتية من جدة ، او الذاهبة اليها ، فيبادرون [illegible] ثلاثة ايام ويوفدون كل سنة قافلة كبيرة الى الحجاج [illegible] من مكة . ويحملون اليوم المرطبات « وجردة » فلسطين ، ويضربون الخيام في [illegible] التي تبعد مسير اربعة ايام من غزة جنوباً لشرق .

ثم انهم يتناولون الاسلاب في [illegible] البدو ، فنزل عليهم الاربع العطائية . ومسلوبات سنة ١٧٥٧ انهم تكاسب لا تقع تحت حصر ، لان شيخ المشرق الف جمل التي كانت في قفل الحجاج ، [illegible] الى غزة ، فالبدو الجياع الجهال الذين لا يعرفون قدر الغنائم ، [illegible] لها قيمة ، باعوا بقطعة قروش شالات الكشمير والنسج الثمينة واثاث هندي والبن اليمني والصمغ العربي واللآلئ الرائقة .

ويروون حادثاً يدل على بيان على سذاجة هؤلاء البدو ، وهو ان اعرابياً من قبيلة عنزة وجد بين الاشياء التي نهبها علبة صغيرة فيها اللآلئ الناعمة ، فظنها ذرة ، فقلاها قاصداً طبخها . ولما رآها لم تنضج ، [illegible] جانباً ، [illegible] عري واخذها منه ، واعطاه بدلاً منها طربوشاً احمر .

وقد حدث ايضاً مثل ذلك عندما نهب البدو قافلة الطور التي كان فيها [illegible] جرمن (١) . وقد نهبوا حديثاً قفل الحجاج المذكورة واحماله التي كان

(١) Charles-Louis comte de St Germain كان وزير الحربية في ايام لويس السادس عشر ، وهو الذي اعاد تنظيم الجيش الفرنسي . مات في سنة ١٧٧٨ .

عددها ثلاثة آلاف . فالذي وقع في يدهم كان شيئاً كثيراً ، فهبط سعره في فلسطين هبوطاً كبيراً ؛ لكن الآغا حرم على السكان ابتياعه لكي يجبر البدو على بيعه منه . فذلك الاحتكار اتاه بارباح طائلة . فدخله السنوي من اموال الميري ، والمكوس ، والالف والمئتين حملا التي يختلسها من الثلاثة آلاف حمل المؤلفة منها « الجردة » ، والمغارم التي يفرضها على السكان ، يساوي ضعف المئة والثمانين كيساً التي هي بدل التزامه .

وفي الصحراء عزة ؛ فلا يعني ذلك ان الاراضي هنالك غير مأهولة ، فانك ان سرت مسافة يوم بموازاة شاطئ البحر ، رأيت زرعاً وقرى ، نذكر منها على سبيل المثال خان يونس الذي يشبه حصناً يحميه اثنا عشر مملوكاً ؛ وفي العريش الذي هو آخر مرحلة قبل ناحية مصر ، يجد المسافر ماء زلالاً .

واذا ما توغلت في الصحراء شرقاً ، وسرت حتى طريق مكة ، رأيت اراضي مزروعة ؛ فهنالك اودية حيث بعض الآبار ، والامطار التي تتساقط في الصيف ، قد جلبت الى تلك الانحاء فلاحين هم اكثر مضافاة وملاطفة وبؤساً من البدو انفسهم .

والى جنوب البحر الميت تشرف على بقعة من الارض ، يقطعها المسافر في ثلاثة ايام ، عدة مدائن خربة . في البعض منها اطلال عظيمة ، تدل اعمدتها على انها بقايا هياكل وكنائس قديمة ؛ والبدو الذين يرعون قطعانهم في جوارها لا يجرؤون على دخولها خوفهم من العقارب الضخمة التي تكثر فيها . فآثار كتلك تنبئ عما كانت عليه البلاد من العمران ؛ هي بلاد النباطيين الذين كانوا اقوى العرب قاطبة ؛ وموطن الايدوميين الذين كانوا لا يقلون عدداً عن اليهود في آخر ايام اورشليم كما يؤكد ذلك ما رواه يوسيفوس المؤرخ اليهودي من ان ثلاثين الفاً منهم اسرعوا الى نجدة اورشليم اذ علموا بزحف

تيطوس اليهـا .

ويبدو لنا ان عمران تلك الديار اوجدته فيها شرائع حسنة ، وتجارة رائجة . ومن المشهور انه في عصر سليمان كان هنالك مدينتان واقعتان على خليج البحر الاحمر ، ترد اليها البضائع الوفرة ، ويكثر التردد اليها ، فاحداهما هي العقبة ، والمكانان يسيطر عليهما البدو ، لكنهم لا يقيمون فيها ، اذ انهم لا يمارسون التجارة ، ولا يزاولون الملاحة . والحجاج المصريون الذين يمرجون عليها ، يرون ان في العقبة حصناً تخفره عساكر اتراك ، وسفالاً عديم القيمة في تلك الانحاء المقفرة النائية .

والايدوميون الذين لم ينتزع منهم اليهود تلك الثغور الا في فترات قصيرة ، كانوا يجنون منها غنى ويسراً ضارعوا بها الصوريين الذين كانوا يملكون هنالك ثلاث مدن ، احداها ، وهي المجهولة الاسم ، تقع على ساحل الحجاز في برية التيه ، والثانية مدينة فران ، والثالثة مدينة الطور التي هي مرفأ لفران هذه .

وكانت القوافل تذهب من تلك المدن الى فلسطين واليهودية في ثمانية ايام او عشرة ، سالكة طريقاً اطول من التي تصل السويس بالقاهرة ، واقصر من التي يذهبون عليها من حلب الى البصرة .

وبرية التيه هي ذات البادية التي قاد موسى الكليم العبرانيين اليها ، وطوحهم فيها ردحاً طويلاً ، ليدربهم على اساليب القتال ويجعل منهم شعب حرب [1] . والاسم « التيه » له علاقة بدءت كما يدل معناه ؛ وانه من الخطأ الاعتقاد انه ظل شائعاً بعامل النقل ، فلم يردده العرب الا لانهم يقرأونه في

---

(١) هذا فكر المؤلف . وانما الروح الاقدس يقول في سفر العدد ٣٢ : ١٣ وتاههم الرب في البرية اربعين سنة حتى انقرض جميع الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب (عدد ٣٢ : ١٣)

التوراة والقرآن .

فتلك الصحراء التي تتاخم سورية من الجنوب ، تمتد بشكل شبه جزيرة فيما بين خليجين واقعين على البحر الاحمر ، اي خليج السويس غرباً ، وخليج العقبة شرقاً ، فتوسط عرضها ثلاثون فرسخاً ، وطولها ستون ، ومعظمها جبال ارضها قفار ، متصلة شمالاً بجبال سورية ، وهي مثلها مكونة من صخور جيرية لكنها صوانية في الجنوب ، كما هما جبلا سيناء وحوريب ، لا ينبت فيها الا الطلح والاثل والرتم وبعض الشجيرات .

وينابيع الماء فيها نادرة الوجود ، فان وجد هنالك عين ، كان ماؤها كبريتياً حاراً ، كالعين التي يدعونها حمامات فرعون ؛ او اُجاجاً آسناً ، كالتي تدعى « النبع » ازاء السويس .

وفي الجانب الشمالي يكثر الملح المعدني ، بيد ان التربة في بعض الاودية ليست مالحة ، لانها مكونة من فتات الصخور ، فتصلح للزراعة ، بل تكون ايضاً خصبة اذا ما روتها الامطار ، كتربة وادي جرندل حيث بعض المياه ، ووادي فران حيث اطلال مدينة فران القديمة وكانوا في سالف الزمان لا يدعون تلك المزايا تذهب سدى . واما الآن وقد اهمل شأنها ، فلا ينبت فيها الا الحشائش الهيبة .

ويمثل تلك الوسائل البعيدة نقوم الصحراء بامة ثلاث قبائل عدد افرادها يناهز ستة آلاف ، يدعونهم مدة طوارة ، نسبة الى الطور الواقع على الساحل الشرقي لذراع السويس في بقعة رملية منخفضة ، وميزته ان فيه رصيفاً جيداً وماء عذباً تأخذ منه حاجتها السفن الداهبة الى جدة . وليس هنالك الا بعض النخيل ، وحصن حرب ، ودير للروم خرب ايضاً ، واكواخ يقيم فيها عرب فقراء . والقبائل الثلاث تمتد لاجل معيشتها على تمرها والماعز والصمغ

الذي تجمعه من شجر الطلح وتبيعه في مصر ؛ وايضاً على ما تقتنيه في الثروات التي تقوم بها على طريقي الحج والسويس .

وهؤلاء البدو ايضاً عندهم خيل كما عند غيرهم من القبائل بما انه لا مرعى له في تلك الانحاء ، فيستعيضون منه بهجان من الابل التي تمتاز من غيرها ببياضها، ونعومة وبرها ، ورشاقة اعضائها ، وخفة حركاتها وقدرتها على الجري السريع ؛ وفي وسعها ان تسير سيراً متواصلاً ثلاثين او اربعين ساعة بلا أكل ولا شرب . ويستخدمونها في نقل البريد وقطع المراحل الشاسعة ، وانما يجب ان يألف المرء حركاتها ، لأن ركوبها قصي حتى امهر الفرسان .

ان زيارة الروم لدير جبل سيناء تدرّ الارباح الطيبة على بدو الطور . فالروم الارثوذكس يكرمون احسن تكريم القديسة كاترينا ، ويعتقدون ان في هذا الدير رفاتها ؛ وحجّهم لمقامها ، ولو مرة واحدة ، يعدونه من الاعمال التي تجلب البركات ومغفرة الزلات . لاجل ذلك يقصده الزوار من القسطنطينية واقاصي بلاد اليونان ؛ فيجتمعون في القاهرة حيث رهبان جبل سيناء لهم عملاء ؛ وهؤلاء يتفقون مع العرب على مواكبة الزوار حتى الدير بأجر قدره خمسة وخمسون قرشاً من كل شخص .

وعندما يصل الزوار الى الدير يقومون بفرائض العبادة ، ويزورون الكنيسة ويقبلون الذخائر والايقونات ، ويصعدون الى جبل موسى زحفاً على الركب ويختمون زيارتهم باعطائهم الدير ما يتيسّر لهم من المال . غير ان مقدار العطاء لا يقل عن مئة قرش او مئة وعشرين .

فتلك الزيارة لا تحدث الا مرة واحدة في السنة . واما الاقامة في الدير فانها ليست من الامور المبهجة ، نظراً الى بعده ، وانفراد موقعه ، فليس حوله سوى صخور هائلة كئيبة . والجبل الذي يقوم الدير على سفحه ، مكوّن من

كتلة عظيمة من الصوان تبدو كأنها ستنهار عليه . وهو يشبه سجناً مربع الشكل ، ليس في سوره سوى فتحة واحدة ، يدلي الرهبان منها قفة لمن يروم الدخول ، ثم يسحبونها وهو فيها .

واما الباعث على هذا الاحتراز فهو الخوف من البدو الذين يدخلون الدير عنوة ان فتح بابه الكبير ، الذي يظل مُوصداً ولا يفتحونه الا للمطران الذي يفد عليهم مرة كل سنتين او ثلاث سنين . وزيارته كثيرة النفقات بداعي الاتاوة التي يتقاضاها البدو آنئذ . وعلى الرهبان ان يقدموا لهم كل يوم عدة حصص من الطعام ، والنزاع الذي ينشب من حين الى آخر بسببها ، كثيراً ما يؤول الى رجم الرهبان واطلاق الرصاص عليهم .

وهؤلاء الرهبان لا يغادرون قط ديرهم ، وقد توصلوا ، بجهودهم وطول اناتهم ، الى احداث حديقة على تلك الصخور ، ينقلون التراب اليها ، فهي متنزههم . ويجنون من اشجارها ثماراً فاخرة ، كالمشمش والتين والاجاص الذي يهدونه الى كبار قومهم في القاهرة .

وتشبه حياتهم النسكية حياة زملائهم من الروم والموارنة الذين في لبنان ، اي انهم يقضون الوقت في الصلاة والعبادة والاعمال المفيدة . بيد ان رهبان لبنان يعيشون بأمان واطمئنان بخلاف رهبان دير سيناء .

ثم ان حياة السجن والانزواء هذه المجردة من كل تنعم وتسلية هي حياة جميع الرهبان في الشرق ، فعلى هذا المنوال يعيش رهبان دير مار سمعان في شمال حلب ، ودير مار سابا القريب من بحيرة لوط . وهكذا ايضاً يعيش اقباط ديورة صحراء القديس مقار والقديس انطونيوس .

فجميع تلك الديارات هي كالسجون ، لا نافذة لها تطل على الخارج الا التي تأتيهم منها مؤونتهم واقواتهم . وهي مشيدة في اماكن بشعة قفرة ، لا

يرى فيها سوى حجارة وصخور ، ومع ذلك تجد الرهبان فيها عديدين ، فخمسون منهم يقيمون في دير طور سيناء ، وخمسة وعشرون في دير مار سابا ونحو ثلاثمئة في ديورة صحارى مصر .

نظرة شاملة

تتألف البلاد السورية من ثلاث قطع مستطيلة تبسط احداها بموازاة البحر الابيض ، وهي وادٍ رطب ، هواؤه ليس كما يرام ، وانما تربته وافرة الخصب .

والقطعة الثانية تتاخم الاولى ، وهي جبلية ، وعرة المسالك والمعابر ، لكنها طيبة الهواء .

وتقع الثالثة الى ما وراء الجبال شرقاً ، فتجمع بين حر القطعة الاولى وجفاف الثانية .

وقد رأينا كيف تمتاز سورية بعدة مزايا من حيث تربتها وجودة هوائها فتبدو كأن الله جعلها المكان الاكثر ملاءمة للسكن . على انها تفتقر الى الخضرة البهجة التي تزدان بها على الدوام بعض البلاد الاوربية ؛ فلا ترى فيها العشب الاخضر ، ولا الزهر الزاهي ، ولا الغابات الرائعة التي تسبغ البهجة والنشاط ، وذلك امر ناشيء من عوامل مرضية اكثر منها طبيعية .

ولولا الخراب الذي جلبه عليها ابن آدم لكست الغابات معظم انحائها .

ومن البديهي ان الارض الغزيرة المياه في الاصقاع الحارة ، تكون وافرة النبات إن اعتني بها . فهي حينئذ تزهر وتثمر . والاثمار الازهار وهكذا دواليك . وبذلك تمتاز البلاد الحارة عن البلاد الباردة .

وفي الانحاء المعتدلة اجواء تظل الطبيعة جامدة عدة اشهر ، فيذهب ثلث بل نصف السنة في سبات لا حياة فيه ، لان الارض التي حملت الحبوب لم يبقَ لها متسع من الوقت لتنبت البقول قبل انقضاء اشهر الصيف ، فلا يبقى والحالة هذه امل في جني غلة ثانية . فالفلاح يجد نفسه مضطراً الى العطلة والبطالة .

واما في سورية فان الامر ليس كذلك ، فان كانت غلالها هي دون ما تستطيع اعطاءه ، فالباعث الاول والاكبر يعود الى سوء الحكم القائم فيها .

ولنلخصْ ما شرحناه مطولاً عن دخل الدولة وعساكرها ، وعدد السكان ، فنقول : تدفع سورية الى خزينة الدولة الفين وثلاثمئة وخمسة واربعين كيساً ، وهي جملة الضرائب المفروضة عليها ، واليك تفصيلها :

٨٠٠ كيس تدفعها حلب
٧٥٠ كيساً « طرابلس
٤٥ « « دمشق
٧٥٠ « « عكا

٢٣٤٥ (اي ما يعادل ٢٬٩٣١٬٢٥٠ ليرة من نقود فرنسة في القرن الثامن عشر ، او ١٬٢٧٢٬٠٠٠ قرش تركي ذهباً) .

ويجب ان نضم الى هذا المبلغ : اولاً – قيمة تركات الباشوات والافراد ، وهي تناهز الف كيس ؛ ثانياً – الحرية اي مال الاعتاق ومال الحوالي

المفروض على المسيحيين ، وينظر في امره ديوان خاص تابع لبيت مال الدولة في الاستانة . واما مسيحيو البلاد التي حق تديها منوط بالباشا الحاكم ، كبلاد الموارنة والدروز ، فمنهم معفون منه ، وهو على الشخص الواحد ، ثلاثة او خمسة قروش او احد عشر قرشاً ، وقد يصعب تقدير مجموعه ، وانما اذا فرضنا ان عدد الذين يؤدونه مئة وخمسون الفاً ، ومتوسط ما يؤديه الواحد منهم ستة قروش كانت الجملة تسعمئة الف قرش .

فلا نخطئ ان قدرنا سبعة ملايين ونصف مليون ليرة جملة المال الذي تدفعه سورية الى خزينة الدولة . واما ما يجبيه « الملتزمون » فيكون تقديره كما يلي :

١٠٠٠٠ كيس	حلب
٢٠٠٠ «	طرابلس
١٠٠٠٠ «	دمشق
١٠٠٠٠ «	عكا
٦٠٠ «	فلسطين
٣٢٦٠٠	

فهذا المبلغ هو دون ما تستطيع سورية دفعه ، لان ارباح « الالتزامات » التي يعهد فيها الحاكم الى الافراد ، كما هو جار في بلاد الدروز والموارنة والنصيرية ، لم تدخل في هذا الحساب .

والجنود في سورية لا يتناسب عددهم مع ما يجب على بلاد ذلك هو دخلها ان يكون فيها . اذ جميع الجنود في سورية من مشاة وفرسان لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف وخمسمئة ، متوزعين عليها كما يلي :

حلب	٦٠٠ فارس	٥٠٠ من مغاربة مشاة
طرابلس	٥٠٠ ″	٢٠٠ ″ ″ ″
عكا	١٬٠٠٠ ″	٩٠٠ ″ ″ ″
دمشق	١٬٠٠٠ ″	١٠٠ ″ ″ ″
فلسطين	٣٠٠ ″	١٠٠ ″ ″ ″
	٣٬٤٠٠	٢٣٠٠

وعند الضرورة يضم الباشا الانكشارية الى هؤلاء الجنود ، كما انه يدعو اناساً آخرين الى الالتحاق بهم ؛ فهكذا تألفت بسرعة تلك الجيوش التي رأيناها تشن الحرب على الشيخ ظاهر العمر ، وعلي بك المصري . بيد ان ما بسطناه من نظامها ، والاساليب التي تتبعها في حروبها ، يدل على ان سورية ، من حيث الدفاع ، هي دون مصر . على ان الجندي التركي خليق بكل اعجاب ، نظراً الى زهده وجودة صحته . وهما ميزتان تجعلانه يستطيع ان يعيش في افقر الاصقاع ، ويتحمل اشد المتاعب والمشقات ، بما انه اعتاد الحياة الشاقة منذ الصغر اذ كان في الحقل يفترش الارض ويلتحف السماء . لاجل ذلك لا يشعر بميل الى التنعم ، ولا هو يبالي بشظف العيش في المعسكر .

ولئن قابلنا سورية بمصر ، رأينا بينهما بوناً شاسعاً من حيث مقدرة كل منهما على الدفاع عن نفسها ، فمصر تستطيع ان تحمي نفسها براً بصحراواتها وبحراً بسواحلها . واما سورية فانها مفتوحة من البرّ عن طريق ديار بكر ومن البحر عن طريق سواحلها التي يسهل الاقتراب منها .

واما مصر فالدنوّ منها ليس بالامر الهيّن ؛ ومن يحاول فتحها يصعب

عليه البقاء فيها ، لانها تستطيع التملص منه بسهولة . ومن يستولِ على سورية يتعذر اخراجه منها لان الاحتفاظ بها سهل .

وما ذلك الفرق بينهما الّا لان مصر تقع في سهل ، فالحرب فيها تدور بسرعة بخلاف سورية التي جبالها تجعل الحرب سكانية ، والتكسار احد المتحربين فيها لا يحرم الآخر وسائل الدفاع .

واذا حاولنا تقدير عدد سكان سورية . بالاستناد الى بعض الادلة حصلنا على الاحصاء التالي :

٣٤٠٬٠٠٠	ولاية حلب
٢٠٠٬٠٠٠	« طرابلس ما عدا كسروان
١١٥٬٠٠٠	كسروان
١٢٠٬٠٠٠	دروز
٣٠٠٬٠٠٠	ولاية عكا
٥٠٬٠٠٠	فلسطين
١٤٢٠٠٬٠٠٠	ولاية دمشق
١٬٣٠٥٬٠٠٠	الجملة

الفلاحون والفلاحة (١)

في سورية بل في البلاد العثمانية جميعها، يُعدّ الفلاحون كغيرهم من السكان عبيد السلطان. غير ان لفظة «عبيد» تعادل هنا كلمة «رعايا». ولا ريب ان السلطان هو السيد المطلق، لكنه لا يبيع الناس كما يُباع الرقيق، ولا يكرههم على الاقامة في مكان معيّن. وإذا منح احد كبار دولته اقطاعة ما، فلا يعني ذلك انه اقطعه في الوقت ذاته عدداً معيناً من الفلاحين، كما هو جارٍ في روسية وبولونية. وقصارى القول ان الفلاحين في سورية يرزحون تحت عسف الحكومة وجورها، من غير ان يكونوا عبيداً لاصحاب الاقطاعات، ارقاء لهم.

ولما فتح السلطان سليم سورية، اراد ان يجعل جباية الضرائب سهلة، فلم يفرض سوى ضريبة واحدة، واعني بها «الميري». ويبدو لنا ان هذا السلطان مع ما كان عليه من قسوة الطبع، شعر بضرورة مراعاة حالة الفلاح. فلو قابلنا الميري بمساحة الارض لرأيناها في غاية الاعتدال، لا سيما وان عدد سكان سورية كان اكثر [illegible] منه في القرن الثامن

---

(١) حاول فولني قبل طرقه هذا البحث ان يشرح طريقة الحكم في سورية، وسرد العوامل التي جعلته معتقداً جائراً، لا عدل فيه، ولا رقي، [illegible] اصدر حكومة، [illegible] له شكل [illegible] الحكم [illegible] ، [illegible] دامت الدولة في كرمه على [illegible]، وتأثير الدين في المعاملات، والعلاقة التي [illegible] الحكام والرعية. وكتب عن كل موضوع فصلاً خاصاً، معدداً كثيراً من الآراء التي لا يمكننا موافقته عليها. لاجل ذلك طوينا كشحاً عنها، اذ نوفر على القارئ مشقة مطالعتها، فهي مسرة اكثر منها مفيدة.

عشر . ولربما كانت تجارتها اذ ذاك لا تقل عما صارت اليه بعدئذ ، لان «رأس الرجاء الصالح» لم يكن في ذلك العصر مقصوداً كثيراً ، فكانت سورية واقعة على الطريق المفضل على غيره من الطرق المؤدية الى الهند .

ولكي تجرى الجباية بانتظام ، جعل لها السلطان دفتراً او سجلاً دوّن فيه سهم كل قرية ؛ اي انه جعل الجبايات ثابتة لئلا يجور احد على الضعيف فيه . ففي حالته تلك لم يكن ثقيلاً على كاهل الشعب . غير ان عيوب نظامه جعلت الحكام وعمالهم من جعله مرهقاً . ومنها انهم لم يجوروا على الضعيف بالضريبة التي سنّها السلطان لجعله الضريبة غير قابلة الزيادة او النقصان . بل اضافوا اليها عدة فروض تعمل عمل الضرائب ، ولو انها لا تدعى ضرائب . ومن ذلك انهم لا يقطعون لاحد عن اي جزء من الارض المعطاة لهم ، الا بشروط باهظة ، فيطلبون نصف الغلة او ثلثيها . ويحتكرون ايضاً البذور والحيوانات ، فيضطر الفلاح ان يشتريها منهم باسعار تزيد على قيمتها الحقيقية . وعندما يتسلمون الغلة منه ، يحاسبونه مدعين نقصانها ، او مدعين اختلاسه جانب منها . وبما انهم اصحاب السلطة والنفوذ ، فيأخذون قسراً ما يريدون . واذا جاءت السنة ماحلة فلا يأبهون له ، ولا يصطبرون عليه ، بل يطالبونه بما سلفوه ويبيعون جميع مقتنياته ليستوفوا دينهم منه . ومن حسن الصدف انه لا يحكم عليه بالسجن ان لم يعد يملك شيئاً ، فيصير اذاً حراً طليقاً .

وقد يضيفون الى تلك المعاملة المرهقة لعب قمار ، فتارة يفرضون غرامة على القرية باجمعها لذنب ارتكبه بعض سكانها ، او اتهموا به زوراً ، وتارة يوجبون عليها ضرباً جديداً من السخرة ، فيطالبونها بهدية لدى قدوم حاكم جديد ، او بتأدية علف الى خيله وخيل فرسانه ، ويجبرونها على قرآء

الجنود الذين يزورون بها اتفاقاً ، او يأتونها قصداً ليبلغوها اوامر الحكام .

وقد يبذل الحكام جهدهم للاكثار من تلك البعثات التي تؤول الى اقتصادهم في النفقات ، ولو انها ترهق الفلاحين . والقرى ترتعش خوفاً ان وفد عليها « لاوند » فهو لعمري لص قد انتحل اسم « جندي » . فيدخل القرية كانه فاتح ، ويأمر كانه المولى المطلق السلطة . وعند ما يرحل يطالب بقيمة ما يسمونه « كراء الضرس » .

والفلاحون يستغيثون من هذا البلاء ، ولا من مغيث ، فتوسطر احوال بعضهم تتأخر اشغالهم ، ويتضاءل دخلهم ، ويعجزون في نهاية الامر من تأدية « الميري » فيحبسون حتى على مائدتهم ، او يهاجرون الى المدن . وبما ان الميري مقداره ثابت ، اي انه لا ينقص ولا يزيد ، ومن المحتوم وفاؤه بتمامه ، فالمعروض عليهم منه ، يترتب على القرويين الآخرين القيام بدفعه . وهكذا الحال الذي كان في بدء الامر خفيفاً ، صار مع التوالي ثقيلاً . واذا حصل هذا على مدار سنتين متواليتين ، فرت القرى بجملتها ، واقفرت من سكانها ، غير ان « ميريهم » يقع حينئذ على جيرانهم .

وذات الامر يحدث في ما يختص « بجزية » النصارى التي تعينت في الاصل بمقتضى احصاء امرته الدولة ، فيجب الأ ينقص مقدارها مهما نقص عدد الذين فرضت عليهم في البدء ، فمثلاً اذا انتزح عن بلدة خمس من سكانها المسيحيين ، فعلى الباقين منهم ان يقوموا بتأدية الجزية المفروضة على الجميع ؛ فيصبح عندئذ منهم الشخص الواحد خمسة وثلاثين او اربعين قرشاً ، فيزول ذلك الى انتقال كامل ذلك الشخص ، او اكراهه على تغيير دينه .

ثم ان اصحاب الاقطاعات يطلقون يد الملتزم ، رغبة منهم في زيادة

دخلهم ؛ فالملتزمون هم الذين اتقنوا اسلوب فرض المغارم والعوائد واوجدوا رسماً على الاحمال والغلال . فاساليب السلب راجت رواجاً عظيماً في اواسط القرن الثامن عشر ، حتى تفاقمت من جرائها حالة الارياف ؛ فاقفرت القرى واندثرت المساكن والمزارع ، فتضاءلت الاموال التي كانوا يبعثون بها الى الاستانة .

واما البدو فاذا كانوا في حرب نهبوا بحجة انهم يسلبون اعداءهم واذا كانوا في السلم التهموا كل شيء باعتبارهم ضيوفاً . ولاجل ذلك يقول المثل : « احذر البدو ان صديقاً وان عدواً » .

واصبح الفلاحون يوماً فلاحو البلاد التي تقاصت عنها الدولة ، كبلاد الدروز وكسروان ونابلس . على ان ثمة مصدر اذى آخر يجب عده من اكبر الضربات التي تنزل بفلاحي سورية ، الا وهو الربا الفاحش ؛ فان احتاج القروي الى بذار او بهيمة او غير ذلك ، فانه لا يجد المال لشرائها الا ان باع سلفاً وبابخس الاثمان جميع غلته او قسماً منها .

واظهار المال امر خطر ؛ لاجل ذلك من لديه مال يحرص عليه ويحجبه ولا يرضى بالتخلي عنه الا اذا ايقن انه بربح وافر سريع . واقل الادنى اثنا عشر في المئة ، والعادي عشرون ، وكثيراً ما يكون ثلاثين .

فيتضور القروي جوعاً من جراء ذلك كله فتجده مضطراً الى الاقتيات بخبز الذرة والشعير ، وبالبصل والعدس المطبوخ في الماء ، ومع انه لم يأنس الاكل الطيب ، فيحسب الزيت الحار والدهن الزنخ الذ المآكل واطيبها ولئلا يفقد شيئاً من الحبوب يذر فيها ما هو غريب عنها ، حتى الزيوان الذي يسبب دواراً وصداعاً يدومان بضع ساعات . وفي لبنان ونابلس يأكلون في ايام المحل البلوط المشوي تحت الرماد .

ولا يملك القروي بسبب ضيق ذات يده ما هو في حاجة اليه من عُدد الفلاحة ؛ فان كان لديه شيء منها ، فهو من الصنف الذي لا يجديه كبير نفع . فمحراثه ليس في الغالب سوى فرع شجرة له شعبتان ، ويفلح به على الحمير والبقر ، وقلما يستخدم الثيران ، لان الثور دليل الغنى الذي يثير طمع الحكام .

وفي الانحاء المعرضة لاعتداء البدو ، كما هو الحال في فلسطين ، يضطر الى حمل بندقيته عندما يزرع حقله ، وما ان تنضج السنابل حتى يبادر الى حصدها ودفنها واخفاء قمحها في المطامير ، ولا يأخذ منه للبذر الا ما يعطيه مقدار الذي لا يمكنه الاستغناء عنه . لاجل ذلك يقتصر الفلاحون على ما هم في شديد الحاجة اليه من قوت ولبس ، عائشين في ضيق دائم .

الصناعة والتجارة والبضاعة

ان التجار وارباب الحرف في سورية اقل بؤساً من قروييها وفلاحيها ، اذ ما يملكه التاجر او الصانع مؤلف من اشياء يسهل نقلها ، فلا يقع بصر اولياء الامر عليها . ومن السهل ان يتخفى الصانع والتاجر المثريان في المدن من نهم الحكام وجشعهم . وهذا الامر هو احد البواعث على اكتظاظ مدن سورية بل سائر مدن تركية . واذ لا يأوي الى المدن من فلاحي البلاد الاخرى الا الذين يمسهم ضيق في حاجة الى سواعدهم . فلاحو سورية يلجأون الى المدن هرباً من الظلم ، فيهجرون اراضيهم التي لا غنى لها عنهم ، ويجدون في ملاجئهم الامان والطمأنينة .

والحكام يبذلون قصارى جهدهم حتى السكينة مستتبة في المدن ، فسلامتهم ذاتها قائمة عليها وربما كانت عاقبة ثورة او انتقاض وبالاً عليهم . ثم ان الباب العالي يضغط عليهم ان يرسوا في ادنى اقوات الشعب ؛ لاجل ذلك يبذلون ما في وسعهم لحمل المواد الغذائية بخسة الاسعار الى الاماكن الكثيرة السكان ، وعلى الاخص في المدن التي يقيمون فيها حتى اذا حدثت مجاعة ، كانت هناك حمية الولاة ، فيأمرون عندئذ نقل الحبوب الى بلد آخر ، ويجبرون اصحابها ، تحت طائل العقاب الشديد ، على بيعها بالاسعار التي يعينونها ؛ واذا خلت من المدينة ، جلبوها من الخارج ، كما حدث في دمشق سنة ١٧٨٤

ففي تلك السنة اقام الوالي المراقب على الطرق ، واوعز الى البدو بنهب جميع الاحمال المعدة لغير دمشق . وامر سكان بلاد حوران باخراج جميع الحنطة من مطاميرهم . لاجل ذلك لم يدفع الدمشقي آنئذ

ثمنًا لاقة خبز سوى ثلاثة بارات (١) بينما كان الفلاح يتضور جوعًا .

ولكن بما ان كل شيء له رد فعل ، فالضرر الذي لحق حينئذ بالفلاحة ، أثر في الصناعة والتجارة . واما التجارة هنالك فهي اليوم كما كانت عليه في سالف الزمان ، اذ كانت الدنيا غائرة في لجة الجهل والبداوة . فعلى الساحل السوري بجمعه لا نجد مرفأ تستطيع سفينة تستوعب ما زنته اربعمئة طن ، ان ترسو فيه ، وارصفة الموانئ الباقية حتى الآن معرضة لاعتداءات الاعادي ، اذ ما من حصون تحميها . فقرصان مالطة كانوا يدنون من تلك الارصفة ، ويدلون الى البر ، ويغنمون ما استطاعوا . وما ذلك الا لانه لم يكن هنالك ما يصدهم . وبما ان السكان كانوا يلقون على عاتق التجار الاوربيين تبعة تلك الاعتداءات ، فالدولة الفرنسية توصلت بمساعيها الى رد القرصان من الساحل السوري . فصار في وسع السكان ان يركبوا البحر بلا خوف . لذلك احدث الملاحة تروج ما بين اللاذقية ويافا .

وسورية ليس فيها طرق منظمة ، ولا ترع ملاحية ، ولا جسور على الانهر ومعادي السيول . ووسائل اتصال مدينة بمدينة معدومة . والبريد البري هو وحده الذي يأتي من الاستانة الى دمشق عن طريق حلب ، ولا يحط الا على مقربة من المدن الكبرى . وقد اجازوا له ان يأخذ عند الضرورة فرس اي مسافر يصادفه . وينتظر دوماً فرساً ثانياً محلاً بعدة شائنة عند الثغر ، وكثيراً ما يصطحب رفيقاً ، احترازاً مما عساه ان يحدث له من المفاجآت . وتوصيل الرسائل من مدينة الى مدينة يتم بواسطة المكارين ،

(١) اربعون بارة تساوي قرشاً تركياً ذهبياً .

غير ان سفرهم ليس له مواعيد معينة ، كما انهم لا يستطيعون السفر الّا في القوافل . وما من احد هنالك يقدم على السفر بمفرده ، نظراً الى فقدان الامن . فيجب على من يروم الذهاب الى مكان ما ، ان ينتظر قيام حملة مسافرين قاصدين ذات المكان ، او يتحين سفر احد الناس من ذوي النفوذ الذي يحمل معه حامي القافلة ، ولو انه يكون في غالب الاحيان هو المستبد بها . فاحتراز كهذا لا بدّ منه ، وعلى الاخص في الجهات المعرضة لاعتداء البدو ، كفلسطين واطراف البادية . والطريق التي ما بين حلب والاسكندرون حيث يكثر اللصوص .

والشواهق الجبلية وعرة ، والقرويون بدلاً من تمهيدها ، يزيدونها وعورة وصعوبة ، ليحولوا دون وصول فرسان الحكام اليهم .

وليس في سورية كلها عجل او مراكب ، خوف السكان من استيلاء الحكام عليها . وجميع الاشياء يجري نقلها على الدواب ، فيستخدمون في الاماكن الجبلية البغل والحمير ، لانها تستطيع تسلق الصخور والانحدار من عليها . ويغلب استعمال الجمل في السهول ، فرنة حمله العادي سبعمئة وخمسين ليبرة (أي نحو ثلاثة وسبعين كيلوغراماً) . وهو لا يأنف من أكل اي علف كان ، ان نباتاً او عوسجاً ، او عجينة تمر معجونة ، او فولاً . فليبرة واحدة من العدس ، وليترماء ، يكفيانه سحابة يومه . ويمكن تسييره اسابيع . ويقطع في الاربعين ساعة او ست واربعين ، بما فيها ساعات الاستراحة ، المسافة التي ما بين السويس والقاهرة ، من غير ان يأكل او يشرب . الا ان امتناعه المتواتر عن الاكل يضعفه ، فيبخر حينئذٍ فمه حتى تمي رائحة فمه كرائحة الجيف . وسيره الطبيعي بطيء ومن الصعب استحثاثه على الاسراع لانه لا يستطيع تمديد سيره .

واما الفنادق فلا وجود لها في تلك البلاد . وفي كل مدينة او قرية كبيرة بناية تدعى خاناً يحط فيه المسافرون . وهي مؤلفة من اربعة اجنحة في وسطها باحة . وغرفها صغيرة عارية لا شيء فيها سوى العقارب والغبار ؛ فصاحب الخان يعطي المسافر مفتاح احداها وحصيراً ، وعلى المسافر ان يهتم بما يحتاج اليه من اكل وشرب وفراش ؛ لاجل ذلك يحمل معه ابداً فراشه ، وادوات مطبخه ومؤنته . ومن عادة الشرقيين ان يجعلوا عدة سفرهم خفيفة سهلة النقل . فاذا اخذ معه مسافر يرغب في ان لا يعوزه شيء ، سجادة ، وفرش ، ولحاف ، وقدران الواحدة اصغر من الاخرى وصحنان ، وابريقان ، واباريق للقهوة ، وعلبة صغيرة من الخشب لحفظ الملح والبهار ، وستة فناجين بلا عروة تدخل بعضها في بعض داخل غلاف من جلد ، وسفرة مستديرة من جلد تغلق بسير ، وقرب صغيرة للزيت والماء والعرق اذا كان المسافر مسيحياً ، « وعليون » ، وقداحة ، وطاس ، وشيء من الارز ، والزبيب ، والتمر ، والجبن القبرصي ، والبن الاحمر ، ومحمصة ، وهاون خشب لسحق البن .

ان الشرقيين يفوقون غيرهم من حيث مقدرتهم على الاستغناء عن اشياء كثيرة استعماله مفيداً . والاوربيون لا يكتفون بادوات السفر تلك ، بل قلّ ما يسافرون نظراً الى معداتهم الباهظة ؛ بينما نجد اكثر السوريين في لا يستنكفون من قضاء حاجات من عوزهم على طريق بغداد ، او البصرة ، والقاهرة ، او الاستانة ؛ فاذا قلنا هذا الرجل تاجر ، فكأننا نقول هو مسافر .

فهكذا يتمكن التجار السوريون من شراء البضائع من مصادرها الاصلية باسعار ملائمة ، ومن المحافظة عليها بحملها معهم ، وصيانتها من

التلف . وقد يتوصلون ايضاً الى نيل بعض الاعفاءات من المكوس والرسوم ، والى اتقانهم معرفة الاوزان والمكاييل التي تعددها وتباينها يجعلان المتاجرة في غاية الصعوبة ، لان كل بلد له اوزانها ومكاييلها ؛ فرطل حلب يساوي نحو ست ليبرات ؛ ورطل دمشق خمس ليبرات وربع الليبرة ؛ ورطل صيدا اقل من حمص ؛ ورطل الرملة نحو سبع واما الدرهم الذي هو اساس جميع هذه الاوزان ، فانه لا يتغير اذ هو واحد في كل مكان . واما المقاييس فليس منها الا اثنان هما الذراع المصري ، والذراع الاستنبولي .

والنقود قيمتها ثابتة ، ويستطيع المرء ان يتجول في جميع انحاء المملكة من غير ان تدعوه الحاجة الى ابدالها واصغرها البارة التي تدعى ايضاً « معدناً » او « فضة » او « قطعة » او « مصرية » ويليها الخمس بارات ، والعشر ، والعشرون ، و « زلطة » التي تساوي ثلاثين بارة ، فالقرش الذي يقال له ايضاً « القرش الاسدي » ، وقيمته اربعون بارة ، وهو الاكثر تداولاً ، ويليه قرش « ابو كلب » وقيمته ستون بارة .

وجميع هذه النقود يسكونها من الفضة الممزوجة بكثير من النحاس وليس على اي قطعة منها نقش يمثل هيئة انسان او غيره ؛ فلا يرى عليها سوى شعار السلطان وهذه الكلمات : « سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان بن السلطان ... ضرب في القسطنطينية او في مصر . » وهما المدينتان اللتان يضربون فيهما النقود .

واما القطع الذهبية فهي صنفان ، « الفندقي » و « الزهر المحبوب » .

فتلك هي نقود الدولة ؛ لكنهم يتداولون ايضاً بعض النقود الاوربية كالريال الفضي الالماني ، وذهب البندقية الذي يرغبون فيه كثيراً ، لانه نقي المعدن ، فتتحلى به النساء بثقب قطعه ونظمها في سلسلة من ذهب يدليها من عنقهن الى صدرهن . وكلما اكثرت امرأة من تلك القطع والسلاسل ازداد زهوها وتباهيها .

هو حب الظهور الذي يدفعهن الى ذاك التبرج ، حتى الفلاحات ايضاً يحملن على هذا النمط ، بدلاً من قطع الذهب ، قروشاً او نقوداً اخرى دون القرش قيمة . مع ان نساء الطبقة الرفيعة لا يأبهن للقطع الفضية ، فلا يرغبن الا في الذهب المدقق ، او النقود الاسبانية الكبيرة فالبعض منهن يحملن منها مئتي قطعة او ثلاثمئة يدلين قسماً منها من عنقهن ، وقسماً يصففنه ثم يشددنه على جبينهن عند حاشية عصائبهن . فتلك القطع الكثيرة هي في الحقيقة وقر لكنهن يحملنها طيبة نفس نظراً الى ما يشعرن به من فخر وارتياح عندما يعرضنها في الحمّامات مصرحات بها بنيران الحسد والغيرة في قلوب اترابهن .

واما تأثير ذاك التبرج في التجارة فهو حبس مبالغ طائلة من المال عنها . فان اعيد المال بعدئذ الى التداول في الاسواق ، وزنت كل قطعة منه ليعرفوا مقدار النقص فيها من جرآء ثقبها .

ووزن النقود شائع في سورية ومصر وسائر بلاد الدولة ؛ فانهم يقبلون جميع النقود مهما طرأ عليها من تلف . لان التاجر يعمد الى ميزانه ، فيقدر قيمتها . والامر ذاته جرى عندما اشترى ابرهيم الخليل رمسه . ولدى تداولهم مبالغ ذات شأن ، يأتون بصراف ؛ فيعد الوقت البارات طارحاً جانباً القطع المزيفة . واما القطع الذهبية فانه

بيعها كلها دفعة واحدة ، او كل قطعة بمفردها .

ويزاول التجارة في سورية الفرنج والروم والارمن . وكانت فيما مضى في يد اليهود . واما المسلمون فانهم لا يكترثون لها . واعراضهم عنها ليس ناجماً من خمول ، او مراعاة لعقائد دينية ، كما ظنه البعض . فانهم لا يبالون بها نظراً الى العراقيل التي وضعتها الدولة في سبيلها ؛ فان الباب العالي بدلاً من تعضيده رعاياه على غيرهم ، يؤثر الاجانب طمعاً في الربح . فبعض الدول الاوربية توصلت الى حمل الباب العالي على ان يجبي مكساً مقداره ثلاثة في المئة على البضائع التي تبعث بها الى بلاد الدولة ، بينما رعايا السلطان يؤدون سبعة حتى عشرة في المئة على بضائعهم .

والتجار الاوربيون المقيمون في سورية يتخذون وكلاء من الوطنيين اصحاب المذهب اللاتيني . وقد توصلوا الى اشراكهم في امتيازاتهم ، لاجل ذلك ليس للحاكم وعماله سلطة عليهم ، ولا يستطيع احد تغريمهم ، وان اريد مقاضاتهم نظر في امرهم ديوان القنصل .

وهؤلاء الوكلاء يعرفون في الشرق باسم « تراجمة اصحاب براءة » والبراءات يمنحها السلطان للسفراء المقيمين في الآستانة ؛ فكانوا يهدونها الى هؤلاء الوكلاء الوطنيين . لكنهم منذ الآن يبيعونها ، فيجنون منها ارباحاً لا بأس بها ؛ فثمن الواحدة الفا قرش او الفان واربع مئة . وكل سفير يعطى خمسين براءة ؛ واذا مات صاحبها ، اخذ السفير براءة جديدة بدلاً منها .

ومن الاوربيين الرائجة تجارتهم كثيراً في تركية الفرنسيون الذين يتعاطون فيها بيع جوخ « لنغدق » (Languedoc) والبرودة القرمزية

والنيلة ، والسكر ، والبن الاميركي ، والخردوات ، والحديد ، وصفائح الرصاص ، والقصدير ، وحلل مذهبة ليون ، وصابون ، وغير ذلك .
ويشحنون من سورية غزل القطن ، والصوف ، ونسيجها الخشن .

وللفرنسيين وكالات تجارية (Comptoirs) في حلب ، والاسكندرون واللاذقية ، وطرابلس ، وصيدا ، وعكا والرملة . والبضائع التي يأتون بها سنوياً من فرنسة تساوي قيمتها ستة ملايين وهاك توزيعها .

٣٠٠٠٠٠٠ الى حلب

٢٠٠٠٠٠٠ الى صيدا وعكا

١٠٠٠٠٠٠ الى اللاذقية وطرابلس

٦٠٠٠٠٠ الى الرملة

وجميع تلك البضائع تصل من طريق مرسيلية ، ولا يعني ذلك ان المدن الفرنسية الاخرى الواقعة على الساحل الابيض والمحيط ، لا تستطيع شحن البضائع الى الشرق ، وانما اضطرار السفن الى الرسو اربعين يوماً في محجر مرسيلية ، يجعل سفرها الى الشرق شاقاً وعديم الفائدة .

ومقاطعة « لنغدق » التي تصنع الجوخ ، يبعث للشرق ، التمست غير مرة من اولياء الامر ان يجعلوا فيها ايضاً محجراً ، ليتسنى لها ان تتعامل رأساً مع تركية . غير انهم لم يلبوا طلبها ، حذراً من فتح حلقة مرافئ في وجه وباء مخيف فتاك واهتم به الطاعون .

وكانت الحكومة الفرنسية لا تجيز للغرباء ، ولاسيما الذين يفدون اليها من تركية ، انزال بضائعهم الى الارض ما لم يدفعوا عشرين في المئة مكساً عليها . فهذا الرسم عدلوا عنه في السنة ١٧٧٧ ، بيد انهم في السنة ١٧٨٥ عادوا الرسم المذكور الى ما كان عليه ، مراعاة

لرغائب تجار مرسيلية .

ان تجارة تركية مع الهند واوربة مضرة اكثر منها مفيدة ، اذ ان ما تبعث به تركية اليهم ، جميعه مواد اولية يمكن استثمارها في الصناعة المحلية بارباح طائلة . ثم ان البضائع التي تأتيها منهما ليست من الاشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها بل ، هي من الكماليات التي تزيد في ترف الاغنياء وارباب المناصب ، ولذا آلت الى جعل حالة الشعب اكثر شقاء .

ففي دولة لا تراعي حقوق رعاياها ، يؤدي رغبة حكامها في الاكثار من وسائل الترفه ، الى اثارة الجشع ، وازدياد اعمال السلب والنهب . فالحصول اكثر فاكثر على الاقمشة الفاخرة ، والفراء والجدل الحريرية ، والشال الهندي ، يتطلب المال الوافر ، الذي لا يستطيع هؤلاء احرازه الا بالنهب وفرض المغارم .

الفنون والعلوم

ان الفنون والصنائع في سورية صغيرة، فهي لا تكاد تبلغ العشرين عدداً، بما فيها تلك التي لا يمكن الاستغناء عنها.

ودين البلاد قد حرم الصور والتماثيل، لاجل ذلك لا صور فيها ولا تماثيل ولا ما يتفرع منها من الصنائع. والمسيحيون هم وحدهم الذين يحتاجون الى الصور ليزينوا بها كنائسهم فيجلبونها من القسطنطينية.

ثم ان الكثير من صنائع اوربة الاخرى لا اثر لها عندهم، لانهم ليسوا في حاجة اليها. فمثلاً اثاث منزل صاحبه، هي مقصور على السجاد، والحصير، والمساند، والوسائد، والفرشة، وشراشف قطنية صغيرة، وصواني من نحاس وخشب تستعمل موائد، وقدر، وهاون، ومطحنة، صغيرة سهلة النقل، وصحون من خزف صيني، او نحاس مبيض. واما البسط، والمتكآت، والمرايا، والمكاتب والخزائن ذات الادراج، والكثيرة منها، والتي تحفظ فيها ادوات المائدة من فضية وغير فضية، فذلك كله لا وجود له عندهم.

وملابسهم التي معناها ليست بسيطة، لا ازرار لها، ولا ابازيم، ولا شيء من تلك الاشياء التي لا بدّ منها للاوربيين. فهي مؤلفة من سروال كبير واسع، يقوم في آن واحد مقام الجوارب؛ ومن قطعة من النسيج يتشحون بها؛ وقطعة يشدونها على وسطهم، وثلاثة اثواب يلبسونها الواحد فوق الآخر على منوال المماليك [1].

(1) يلبس المملوك قميصاً قطنياً احمر اللون ناصعاً، ولباساً من النسيج الهندي

فنونهم وصنائعهم تقتصر على نسيج الحرير في دمشق وحلب ، وصياغة حلى النسآء ، وصنع « الظروف » الطرسة ، وتزيين السروج و « الفلايين » . فلا يرى في اسواق تلك المدينتين سوى دباغين ، ونساجين ، وحلاقين ، وصباغين ، وحدادين ، وسراجين ، وصناع اقفال ، ونجارين ، وجزارين ، وباعة الحبوب والتمر والمعجنات ، وتجار خردوات ، « وقرداحيين » . واما البارود فان الحاجة اليه حملت معظم القرويين يلمون بطريقة صنعه ؛ وليس له معمل خاص .

ويكتفي القرويون بالصنائع الاولية التي لا غنى لهم عنها . وكل منهم يجتهد في ان لا يحرز الا ما هو في حاجة اليه . وكل اسرة تصنع من نسيج القطن الخشن ما يلزمها لاجل كسوتها . وكل بيت فيه مطحنة سهلة النقل ، تطحن بها النسآء الذرة والشعير اللازمين لاقتيات اهل البيت . وما يخرج

او الدمشقي الضيق او الحلبي . هذا اللباس يدعى « عنتري » ويصل حتى الكعب ، ويربط من الامام على الوركين ، ويحزم بحزام حريري ثم يلبس لباس آخر من ذات الشكل والصنف ، له كمان متدليان حتى اطراف الاصابع ، اسمه « قفطان » يصنع عادة من الحرير ، وهو اقصر من « العنتري » ويشد بزنار طويل على الوسط فوقه . ثم يأتي لباس ثالث يدعونه « الجبة » ويصنعونه من الجوخ . لا يختلف عنه بشكله واحد ؛ غير ان كميه مقطوعان عند الكوع ؛ فهي تصل الى ... . واحياناً في الصيف يركبون عليه فروا . ويضع الملوك فوق تلك الملابس الثلاثة لباساً آخر اسمه « بنش » (كلمة تركية تعني ... كما نعرفها اليوم) وهو الرداء الرسمي ، فيحجب به جميع الجسم بما فيه اطراف الاصابع التي لا يجوز اظهارها امام الكبرآء . فحينئذ يشبه جسم الانسان كيف يجر منه فوق عال ... تعطيه عمامة من قماش بهوجا شكل مقرن على القسوة صفرآء اسمها « قاوق » .
(من كلام فولني على مماليك مصر) .

من تلك المطاحن ليس دقيقاً تاماً . وخبزهم قليل الاختمار سيء الخبز ، ولكنهم يعيشون عليه ، وذلك كل ما يعرفونه

وقد رأيت كم هي تافهة نفقات عُدد الفلاحة . وفي الجبال لا يشذبون الكروم ، ولا يأبرون الشجر . وجميع ما تراه هنالك يمثل لك ما كانت عليه الشعوب في العصور الاولى ، ولما سألت احدهم عن الباعث على هذا التقهقر من النقص في الصنائع ، اجابني : ما لدينا منها جيد وكاف لنا ، فما الفائدة من ان نعمل اكثر من ذلك .

وطريقة ممارستهم تلك الصنائع لا تختلف عما كان متبعاً فيها قديماً . نسيج الحرير في مدينة حلب ليس من ابتكار العرب ، بل اخذوا صنعته عن اليونان الذين تعلموه من الشرقيين الاقدمين . والاصباغ التي يستعملونها ابتدعها الصوريون الاولون ، وهي ما زالت على درجة من الاتقان تشهد بعبقرية مخترعيها الاصليين . والصباغ الصوريون يحرصون جدّ الحرص على اساليبهم ، فيجعلونها سراً غامضاً ، لا يبوحون به الى احد .

والطريقة التي كانت متبعة قديماً في سقي عدد [illegible] باصبغ الصلد اصونها من معمول ضربة السيف ، هي نفسها المتبعة الآن في مدينتي حلب ودمشق لصنع حائل اللحم[1] .

وقشور الحصة التي يحشون بها السروج ، تثبت عليها بلا مسامير ، ويتركونها على الجلد بالمطلوب يحفظ له مرونته ، من غير ان يترك فراغاً بين قشرة

(1) يقول فولني في حاشية : ان رؤساء الحرس بمصر يلبسون كل [illegible] في الحرب صدوراً [illegible] دروعاً ، ويضعون [illegible] ومواعد من الزرد ، واقنعة اخرى والبسة مصنوعة من الزرد ايضاً ، يرجع عهدها الى الصليبيين . ويوجد من تلك الاسلحة في جامع الدراويش ، الواقع على شاطئ النيل على مسافة فرسخ من القاهرة .

واخرى ، لئلا يسهل على حد السيف حزه .

والملاط الذي يستعملونه ، قد استعمله قبلهم اليونان والرومان ولكي يكون مزجه حسناً ، لا يأخذون الجير الا وهو في حالة الغليان ، فيضيفون اليه مقدار ثلثه من رمل ، وثلثيه من رماد واجر مسحوق . وبهذا الملاط يبنون الآثار والصهاريج وقساً لا ينفذ الماء منها .

وفي فلسطين يبنون القبب باساطين من الاجر ، طول الاسطوانة ثماني اصابع او عشر ، قطرها من داخلها اصبعان ، وشكلها مخروط مخروطاً خفيفاً ، وطرفها الاوسع مفتوح ، والآخر مسدود ، فيصفونها جاعلين طرفها المسدود خارجاً ، ويصلون بعضها ببعض بجص القدس او نابلس ، وفي وسع اربعة من البنائين اقامة قبة كبيرة في يوم واحد . واذا تصدعت منها الاسطار الاول ، حشوها بالتراب فلا يعود ثمة خطر منها . ويسدون افواهها الداخلية بطبقة من الجص ، فيجيء السقف متيناً وخفيفاً في آن واحد .

وفي سورية يبنون بتلك الاساطين حواشي السطوح ، ليمنعوا من النظر اسطحة الاهالي بعضهم او ينشرون الثياب . وقد بدأ الفرنسيون يستعملونها في باريز بعد ما استعملها الشرق منذ اقدم العصور .

والصهر في لبنان طريقته قديمة وسهلة ، فالكور ان هو الا ثقب له شكل مدخنة ، في جنب ارض منحدرة ، محشواً بالارز حطباً ، ويشعلونه ويلقي عليه من اعلى ، يلقون فيه المعدن من فوهته العليا ، فيسقط المعدن كتلاً الى قعر الثقب ، فيسحبونه حينئذ من الفتحة التي اشعلت النار منها .

وفي الشرق حتى مزالج الابواب الخشبية قديمة جداً ، وقد ذكرها سليمان في نشيده .

واما موسيقاهم فانها لم تسبق عصر الخلفاء ، وهو عصر الاعتناء بها اكثر

اعتناء . وبما ان اصولها اخذت عن اليونان ، فالراقصون فيها يجدون المجال فسيحاً للاسترسال في درسها . ولذا كانت القاهرة المدينة الوحيدة التي تتقن اصوله . ولدى المشايخ مجاميع دونت فيها الالحان بعلامات اعجازها فارسية ، لا شبه بينها وبين علامات الموسيقى العربية .

وقد جعلوا موسيقاهم باجمعها صوتية . فهم على صواب في ذلك ، لان آلات الطرب ، ما عدا الناي ، لم تبلغ عندهم درجة الاتقان . ثم انهم لا يعرفون من الطرب سوى مطابقة الاصوات ونقر الوتر الواحد .

انهم يجرون الغناء بالصوت المفرط في جميع مقاماته ، وهو صوت لا يقوى على تحمل مجهوده الا من كان قوي الصدر منهم

والغناء من حيث طابعها وصورها تختلف عن الامم الاوروبية ما عدا الاسبانيولية منها التي يدعونها ([illegible]) . والتصرف الصوتي عندهم اتقن مما هو عليه حتى عند الايطاليين . وتحولاتهم الصوتية من المتعذر على حنجرة الاوروبيين ترديدها وعبارات اغانيهم تصحبها تنهدات وحركات تمثل العواطف بشدة . ويمكن القول انهم يتقنون النوع المحزن . فان رأيت احدهم محني الرأس ، ويده على خده ، ويده بالمثلث ، وسمعت نغمه المحزن ، وتنهداته ، وزفراته ، لم تقو على حبس دموعك من شدة انفعالك ، وقد تكون تلك الدموع ذات عذوبة ومرغوبا فيها ، لانهم لا يجيدون من الانغام الا تلك التي تحمل العين على درها .

والمشرقيون ينظرون الى الرقص نظرة الاستقباح ، لانهم يعدون ذلك اخس شأنا . ومن من رجل يستطيع الاقدام عليه من غير ان يلحقه العار . ولا يجوز الا لطبقة القيام به . فالرقص في الشرق لا يرمز الى الحرب كما هو عند اليونان ، ولا يتألف من حركات مرتبة لطيفة كما هو عند الافرنج ؛

بل هو تمثيل محزني بدوي ، هو الرقص ذاته لدى ادخله العرب في اسبانية ، وما زال فيها حتى اليوم ، وهو المعروف هنالك باسم «فندنغو» (Fandango) وقد يصعب علينا وصفه وصفاً صحيحاً من غير ان نثير الاشمئزاز والكراهة . وكفى القول ان الراقصة تبسط ذراعيها بشكل غرامي ، وهي تعي وتضرب بصُنَيجات (فُقيشات) قابضة عليها بأناملها ؛ ومن غير ان تنتقل من مكانها تأتي حركات قبحها النفس .

والاقدام على مثل هذا الرقص جهاراً يتطلب جسارة بل قحة لا يوفق بها الا الموهوبات من النساء اللاتي يعرفن بلقب «عوالم» ، واشهرهن عوالم القاهرة ؛ فلانة من الصفراء ، وفلانة السمراء ، وحميدة السوداء ، وشاهين الزرقاء ، وايادين الحمصة باحناء ، كل ذلك قد ذكرني برقصات احدى ضواحي باريز التي كان الناس يختلفون الى حاناتها . فاذا كانت هؤلاء النساء فنانات عابثات حتى في الشعوب الاكثر رقياً ومدنية ، فكيف بهن في الشعوب التي اهملت الفنون فما زالت في طور الطفولة عندهم .

والعلوم في الشرق ليست احسن حالاً من الفنون ؛ فهي في اقصى درجة من التقهقر ، ليس فقط في مصر وسورية ، بل ايضاً في سائر البلاد العثمانية ؛ وعبثاً حاول بعضهم انكار هذه الحقيقة استناداً الى مدارس ومعاهد جُدّدوا على ذكرها هنالك الالقاب ليس هي دون الدول التي ينسبه اليها الاوربيون .

عصر الخلفاء مضى وانقضى ، وعصر الابناء لم يبدأ بعد : فتلك البلاد ليس فيها الآن مهندسون ، ولا فلكيون ، ولا موسيقيون ، ولا اطباء . وقلما تجد فيها من يعرف العدد . والتطبيب هنالك مقصور

على الكي وبعض العقاقير . وكتب يمكنهم ان يشدوا الطب ، وليس في البلاد معهد يلقن فيه . وقد عيابوا الى علم الفلك ، وعنه منهم في معرفة الغيب والمستقبل من حركات الاجرام الفلكية . الا انهم لا يجهلون بالعلم العويص الذي يشرح تلك الحركات بالاستناد الى علم الحساب .

ورهبان دير مار يوحنا الشوير الذين عندهم كتب ، وهم حلقة يوما ، لم يسمعوا قط قبل مجيء فولني واقامته بين ظهرانيهم ، ان الارض تدور حول الشمس . وكاد هذا القول يشككهم ، لان ذوي التقوى والورع منهم كانوا يعدونه مخالفاً للكتاب المقدس ، وكادوا يحسبون فولني كافراً زنديقاً لو لم يساور الريب الثالث العالم الذي قال لهم : يجب ان لا نكذب الافرنج ، ولو اننا لا نصدق كل ما يقولونه ، فان ما يقولونه من فنونهم يفوق قدرتنا بمراحل ، ففي وسعهم ان [illegible] ما يعجز عقولنا عن ادراكه . واما فولني فيقول انه خرج من هذا [illegible] دوران الارض على [illegible] علماء بلاده الذين يعدهم هؤلاء [illegible] مجانين .

«فمن اذا شاهدنا من عرب هذا العصر وعرب هارون الرشيد والمأمون، حتى حقيقة امر هؤلاء هي دون ما نتصوره بمراحل [illegible] تقدم طويلا حتى يتاح لهم ان يتقدموا في العلوم تقدماً كبيراً [illegible] في بعض البلاد الاوربية ، يثبت لنا انها ما زالت تفتقر الى عدة قرون لكي تصل الى الدرجة المثلى من الثقافة

اوليس ما في كتب العرب معرفة عن [illegible] ، وصدى لما قاله او كتبه هؤلاء ؟ واما العلم الوحيد الذي هو من صنعهم دون غيرهم وما زالوا يعتنون به ، فهو علم نحوهم ، اي ذلك العلم العقيم الذي يبحث عن اصل الكلمات ومعناها للاستدلال منها على تاريخ الافكار ، فقصد

اتقان فن التعبير الوصفي .

وبدرس الصرف يستغرق عدة سنين ؛ ويليه النحو ؛ وهو علم خاص بالاحوال المختلفة المتواردة على آخر الكلمات بحسب معناها وتركيبها . فمن يتعلم ذلك يعد عالماً . ويأتي من ثم [illegible] ، وهذا ايضاً يستوعب درسه السنين الطوال ، لان المعلمين يجعلون همهم ، فلا يبوحون به الا [illegible] شيئاً ، ثم يشرعون في درس الشريعة والفقه ، الخ . .

ورجال الدين هناك ليسوا كالكهنة والقسس الذين في اوربة ؛ فهم لا يعظون ولا يرشدون ؛ لاجل ذلك لا يشعرون بحاجة الى ادب اللغة [illegible] في درسه ليس متيسراً ، لان لا قواعد لها .

وتعليم الاولاد حتى سن المراهقة يقوم بقراءة القرآن للمسلمين ، والمزامير للمسيحيين ، وشيء من الكتابة والحساب ؛ فيبادرون بعد ذلك الى تعلم حرفة ، لكي يتزوجوا ، ويكسبوا ما يقوم بمعاشهم .

وربما الجهل قد افضى هناك حتى ان [illegible] الافرنج العلوم . ومن الاقوال المأثورة في مرسيلية ان التاجر الافرنجي الاصل ، المولود في الشرق ، جاهل كسلان ، لا يعرف سوى التكلم بعدة لغات .

وقد عزا بعضهم هذا الجهل في البلاد الشرقية ، الى صعوبة اللغة وكتابتها . ولا شك ان صعوبة اللهجات واشتباك الحروف يزيدان في عسارة تعلم اللغة وكتابتها . غير ان الاجتهاد يتغلب عليها ، فيتوصل ابناء العرب الى القراءة والكتابة مثل الاوربيين

واما السبب الحقيقي فهو قلة وسائل التعليم ، ولا سيما الافتقار الى الكتب ، فالكتب كثيرة في اوربة ، ومن شأن ذلك [illegible] كثرة انتشاراً من القراءة . واما في سورية فانهم لا يعرفون سوى مخطوطات كتب احدهم

في دير مار يوحنا الشوير التي مر بنا ذكرها ، والاخرى عند احمد باشا الجزار في عكا . وقد رأينا كيف كانت الاولى ناقصة من حيث الكمية والنوع . واما الثانية ، فالذين رأوها قالوا ان عدد كتبها لا يتجاوز الثلاثمئة ، وهي كل ما تيسر للجزار غنمه من جميع البلاد السورية . بما في ذلك خزانة دير المخلص الواقع على مقربة من صيدا ، وخزانة الشيخ خيري مفتي الرملة .

وفي حلب بيت البيطار هو وحده الذي فيه كتب تبحث من علم الفلك . والقاهرة غنية بالكتب ويوجد فيها مجموعة كبيرة قديمة جداً في الجامع الازهر غير ان علماءها وقراءها يحظرون على المسيحيين .

وحوالي سنة ١٧٧٢ اراد رهبان دير مار يوحنا الشوير شراء بعض الكتب ، فاوفدوا احدهم الى القاهرة لتلك الغاية . وقد اتفق له ان يتعرف هنالك باحد المتصبين الذي تودد اليه . فكانه متعاطياً من علم السحر ، ورغب ذاك المتصبي ان يأخذه معه ، لحمل بقرضه الكتب . وفي مدة اشهر تسنى للراهب ان يطلع على نحو ستين مجلداً موضوعها الصرف والنحو والبيان وشرح القرآن ، وبعض التاريخ والحكايات ؛ ولم يرَ سوى نسخة واحدة من كتاب « الف ليلة وليلة » .

فيتضح اذن ان الشرق يفتقر الى الكتب ، ولا سيما العلمية منها ؛ وذلك لأن الكتب هنالك خطية ؛ ونسخ كتاب واحد عمل بطيء مضنٍ غالي الاجرة ، وقد يدوم عدة اشهر . فمن الصعب والحالة هذه ان تتوفر الكتب وتنتشر [illegible] . واما في اوربة فالامر ليس كذلك ؛ فالطباعة الرائجة فيها كانت هي وحدها الباعث على الانقلابات التي طرأت عليها منذ ثلاثمئة سنة ؛ وهي التي بتعميمها الكتب ، ونشرها الافكار

واذاعتها الاكتشافات والاختراعات ، ساعدت على نمو العلوم والفنون نمواً سريعاً ، اذ جعلتها سهلة المنال لجميع طبقات الشعب . ومطبعة دير مار يوحنا الشوير مع كل ما تفتقر اليه لتبلغ درجة الاتقان ، قد ادخلت على حالة المسيحيين تحسناً ما من حيث القراءة والكتابة وبعض الثقافة .

فقلة الكتب وفقدان وسائل التعليم ، هما ، كما ذكرنا ، سبب الجهل المستحوذ على الشرق ، لكنهما سبب عرضي ؛ واما السبب الاصلي فهو الدولة نفسها التي تبذل قصارى جهدها لخنق العلوم في مهدها . فطريقة الحكم في الشرق تزيل من الشعب امل الانتفاع من العلوم والفنون فالمرء هنالك ، وان كان ذكياً نابغاً ، ولا فرق بينه وبين امهر مهندسي اوربا وعلمائها من حيث علمه وثقافته ، فانه لا يلبث ان يفقد نشاطه بتأثير الجور السائد . فاذ كان العلم الذي لا يمكن الحصول عليه الا بعناء التعب والمشقة ، يجلب الضرر والاسى ، فالافضل الاعراض عنه . لاجل ذلك ترى الشرقيين في هذا العصر اميين عقول ذلك العامل الذي يخاصم قرآه ، فيقولون في العلوم ، كما يقولون في الصنائع والفنون : ما الفائدة من جهودنا فيها .

عادات السوريين وبعض طباعهم

قال فولني :

عندما يحل الاوربي الى سورية او الى اية ناحية من نواحي الشرق ، يسترعي انتباهه بادئ ذي بدء التفاوت بينه وبين سكانها ، وهو تفاوت قد يبدو كأنه قد حصل عن قصد . فنحن نلبس الثياب القصيرة ، وهم يلبسون منها ما هو طويل فضفاض ؛ نحن نعفي شعر رؤوسنا ، ونحلق ذقوننا ، وهم يتركون شعر ذقونهم يطول ، ويحلقون رؤوسهم ؛ نحن نعد حسر الرأس دليل الاحترام ، وهم يحسبون ذلك من امارات الجنون ؛ نحن نحيي باحناءة وهم يحيون منتصبين ؛ نحن نقضي العمر وقوفاً وهم يقضونه قعوداً ؛ يأكلون وهم جالسون على الارض ، ونأكل ونحن جالسون على الكراسي حول الموائد .

وذلك التباين نراه حتى في الامور المتعلقة باللغة ، فيكتبون بعكس كتابتنا ، ومعظم الاسماء المذكرة عندنا ، مؤنثة عندهم . فعلى المتبحرين في العلوم الطبيعية ان يبحثوا عن مصدر تلك العادات المتباينة في شعوب احتياجاتهم واحدة ، واصل منشئهم واحد .

ومما يجدر ذكره ذلك المظهر ملامح واحاديث وحركات سكان تركية الدال على الورع والتقوى . فلا يرى في الطرق والاسواق الا اناس في ايديهم السبح ، ولا تسمع الا الابتهالات مفخمة موجهة الى الله تعالى ، ويطرق ذلك على الاسماع صوت حشرجة مفخمة يتبعها ذكر صفة من صفات الله [illegible] . واذا ما رأوا خمراً او الماء او غير ذلك ، نادوا « يا كريم » ، واذا حييتهم او شكرتهم ، قالوا : الله يحفظك .

وفي طباع الشرقيين امر آخر يستدعي الانتباه، وهو هيئتهم التي تظل هادئة ساكنة، معبسة قليلاً او كثيراً؛ وبدلاً من الوجه الطلق البشوش الذي لأبناء قومنا، ترى ملامحهم رزينة عابسة كالحة؛ فقلما يضحكون. ويعدون مرح الغربيين من عوارض الجنون. وان تحدثوا تحدثوا ببطء، بلا حركة ولا عاطفة ويصغون الى محدثهم من غير ان يقاطعوه. ويلازمون الصمت اياماً كاملة. واذا ساروا مشوا بخطى ثابتة وجرياً وراء عمل او غرض.

انهم لا يدركون شيئاً من مداعبة ونشاطها. ويقضون معظم يومهم في التفكير والتأمل، وهم جالسون؛ وطلبة التلبية في ثغرهم، كأن الحركة تؤلمهم وتتعبهم، او كأن الجمود هو في نظرهم احد عناصر السعادة كما يظن الهنود.

ومن ثم يبحث فوري مدة من الزمن في ذلك السكون عند الشرقيين، وينتقد ما ادعاه كاتب شهير بالاستناد الى اقوال الرومانيين واليونانيين، من حب الاسيويين لعيشة النعيم، والى رواية المسافرين العائدين من الهند في شأن بلادة الهنود وكسلهم. وقد حمل الى ذلك الكاتب ان الكسل طبيعي من طبعهم، ومصدره او الباعث عليه حرارة بلادهم، وقال ان سكان البلاد الحارة معدمو النشاط جسماً وفكراً. وقد ذهب الى ابعد مدى في استنتاجه، ورأى ان استبداد الحكم عندهم ناجم عن بلادتهم، واستخلص من ذلك ان الحكم الاستبدادي ملائم وضروري لهم.

تلك كانت النظرية التي جاء بها "مونتسكيو" في كتابه "روح الشرائع". ولاظهار فساد هذا الرأي يقول فوري: هل كان الاشوريون شعباً فاشلاً، وهم الذين ملكوا آسية بحروبهم مدة خمسة قرون. وماذا

تقول في المديين الذين خلفوا بعد الاشوريين، وانتزعوا الحكم منهم؟ او في فرس كسرى الذين توصلوا في رهة ثلاثين سنة الى الاستيلاء على جميع البلاد الواقعة ما بين بحر الروم ونهر الاندوس؟ فهل كانوا ضعاف الهمة معدمي العزيمة؟ أيجوز ان نقول ان الفينيقيين الذين سيطروا عدة قرون على تجارة المسكونة، او المصريين الذين خلفوا للاجيال التي اتت بعدهم الآثار القديمة الخالدة، كانوا جميعهم اكسالاً، لا حماسة فيهم ولا نشاط ... اذن لماذا لم يؤثر فيهم حر بلادهم؟

ويعتقد فولني ان بلادة امة او نشاطها ينجمان عن خصب بلادها او جدبها؛ فان تيسر لها ان تجني بسهولة ما تحتاج اليه في معيشتها، تظل خاملة. والحاجة والفاقة هما مصدر العمل المتواصل؛ فان معظم بلاد الشرق قاحلة، تقصر عن القيام بمعاش سكانها. فلاجل ذلك كانت البلاد الخصبة تستثير فيهم عوامل الطمع.

ويتساءل من ثم عن سكون الشرقيين او ما يدعوه «برودتهم» (flegme) وعدل العرب، وميلهم الى المداعبة، ويبحث عن اسباب ذلك، فيجدها في الاكل والشرب ومعاشرة النساء. فالخمر محرم على الشرقيين شربها. والاكل الطيب الدسم يؤدي بهم الى المعيشة الخاملة التي تؤثر التبلد. واما مخالطة النساء فهي امر تحول دونه العادات والاعتقادات. لان النساء في الشرق محجور عليهن؛ فلا يستطعن مقابلة احد من الرجال ما عدا ازواجهن وآباءهن واخوتهن واحياناً ابناء عمومتهن. ويعد جميع الرجال غرباء عنهن، فلا يجرؤون على محادثتهم. ومن الامور المخلة بالادب التحدث اليهن. والمحتوم تركهن يسرن على حدة، بغير الاكتراث لهن او الالتفات اليهن.

ثم ينتقل فولني الى البحث عن تأثير ذلك كله في اخلاق السكان الشرقيين ، ومعاملة الرجال لهن ، ثم يقول : يحسب الشرقيون العقم عاراً ، وكثرة النسل امراً مرغوباً فيه ، ويتشاءمون من هذا القبيل الاقدمين ؛ ومن احسن عبارات التمني التي يشكر بها فتاة ، ان تصير عروساً وترزق الكثير من البنين . هذا ما يحملهم على الاسراع في الزواج . وكثيراً ما يعقد زواج فتاة في التاسعة او العاشرة من عمرها ، على فتى لا يتجاوز سنه الاثنتي عشرة او الثالثة عشرة من عمره . وقد يحملهم على التبكير في الزواج الخوف من السقوط في حمأة الدعارة والفجور .

ثم يذكر شيئاً عن تعدد الزوجات ، ويبسط ما قيل في ذلك الشرع ، ويقارن المسلمين بالمسيحيين ، فيفضل اولئك على هؤلاء . ويقول : ما افضت في شرحه عن اخلاق الشرقيين يوضح بجلاء بيان ان العيشة على نمط واحد تؤثر في اخلاقهم ؛ فان وسائل التسلية في الاماكن التي هي اكثر نشاطاً من غيرها ، كحلب ودمشق والقاهرة ، تقتصر على الذهاب الى الحمامات والاختلاف الى المقاهي حيث يقضون ساعات يومهم في التدخين والتحادث عن اشغالهم بعبارات نادرة وجيزة . وقد يجيئهم احياناً منشد او رقاصة او قصاص يروي لهم الحكايات ، او ينشد قصيدة من نظم احد الشعراء الاقدمين ؛ فيصغون اليه بمزيد الانتباه . وليس هنالك ، من هذار ومكثار ، مولعون بالقصص والروايات ، والشعب نفسه يتناقلها في ساعات الفراغ .

والمسافر الذي يركب البحر من [illegible] ، يأخذه العجب اذا ما رأى البحارة مجتمعين في اوقات الهدوء او اوقات الاستراحة حيث يقضون ساعتين او ثلاث ساعات في الاستماع لما يقوله احدهم . ولا يجب على

ذاك الشاعر ان يعرف مما يطرق اذنه من قواف وقياس متتابع انهم يصغون الى قصيدة .

ويعترف فولني ان الشرقيين امهر من الغربيين في نظم القريض ، وارق منهم شعوراً في امور اخرى عامة الشعب في المدن ، ولو انهم محافظون صامتون ، الا انهم ليسوا قساة القلوب كسكان المدن في الغرب ، وهم يستحقون من اجله كل ثناء واطراء ، خلوهم من تلك العادتين القبيحتين ، اعني بهما السكر والميسر . وقد يميلون الى لعب الشطرنج ، والبعض منهم يتقنونه تمام الاتقان ، ولا يعرفون من مناظر التمثيل الا نوعاً واحداً مألوفاً في القاهرة دون غيرها ، وهو الذي يقوم بتمثيله مشعوذون قد حذقوا فيه : فتراهم يأكلون الحصى ، ويخرجون النار من افواههم ويثقبون ادمغتهم وآنافهم من غير ان يشعروا بألم ، ويأكلون الافاعي .

فتلك الشعوذات يقومون بها بطرائق واساليب يموهونها على الناس ، والشعب يُجلهم ويعجب من مهارتهم . والكثيرون يؤمنون ايماناً ثابتاً بحقيقة ما يشاهدون ، والشرقي ميال الى تصديق كل ما يقال له ، فهو حتى اليوم يؤمن بالعفاريت والجان .

ويُطري فولني ذكاء الشرقيين ، وحديثهم الحلو ، وعواطفهم الحارة ، وإلهامهم الصحيح بالاشياء التي يعرفونها ، وميلهم الى التعبير بوجيز الكلام عما هو حق وصواب ؛ فالامثال التي يتناقلونها والحكم التي يُرددون ذكرها ، تدل على انهم يعرفون كيف يجمعون بين دقة الملاحظة وغموض المعنى ولواذع التعبير .

ويعترف هو نفسه بان عشرتهم عذبة جذابة ، وان السياح والتجار الاوربيين الذين عاشروهم يحكمون على الاقرار بانهم يفوقون الاوربيين

برقة طباعهم ، وكرم اخلاقهم ، وسلامة طويتهم ، ولطافة معاملتهم .

ثم يختم قراءة هذا الفصل ، بل كتابه كله ، عن سورية ، بوصفه التأثير الذي شعر به اذ وطئت قدماه ارض الوطن ، بعد غياب دام ثلاث سنين ، فيقارن الخراب المنتشر في الشرق بعمران بلاده ، فيقول : لقد استحوذت علي الدهشة اذ نقلتنا بواخرنا السريعة من شواطئ البحر الاوسط والبحر المحيط ، بعد تلك القرى الخربة والصحارى الواسعة في اقفرت ربوعها ، وجدت نفسي قد انتقلت فجأة الى جنة لا نهاية لها ، فيها الحقول المزروعة ، والمدن المعمورة ، والمساكن الرائعة ، وهي تتوالى بلا انقطاع سبعة عشر يوماً . ونسيت مقلتي ما رأيتا الحية بالبيوت الحقيرة التي غادرتها مشيدة بالاجر والتراب ، وبدت لنا ذات منظر الدال على الاقتناء وامتى بالمدن الشرقية الخربة المهملة ، وبلاد الدولة العثمانية المهددة المضطربة الاركان ، وبلادنا التي تعيش عليها حيث ، ويرفرف في سمائها الامان والاطمئنان ، ويشير كل ما فيها الى عظم قدرتها وثروتها ، شعرت في نفسي كاني انتقل من الاحلام الى الحقائق ، ومن الخيال الى التأمل والتفكير ، فقلت في نفسي : لماذا هذا التفاوت العظيم بين ارضين متشابهتي الطبيعة ، وافيها من الثروة ! ولماذا كل هذا الاجتهاد والنشاط هنا ، وكل ذلك الجمود والخمول هنالك ! ولقد كدت اغرق التفكير بين شر انه حسن واحدا ! ثم تذكرت ان تلك الاصقاع التي رأيتها مقفرة خربة متوحشة ، كانت في العصور الخوالي مزدهرة ، غنية ، عامرة ، فتطرقت افكاري الى مقارنة ثانية ، وقلت : وان كانت الدول الاميركية السائدة هي ايضاً قد حدث ، في سالف الزمن ، مثل ذلك الهناء والرخاء ، ألا يمكن ان ما نزل بها يصدق على الموئل والمكتبات ،

بصيب ذات يوم الدول الاوربية نفسها . وذاك الفكر الفلسفي واحرثني،
لكني رأيته لا يخلو من الفائدة . لنفرض اذاً ان نذرأ حال مصر
وسورية اذ كانتا في اوج عزهما ومجدهما ، ونرأهما بعد متقلبتين من
الرزايا والبلايا ما تقاسيانه اليوم ؟ ولنفرض ايضاً انه قال لهما : «ستدفعكما
هذه الشرائع وهذا الحكم الى اسفل دركات الذل والهوان . » أما من
المرجح انهما تكونان عندئذ ما تستطيعانه لاجتناب مثل هذا السقوط .
والتي» الذي لم تصلاه حينئذ ، في وسعنا نحن الآن ولتكن منها
امثولة لنا . ومن فوائد التاريخ ان ما حدث في الماضي من شأنه ان
يسدد خطانا . والرحلات التي نقوم بها الى مختلف البلاد ونشهدها
معاينة ، لانها تتيح لنا ان نعمم النظر في أحوالها ، وندرك حقيقة امورها
ونفهم حوادثها في مجرياتها ، ونستقصي كل علاقة من علائقها ، ونلم
بجميع اطوارها ، عدا عن الادوار التي يقوم بتمثيلها نظام حكومتها . فان
ما يرويه الرائد عن البلاد التي اجتاز بها معتقداً ما فيها ، يصبح الدليل
على عوامل ارتقائها وانحطاطها ، بل الوسيلة التي تمكن من معرفة الحد
لكل سلطة . وتركية من هذا القبيل بلاد ذات فوائد جمة ؛ وما
شرحته عنها يدل باجلى بيان على مدى الاضرار الناجمة عن السلطة
التي يساء استعمالها ، اذ ما فتئت شدة الافراد وتلاشي شوكة الحكم .
ومن الواضح الذي لا ريب فيه ان خراب امة يعود بالويل على نفسه .
لاجل ذلك نجد الحكام عقاب تعاليمهم وعوائدهم في بؤس وشقوة حال
الشعب الذي يسوسونه .

ملحق

في

قصص مظالم الجزار

* وصف بعض حوادث [illegible] جرت في سوريا بعد رحيل بونابرت وكان بطلها احمد باشا الجزار [illegible] وقد [illegible] ذكرها هنا تتماماً للفائدة . واما الكتب التي اعتمدنا عليها فهي : « تاريخ سوريا » [illegible] « مجمل [illegible] » [illegible] « ساحرة الصحراء » [illegible] « مختصر تاريخ مصر » [illegible] « كشف الزهور في تاريخ الدهور » ليوحنا ابكاريوس .

كانت البلاد السورية لا تزال من احمد باشا الجزار ، في ابان حكمه الطويل ، تذوق السوريين من الجور والعسف ما يقصر القلم عن وصفه . والرجل مال منذ حداثته الى سفك الدماء . وقد رأينا فيما كتبه فولني كيف كان مولاه علي بك المصري يستخدمه للفتك بالخصوم والمناوئين . ومع حداثة سنه كان الكبار والصغار يخافونه ويلقبونه « بالجزار » ، وهو الاسم الذي عرف به فيما بعد ، ولازمه كل عمره [illegible] فقد كان غليظ الكبد ، مجرداً من كل عاطفة شريفة ، بل كان ابعد ما يكون صدقاً ، لا يراعي لصديق ذمة ، ولا لحليف ولاء ، ولا لقسم حرمة .

وكان الحكام في ذلك العهد مطلقي السلطة ، يتصرفون بشؤون البلاد وارواح العباد كما تملي عليهم اهواؤهم من غير ان يحاول احد مناقشتهم

الحساب ، او يجرؤ على ما يزعجهم . ومن سوء طالع سورية ان الجزار توصل بدهائه وبذل المال الكثير في حمل الباب العالي في سنة ١٧٨٥ على اسناد مقاليد ولاية دمشق اليه ، مع ابقائه عاملاً ، في الوقت ذاته ، على ايالة عكا . لكن مدة حكمه في دمشق لم تتجاوز السنة الواحدة ، لان اعيان المدينة الذين اوجسوا شراً من عزمه على احتكار جميع حنطة حوران وغيرها ، بغية ان يبيعها من السكان بسعر فاحش ، رفعوا شكواهم الى الاستانة وانتهزوا فرصة غيابه في الحج ، فصدرت « الارادة السنية » بعزله قبل رجوعه من الاقطار الحجازية . وارسل قاضي دمشق الى « المزيريب » ، وامامه الامر القاضي هذا الى عكا من دون ان يعرج على دمشق ، وقد اخذ معه الحنق كل واحد في عكا .

وقد تمكن من ادارة حبال تآمرهم في تولية على مدينتهم ثانية في سنة ١٧٩٠ ، فكان كما سبقه لدى عودته من الحج ، يقضي الغرض من الذين بين ظهرانيهم ، فيطلق العنان لنفسه . ولما كانت معرفة شتى ضروب الاثم والمظالم . ففي السنة الثانية لتوليه الحكم ، قتل خنقاً في القلعة مئة وستين رجلاً ، وفي السنة التالية قتل ايضاً ستين رجلاً . وقد اعدم ثلاثة علماء باوامره مفتي دمشق عبد الرحمن المرادي ، وعلي بك حفيد احمد باشا العظم ، وغيرهما من ذوي الوجاهة والمكانة .

ومن شدة مكره وخبث نيته ، كان يلقي بعض الدعاوى ، ويحملهم على قتل بعضهم بعضاً كي يزيد قلقهم ؛ فكان العجز من هؤلاء الدعاة يتربون حرصاً من هول العقاب الفظيع الذي يأمرهم به . وقد دامت حكمه هذه المرة حتى سنتين .

فارباب الامر في الاستانة الذين لم يكونوا يباتون بما يصيب الرعايا من

احيب على يد الحكام ، جعلوا الجزار والياً على دمشق دفعة ثالثة في سنة ١٨٠٣ ، لكن مدة حكمه لم تطل ، اذ انه هلك وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وليس ابلغ مما قاله في موته احد معاصريه للدلالة على كره الناس له ، وفرحهم بهلاكه ، وهو :

وافى السرور وصحّ ترجيع الأمل   هلاك ظالم لا يعادله مثل

ومن مظالمه التي لا يحصرها عدٌّ شنقه للامير يوسف وكخيته عبدو بحوري[1] وامره بابقائهم معلقين ثلاثة ايام ؛ ولكن اتفق في مثل هذا اليوم [illegible] ، عاد الى رشده ، وبعث الى سيف [illegible] بامره بالعدول عن قتل الامير . وانما كان قد سبق السيف العذل ، فان اوامره وصلت الى الجلاد بعد ما علق الامير على اعواد المشنقة ، وزهقت روحه [illegible]

وبيروت ايضاً لم تنجُ من جور الجزار ، فانه احدث فيها ضرباً جديداً من ضروب الظلم اذ الزم رجلاً يدعى « فارس الدهن » [illegible] الحكام من اموالهم بدل مبلغ قدره مئتان وخمسون الف قرش اداه اليه الرجل

---

(١) هو كاتب كخية الامير يوسف [illegible] ابو عبدو بحوري هذا قد توسل الى حمل دولة الفرنسية [illegible] في مدينة بيروت والجزار الذي [illegible] الرجل قبل ذلك [illegible] ، حتى [illegible] ، واخذ يتعجب [illegible] الامير يوسف عن الحكم [illegible] بدلاً منه الامير بشير بن قاسم [illegible] الامير يوسف [illegible] الى والي دمشق الذي كان [illegible] ، والحكم [illegible] عبدو [illegible] الاربعة من دمشق . [illegible] يوم الى صيدنايا ، فرأى الكنائس مغلقة ، والكهنة [illegible] في البيوت . [illegible] الى [illegible] الارثوذكسي ، [illegible] الى دمشق والتمس من [illegible] اعادة الكنائس الى اصحابها الاصليين ، فكان له ما اراد .

الذي جعل من ساعته يسوم الناس خسفاً وعسفاً ليبتز منهم ما استطاع من المال . وكان يقبض على الذين يتقاعسون عن تأدية المطلوب منهم ويلقيهم في غياهب السجن ، ولا يفرج عنهم الا بعد ان يقوموا بدفع المفروض عليهم

ومن البديهي ان يحتفظ فارس بدهان بسهمه الشطر الطيب مما كان يدخل عليه على هذا النحو ، حتى غدا في وقت قصير من الاثرياء فاستثار ذلك حسد المدعو الياس نصير الذي طلب من الجزار ان يحله محل فارس بدل ثماني مئة قرش تعهد بدفعها ورأى الجزار خطر فارس بذلك ، وقال له : اما ان تدفع قيمة الاقلام الجديدة ، واما تتخلى عن عملك . فرضي فارس بالزيادة على ان يزيد مراقبة عنفه . فأمر الجزار بقتل نصير . ومنذئذ اشتد ساعده وصار يضيق نصارى بيروت من اهوال امره ، حتى اضطر الكثيرون ان يعرضوا للبيع بعض الاثاث عقاراتهم ومقتنياتهم ، لكي يتمكنوا من دفع المطلوب منهم . على انهم لم يجرؤ احد على شراء شيء منها خوفاً من ان يظنه فارس ذا مال فيمعن في تسليبه .

وهكذا عرفت بيروت شدة لم يسبق لسكانها ان عرفوا مثلها . ومن الذين ذاقوا الامرين رجل من بني طراد رضي ان يضحي بجميع املاكه ليقوم بتأدية المال المطلوب منه ، لكن سعيه ذهب ادراج الرياح . ولما فرغ صبره ، ولم يبق له طاقة على احتمال عذاب السجن ، طلب ان يسمح له بالخروج منه ليسعى لدى معارفه واصدقائه ليمدوه بما كان مترتباً عليه فما ان وصل الى شاطئ البحر حتى افلت من الحارس الذي كان يصحبه ، والقى نفسه في اليم ، مفضلاً الموت على البقاء في قيد الحياة ومقاساة اضطهاد العتاة .

بيد ان فارساً لم يعش طويلاً ليتمم ثمر جرائمه، فانه بعد ان مات من السكان خلق كثير، وبعد الاول من المدينة، ولم يبق للجزار امل في الحصول على اكثر مما حصل عليه، اطلق سبيل من كان منهم باقياً في السجن، وقبض على فارس، واخذ منه مئة الف قرش، ثم اماته شر الميتات. وصاحب تاريخ «قطف الزهر» الذي ذكر ذلك قال في ختام حديثه (ص ١٢٩): «وكانت كرتهم (الضمير عائد الى السكان) عصبة فارس اسعاف، وتسلوا عن مصائبهم، وشمت به جميع الناس حتى اقرباؤه واصدقاؤه».

ومن الحوادث الخليقة بالذكر في ايام الجزار، مجيء بونابرت من مصر في سنة ١٧٩٩ على رأس جيش كبير، وضربه الحصار على عكا، ثم رجوعه عنها من غير ان يفوز بطائل، بعد حصاره لها من ١٩ آذار حتى ٢٠ ايار من تلك السنة. وقد ابدى الجزار شيئاً كثيراً من الثبات والمثابرة على المقاومة بمؤازرة طائفة من السفن الانكليزية بقيادة السر سدني سميث التي حالت دون اقتراب المراكب الفرنسية من عكا. وكان المشرف على وسائل الدفاع «فيليبو» عدو بونابرت وخصمه في مدرسة الحربية بمدينة «بريين» (Brienne).

وعكا هي المدينة التي قاست الاهوال من جور الجزار واستبداده، اذ جعلها مقرّاً وقاعدة حكمه؛ وهو لم يقتصر على تحصينها والاقامة فيها، لا لان الشيخ ظاهر العمر كان قد حصنها وجددها وشيد فيها قصراً وجامعاً. ومن المدهش ان يصيبها اكبر قسم من مظالمه، وقد قضى فيها شطراً كبيراً من حياته. وكانت آثار مظالمه ماثلة للعيون حتى بعد موته. فكان يرى في اسواقها وشوارعها رجال جُدع، فالبعض

منهم كانوا بلا ذنب ، وآخرون بلا ادب ، وكثيرون كانوا هوراً .
فالجزار كان في ساعات الفراغ يختلف الى احدى مقاصير قصره المطلة على الشارع ، فيراقب من نافذتها ما يجري هنالك ، فان وقع نظره على عابر سبيل دميم الخلقة ، يأمر باحضاره اليه ، واذ يمثل امامه يقول له : « لم أرك من قبل » او : « انك من نذير التشاؤم » . ثم يلتفت الى احد مماليكه الزنجي سيف نقمته (٢) ويقول : « رجل قبيح المنظر كهذا لا يستحق ان يبقى في قيد الحياة » . ثم يأمر بدق عنقه ، او بتر اذنه ، او جدع انفه ، او فقء عينه .

وكان رجاله عملاً بأوامره يأتونه بالذين يمرون بالشارع الكبير في وقت من الاوقات . فيوقف بعضهم الى يمينه ، والبعض الآخر الى يساره ، ثم يقول : « خذوا الى المشنقة الذين عن يساري ، واتركوا سبيل الذين عن يميني » . وقد حدث ذات مرة ان أمر حلاقه بحلق ذقن رجل غريب من ذوي الوجاهة ، ولما بدت على وجه الحلاق امارات الحيرة والتردد ، قال له : تظهر مظهر المشمئز ، فهل الشعر على اشداقك جعلك لا تحب عملك ؟ فالآن احسنت العمل » . ومن ساعته أمر سيافه بعين الحلاق فقلعها ، وقذف بها في وجه صاحبها .

ومن الذين شوههم على هذا النحو « حاييم » اليهودي الدمشقي المثنى في الديوان ، وكان الجزار قد كتب اسمه مع اسماء الذين عزم على

---

(٢) وقع هذا المملوك في قبضة الفرنسيين في اثناء حصارهم لعكا ، فعجب بونابرت بشجاعته ، وأمر بمعالجته معالجة طبية . ومن ثم عرف الجميل لآسريه ، فانضوى الى فرقة برساعم . وقد قتل في موقعة ابي قير التي خاض غمارها وهو في طليعة كوكبته .

قتلهم في جدول كان يضعه تحت وسادته ؛ على انه عدل بعدئذ من قتله مكتفياً بقلع عينه ، وجدع انفه ، وبتر اذنه . وعندما مثل حاييم بين يديه وهو مشوه على ذلك المنوال ، اخذ في الضحك والقهقهة ، وقال له : « لم يبق هنا يجدي . انك ستمسي دميماً الى هذا الحد » . ثم دنا منه ووضع يده على كتفه وقال : « انك لسعيد انت يا معلم حاييم لانك صديقي ، فاحمد الله على ذلك ، ولولا محبتي لك لقطعت رأسك من جسمك » وصار حاييم بعد موت الجزار وزيراً لسليمان باشا وكذلك كان عند الامير بشير . ولكنه قتل ، قتله عبدالله باشا والي صيدا اوردته حتفه في سنة ١٨١٨ .

ولما اودع جرم الجزار سكنه بقي في احوال حليفة بعسكره ؛ فهي بعض الصيف اذ كان في اثنائها يخدمه ، ومعه مئتان من مماليكه الاربع مئة ، اعني ستة الغلمان والخصيان المعهود اليهم في حراستهم ، نزلوا في مرقدهم ؛ فمن ذلك حين انقلبهم في عكا تحت يد حرداره قدم مقامه ، فتمكنوا من دخول بلادهم ؛ فاختار الخزندار لنفسه خلافة الجزار المدعوة ربيعة .

وبعد ما قتل الجزار احمد من احبه ، حط يوسف سشارت فيه اوسمة من بعده وبكى مكه ، فقسم ان يعطون مهرة لمن تحتهم منهم فلعت فتحوه ، ولكنه يعرف به الاورد وسبب ، امر سليمان ، وهو امر الخزندار بحشد الجيش في مكان معروف كان ماضياً ، مدعياً انه يريد الزحف به على الامير يوسف حاكم . ان الوجهة هدمة مؤقتة من حوارة والدلاتية والارناؤوط ذهبت الى معسكرهم ، ولم يبق في عكا سوى اثني مملوكاً اتفق عزم على اهلاكهم .

وبينما كان ذات يوم واقفاً على مقربة من احد نوافذ قصره ، لمح رجلاً طاعناً في السن ، وفي يده باقة ، يطرق باب الحريم ، ثم يتناول احد الخصيان الباقة . ولما دخل الجزار مخدع الحريم ، رأى الباقة في يد والدة الحسناء ، فقال لها : « من اين جئت بهذه الازهار ؟ » قالت : « من الحديقة » قال بلطف وتصنع : « تعالي الي [illegible] فقد رأيت [illegible] النصراني يأتيك بها ، فقولي لي [illegible] من هو عشيقك لعلي استطيع ان اوصلك اليه » [illegible] فصاحت [illegible] ثم الجزار [illegible] وانقض عليها ، وامسك بها من شعرها ، والقاها الى الارض ، وصرخ بها قائلاً : « [illegible] من شبهة ، لقد اعترفت بذلك ، ولا نجاة لك من العقاب الذي تستحقينه ان لم [illegible] باسماء شركائك » . وبينما حاولت التأكيد له انها بريئة ، [illegible] بضربة سيف قطع رأسها ، وامر الجنود الموارنة الاربعة الذين [illegible] ان يقتلوا اللاتي [illegible] هناك

وعندما طرق [illegible] المحصنين في باحة القصر ادركوا انه حدث امر جلل ، فاعدوا سلاحهم وانطلقوا الى مقر الجزار ، وهو [illegible] فيه [illegible] ابواب مصفحة بالحديد ، [illegible] جميع [illegible] مجرى الامور [illegible] والجزار الذي استشاط غيظاً [illegible] ونادوا : « [illegible] ما [illegible] بذلك [illegible] ، وها انت الآن [illegible] فنحن والحالة هذه ، نأبى الاذعان لك » [illegible] مستودع البارود متصل بالخزنة فقد هددوا قائلين : « [illegible] من هذا المكان [illegible] لك مقاومتك ، وطل ندافع عن [illegible] الى ان [illegible] ،

فضرم النار في مستودع البارود فدوّت بحيّ ونهك ذلك مما
وبقي عكا خراباً . وامدت تركتنا رجل من عبدان يلحق بنا اذى ،
ولا نعود نفكر في اخذ ثأرنا من عبدي الى حيث لا تسمع عن شيء . فارعد
الجزار وازبد ، ولازوآ عينه امر بطرح بعض جنده في حفرة كلس ،
ووضع بعض الآخر في حرابيق ، والقاهن في اليم . وكان سكان المدينة
في دهشة القصوى خوفاً من الجزار ، ولم يجرؤ احد منهم على الخروج من بيته .
فهي ايه من نا لي بعدما حطم اولئك قضبان النوافذ الحديدية ،
وعبر البرج ، اخذوا معهم عدداً من المال الذي كان في الخزنة ،
وفروا الى جبال قاصيا ، وهم على آخر رمق ، وثيابهم ممزقة ، والدم
يسيل من ايديهم وقططهم وهم على تلك الحال اثار شعور سليمان الذي
اسرع الى الانضواء اليهم فاتكا بالعصيان ، وتعقبت الجنود باحثهم على
الجزار ، فحالفوا الامير يوسف ، واستولوا على صور وصيدا ، وزحفوا
من ثم الى عكا ، فاصبح الجزار في احرج مأزق . مع انه لم ييأس ،
بل ظلّ ثابت الجأش شديد البأس . فاورد حاشيته الذين شعروا آنئذ
اني من الحيرة ، اذ كان يخيل اليهم ان ساعة هلاكه قد دنت ،
أشاروا عليه باعتزال الحكم ، ليبعدوا عن المدينة اهوال الحصار . لكنه
اجاب وقال : « اهدأوا روعكم ، اخلائي ، فان الذي في يده زمام
الامور ، سيتيح لي عن قريب ان اعرب لكم عن شكري لنصيحتكم
هذه » . واتبعه كما يجدر به التحريض من التأثير ، عهد الى حواشيه من
ذوي الفطنة والاقدام ، في التسلل بين صفوف العصاة ، وحض هؤلاء
على الطاعة ، مبينين لهم عاقبة تمردهم ، موضحين في اذهانهم عدم الفائدة
من مقاومتهم . ثم اجتذب اليه بعض سكان عكا من الدروز على

حمل السلاح ، فصنفهم الى عمل المدفعية . وهكذا توصل الى ايجاد جيش صغير تمكن به من رد الوهابيين على اعقابهم . وولّى المماليك الادبار ، فدفع الى ما وراء الصحاري . ومن ثم عاد الى النساء اللاتي يخفن من الموت فرمى عليهن من يخدعهن وطرحهن عاريات في قعر مركب ، يُبعْن في اسواق الاستانة . وبادر من ثم الى قطع اشجار الحديقة لئلا يبقى لاحد الاختباء وراءها ، حتى مظاهر دار الحريم لم تنجُ من نقمته .

وقد حدث ذات يوم ان مملوكاً يدعى سليمان ، وهو من المماليك المتمردين ، عاد الى القصر على حين غرة ، فما رآه الجزار غضب غضباً شديداً ، واستل فأساً يضربه بها ، وقال له : تحت من شقي ثم ! ما الذي جاء بك الى هنا ؟ اجاب المملوك وقال : جئت اموت على قدميك ، في افضل الموت على العيشة بعيداً منك . قال الجزار : يمكنك ان تعرف حق المعرفة ان الجزار لم يعفُ قط في حياته عن احد . فعاد سليمان جوابه الاول . حينئذ انخفض الفأس . وقد تكررت الاقوال بينهما مثنى وثلاث في وسط سكوت رهيب ، فكان شبح الموت باسطاً ذراعيه على ذلك المكان ، والحضور صامتون ، كأنهم في حضرة رجل يجود بروحه . واخيراً رمى الجزار الفأس من يده ، وقال : هوذا الجزار يعفو لاول مرة في حياته كلها ! ..

ومن غرائب الاتفاق ان سليمان هذا خلف الجزار في الحكم ؛ ولا شك ان اختباره للمحن وقفه على ان يكون حليماً عادلاً بمقدار ما كان سلفه شرساً عاتياً .

بيد ان الجزار كان يميل احياناً الى التنكيت . واذا طرحنا جانباً استهزاءه بالذين كان يحكم عليهم بالموت ، اتضح لنا انه كان يعرف اطراف مناحي فن الكلام ، ولنا شاهد على ذلك ما قاله يوماً لاحد

نصارى عكا . وتحرير الخبر ان تاجراً كان يقيم مع ابنه في بيت له طبقتان ، مشيد على شاطئ البحر . فالاب كان يسكن الطبقة العليا التي كانت جافة طلقة الهواء ، ويقيم الابن في الطبقة السفلى التي كانت رطبة وهواؤها مضر بالصحة . ولما عزم الابن على الزواج ، حمل اباه على التخلي له عن غرفه لمدة اسبوعين . غير ان الخمسة عشر يوماً انقضت والشاب وعروسه لم يخليا تلك الغرف ، فبادر الاب الى تذكيرهما بوجوب اعادتها اليه فتوسلا اليه ان يمهلهما اسبوعاً آخر حتى يعدا العدة للانتقال الى الطبقة السفلى . لكن الاسبوع انقضى ، والشابان لم يحركا ساكناً . فالاب الذي امضته الرطوبة عاد الكرة واعاد بلا جدوى ، اذ قال له ابنه : سيبقى كل منا حيث هو الآن ..

فالجزار الذي كان له جواسيس في المدينة ، علم منهم بالحادث ؛ فامر باحضار الابن . ولما مثل الشاب بين يديه ، قال له بغضب : ما هي ديانتك ؟ اجابه خائفاً متلعثماً : انا مسيحي . فقال له الجزار : ارني كيف يعرف المسيحيون بعضهم بعضاً . فبادر الشاب الى رسم اشارة الصليب ، قائلاً : باسم الآب ، والابن ... فقال الجزار : اذن يعلمكم دينكم ان الاب يجب ان يكون فوق والابن تحت فاطع اوامر دينك ان اردت ان يبقى رأسك على جسمك .

فهرس الكتاب

	صفحة
تمهيد	٣
ولاية حلب	٥
ولاية طرابلس	١٦
ولاية صيدا (او عكا)	٣١
ولاية دمشق	٤٥
ايالة فلسطين	٧٠
نظرة شاملة	٨١
الفلاحون والفلاحة	٨٦
الصناعة والتجارة والملاحة	٩١
الفنون والعلوم	١٠٠
عادات السوريين وبعض طباعهم	١١٠
ملحق : في بعض مظالم الجزار	١١٧

B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

[redacted]
فولني، قسطنطين فرنسوا شاسبوف (كون
سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثاد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

CA

CA
915.69
V92sA
v.1-2
c.1